في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة



الإسلام
الإيمان
العبادة

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم



إسطنبول: ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م

إسطنبول: ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م

اسم الكتاب باللغة التركية: İSLAM İMAN İBADET

الترجمة للعربية: الإسلام والإيمان والعبادة

ترجمة: د.أرسين اشجي أوغلو.

مراجعة وتصحيح: محمد عزالدين سيف/ د.أرسين اشجي أوغلو.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٣١٨٠

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Address: İkitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

الإسلام
الإيمان
العبادة

عثمان نوري طوباش



مُقَدِّمَة

الحمد لله تعالى حمداً يليق بجلال ربوبيته وعظمة شأنه، والشكر له أن رزقنا لذة الإيمان والطمأنينة!

والصلاة والسلام على سيد الكونَين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم الذي أخرج الله تعالى به البشر من ظلمات الجهل والضلال إلى أنوار العلم والمعرفة!

إن كل ذي فهم وإدراك سليم يعلم بأن هذا العالَم لم يُخلق من غير غاية، وأننا لم نُخلَق في الحياة عبثاً. لذلك أرسلَ الله تعالى إلى البشر الرسلَ والأنبياءَ يرشدون الناس في حياتهم ويبلغونهم رسالة التوحيد، فكان قول الله تعالى للبشر كافة:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾[1]

فالتبليغ الإلهي الذي سُمي بـ «الدين المبين» أو «الإسلام» إنما هو لطف من ألطاف الله تعالى بعباده، يوقِظ الناسَ من غفلتهم التي يتيهون فيها، فينالون الهداية والرحمة والعناية الربَّانية التي لا ريب فيها، وينتقلون من الفناء إلى الخلود والبقاء، وهناك يتلذذون بالسعادة الأبدية.

---

١ الأنعام: ١٥٣.



لهذا يُعدُّ الإسلام نعمة تأتي على رأس النِّعَم العظيمة التي وهبها الحق سبحانه وتعالى لبني آدم. وأهل الإيمان الذين تربوا بهذه النعمة الإلهية الجليلة من عهد آدم عليه السلام إلى وقتنا الحاضر حافظوا- ببركة الإسلام- على الجوهر الأصلي في خلقهم، وجعلوا قلوبهم والدنيا في حال من الإشراق والصفاء. وقد نال المخلصون الخواص من عباد الله الصالحين والصادقين درجات أسمى من تلك التي تتمتع بها الملائكة الكرام، فتلذَّذوا بالسعادة التي تلبي حاجاتهم الفطرية السليمة.

ولا ريب أن في أعماق قلب الإنسان إحساسٌ بالحق، وقدرة على التعرف إلى الله نابعة من عقيدة راسخة، ذلك أن فطرة الإنسان قائمة على الحقائق الإيمانية، ومزيَّنة بلذة سماوية عجيبة. ومما لا شك فيه أن هذه التجليات قد ظهرت وتحققت دائماً على مر التاريخ البشري من خلال نعمة تطبيق الإسلام في الحياة.

والحق أن الإسلام جلبَ إلى هذا العالَم الفاني لذة عقيدة التوحيد، وأي لذة أعظم للناس من هذه اللذة! لذةٌ ترتبط بظهور أسرار المستقبل وألغازه في قلوبهم؛ أي تلك التي تعود إلى ما بعد الموت. وقد عمل الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم واتبع أثرهم على التمسك بالإسلام بهذه اللذة، أي بمحبة لقاء الله تعالى، فبذلوا أموالهم وأرواحهم، واستقاموا على سبيل الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بثبات وإخلاص على قدر طاقتهم وقدرتهم البشرية.



إن الذي يأمل أن يحيا عبداً مخلصاً للخالق ﷻ ينبغي أن يصل في حياته إلى الشعور بالدين، ويلزم نفسه على السير في ضوء الأحكام الإلهية. وليستبشر أولئك المؤمنون الذين استقر الإيمان في قلوبهم، والقرآن الكريم في صدورهم، والأخلاق الكريمة في وجدانهم، وعاشوا حياة مليئة بلذة السعادة الأبدية وصفائها، لأن كلتا السعادتين الدنيوية والأخروية تتجلى في هذه الأمور؛ أي في الارتباط بدين الله تعالى واتباعه. إن السعداء الذين أفلحوا في تحقيق هذا الأمر قد صاروا في سجل الصالحين، ونالوا محبة الحق سبحانه وتعالى وتكريمه. وأما الذين أعرضوا عن الحقائق الإيمانية السامية فقد رحلوا عن هذه الدنيا وقد باؤوا بالخسران في الدارَين، وحقَّ عليهم عذاب الله الأليم، فما بكت عليهم السماء والارض في مصائبهم ولا ابتسمتا في أفراحهم. وصارت الأجيال والأقوام السابقة التي تعرضت للخير أو الشر وسيلةَ عظة وإرشاد، لمن جاؤوا بعدهم. إن السماء التي تظلنا اليوم هي السماء ذاتها التي أمطرت المصائب والكوارث الجسام على المنكرين والملحدين في غابر الأزمان. والشمس التي نراها في كبد السماء اليوم هي الشمس ذاتها التي أضاءت في العصور الماضية قصور كثير من الجبابرة والظالمين وقلاعهم مثل فرعون، وهامان، ونمرود، ثم هي نفسها التي أشرقت على خرابها وآثارها من جديد بعد أن حلَّ بها الدمار والخراب. إن السماء التي سوف تزين قلوب البشر مرة



أخرى كما في كل مرة إنما هي سماء الإسلام، وإن الشمس التي ستمزق ظلمات الغفلة ثم تنشر النور في أنحاء الدنيا إنما هي شمس الإيمان. فالواجب الذي يقع على عاتق الإنسان أن يستظل تحت سماء الإسلام ويستضيء بنور شمس الإيمان، فيتعرف إلى ذاته ويعرف ربه العزيز الجبار. إن الإنسان نسخة مصغرة عن هذا العالم الفسيح الكبير، ذلك أن تركيبته الترابية البسيطة تكتنز من أسرار التجليات الإلهية وأنوارها وحقائقها ما يعجز البيان عن وصفها وحصرها. والإنسان إبداع من بدائع صنع الله تعالى المجهز بدقائق الأعضاء وبرقائق المشاعر وبجمال الخَلق، وهو جوهر كتاب الكون، وفاتحة مصحف الخَلْق. وما جعل الله الإسلام والإيمان إلا ليحفظ هذا البناء السامي.

إن هدف الإيمان تحقيقُ التوحيد المتجسد في كلمة «لا إله إلا الله»، وتخصيص القلب لله تعالى وتخليته من كل شيءٍ سواه. فإدراك الإيمان والتوحيد يكون بالعلم، والأخلاق، واكتساب القيم المعنوية.

لقد اتضح الجانب العلمي للإيمان بكلمة «آمنتُ»، وأما الجانب الأخلاقي فما ذُكِرَ في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة من الأدب، والحياء، والعفة، والرحمة، والشفقة، والعفو، والصبر، والشكر، والمحبة.

وأما القسم العملي للإيمان فهو الأحكام التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المتعلقة بالوقائع الظاهرة، والتي من



جملتها العبادات والمعاملات والمظاهر الأخلاقية؛ حتى إن إزالة الأذى عن الطرقات عُدَّت من فروع الإيمان، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تبين هذه الحقيقة، مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**الحياء من الإيمان**»[2]

«**الطهور شطر الإيمان...**»[3]

«**الدين النصيحة...**»[4]

إن زيادة إيمان المؤمن وبلوغه الذروة مرتبط بالأعمال الصالحة والنيات التي يُقصد منها تحقيق مرضاة الله سبحانه وتعالى. وقد ورد ذكر الإيمان والعمل الصالح مقرونَين في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، فالإيمان لا يكتمل بصورة نظرية، وإنما يكتمل بالحقائق المحسوسة التي يشعر بها الإنسان في داخله، وبأداء العبادات بخشوع وإخلاص.

إن لذة الكمال هذه علت لدى الخواص من عباد الله الصالحين على سائر الملذات الدنيوية الفانية، وقضت على سائر ما يعانونه من آلام واضطرابات وعذابات وشدائد دنيوية مهلكة لا يصعب تحملها.

---

٢ البخاري: الإيمان، ١٦.

٣ مسلم: الطهارة، ١/ ٢٢٣.

٤ مسلم: الإيمان، ٩٥/ ٥٥.



ومن أبرز الشواهد على هذه الحال سحرةُ فرعون، إذ لما آمنوا بالله تعالى وخضعوا لجلال ربوبيته، ذاقوا أشد أنواع العذاب والتنكيل، حين أقدم فرعون على تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ثم صلبهم على أشجار النخل، فما كان من هؤلاء المؤمنين إلا أن رفعوا أكُفَّهم إلى السماء مظهرين عجزهم البشري أمام هذا الظلم الرهيب الذي تعرضوا له، وهم يخشون من أن يقعوا ضحية الضعف فيخسروا إيمانهم، فتضرعوا إلى الله تعالى بقولهم:

﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [٥]

وصاروا إلى ربهم بلذة إيمانية يعجز البيان عن وصفها، ونالوا الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومن المسلمين المخلصين أتباعُ سيدنا عيسى عليه السلام الأوائل، فقد حافظوا على رباطة جأشهم بكل إيمان مع انهم أُلقُوا داخل أقفاص السباع الشرسة لتُمزق أنيابُها الحادة أجسامَهم الطاهرة المباركة، فنالوا الشهادة وارتقوا إلى ربهم عز وجل.

والصحابية الجليلة سمية رضي الله عنها التي كانت تخشى حتى من وخزة إبرة صغيرة قبل إيمانها تحملت أشد صنوف العذاب بفضل اللذة الإيمانية الإلهية، وثبتت على إيمانها حينما كوى المشركون جسمها المبارك بقضبان حامية، فنالت مرتبة الشهيدة الأولى في الإسلام.

٥ الأعراف: ١٢٦.

وكذلك زوجها الصحابي ياسر ﵁ الذي ثبتَ وتحمل تحملاً تعجز الكلمات عن وصفه على كبر سنه وضعف جسمه، ولم يخضع للمشركين ولم يتزحزح عن إيمانه حتى في اللحظة التي ربطوا فيها كل قدم من قدَميه بناقة، وجُرَّ كل منهما في جهة، وإنما كان يردد: «الله، الله»، فاستُشهد متلذذاً بلذة الروحانية والسعادة الأبدية. وكذلك الصحابي بلال ﵁ فقد كانت جلادته وصموده بفضل لذة محبة لقاء الله تعالى، وكان الدم الاحمر القاني ينزف من جلده الأسود تحت وطأة التعذيب والتنكيل الشديد الذي ينزل به المشركون البغاة الطغاة الظالمون، إلا أنه لم يستسلم أبداً وإنما كان يقول: «أحد أحد»، فيشعر قلبه بلذة لقاء الله أكثر من شعوره بالألم الذي يصيب جسمه الفاني. ذلك أن امثال هؤلاء الصحابة كانوا قد أدركوا عظمة نعمة الإسلام حقَّ الإدراك، فعلموا أن الدخول من أبواب العزة الإلهية في كل من الحياة الأولى والآخرة لا يكون إلا بحب الله والشوق للقائه، وأنهوا حياتهم الفانية وفقاً للأمر الإلهي القائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٦]

لينالوا الحياة الحقيقية والأبدية.

٦ آل عمران: ١٠٢.



وقد عاشت أجيال المسلمين الذين جاؤوا بعدهم بعز وشرف حينما جعلوا الإسلام تاجاً على رؤوسهم. ولكن بعد مضي سنوات طويلة انقلبت الأحوال رأساً على عقب، وبدأ هذا الانقلاب- مع الأسف- عندما أدار المسلمون ظهورهم لروح الإسلام وفقدوا محبة الله بانخداعهم بالمحبة المادية، وقد عرَّضت هذه الأحوال الأمةَ العظيمة لأشد الذل والمهانة امتحاناً لها، وأغلظَت قلوب الناس. وبلغت الأمة حداً مفرطاً من الهروب من هويتها الروحية والسعي نحو التقليد الأعمى للغرب. وما أعجبَ أن نرى اليوم الغرب ينجح في الاستفادة من مصادر الإسلام العلمية الغنية ويرتقي ويتطور في مختلف المجالات، حتى إن بعضهم يهتدون إلى الإسلام مع انغماس العالَم الغربي في دين باطل قد فُقِد أصله الصحيح، بينما نحن المسلمون ابتعدنا عن ديننا الحق ووقعنا ضحية لأهواء النفس وغوائلها. فقد خرج الدين عن كونه مصدر طاقة وطمأنينة وقوة للمجتمع، ولم يبقَ له إلا هيكل لا روح فيه مليء بالبدع والخرافات. لقد غابَ جوهر الإسلام والإيمان الذي ربَّى ذات يوم أُسُدَ بدر، وصناديد الرجال الذين نشروا الرحمة في أرجاء العالَم، والفاتحين الذين شادوا الحضارة ونقلوها إلى قارات العالم ونالوا بشارة النبي ﷺ. وما يؤسفنا حقاً أن نجد أناساً يعكفون على إيجاد علاج للخلاص من هذه الحالة المزرية بترك خزائن حضارتنا الغنية الفريدة التي جعلت الغرب على هذا



التقدم والازدهار. فكان هذا الأمر فرصةً ذهبيةً لا تُعوّض لأولئك الذين يتربصون بالإسلام، ويعملون على هدمه من خلال خطط خبيثة تقضي أولاً باقتلاع الإسلام من قلوب المسلمين عملياً، ثم الانتقال إلى إسقاطه من الناحية الاعتقادية وإبعاد المسلمين عن روحانية الإسلام. وقد أمعنَ العالم الإسلامي الباكستاني محمد إقبال الباني الروحي لباكستان التفكيرَ في حال المسلمين وتألَّم لهذا الانحطاط المعنوي وفقدِ المسلمين عقيدتهم وعبادتهم ومعاملاتهم، وعبَّرَ عن ذلك كله بقوله:

«وا أسفاه! لم يعد هناك وجد العشق لدى المسلمين... لقد جف حتى الدم الذي يسري في عروقهم. انظروا إلى صلاتهم، صفوفهم معوجة، وسَجَداتهم حركات لا روح فيها، وقلوبهم خالية من الطمأنينة والخشوع! لقد فُقد ذاك الجذب الإلهي الذي ينبع من أعماق القلب!

أيها العشق! أيتها البذور التي زرعناها! أيها المحصول الذي جنيناه! انظروا إلى أحوالنا؛ إن الناس الذين من طينة التراب قد أصابهم القِدَم... وقد خرج من طينتنا اليوم أناس مختلفون وغرباء لا صلة ولا شبه لهم بنا!»

ما أشد حاجتنا في آخر الزمان الذي نُمتَحن فيه إلى قوة الإسلام وعظمته، الإسلام الذي أوصل في يوم ما الصحابة الكرام إلى لذة محبة لقاء الله تعالى. وما أشد حاجتنا إلى فهم الجانب الروحي



من الدين بأفضل صورة ثم في الحياة وفق هذا الفهم السليم. وما يزيد من أهمية هذه الحاجة في وقتنا الحاضر وأهمية إحياء عصر الرسول ﷺ ما نراه من كثير ممن يدَّعون العلم والمحرومين من الهداية الحقيقية والذين يعملون بعمد أو عن غفلة عظيمة لا تُغتفر على تسليم أبواب قلعة روحانية الإسلام التي لا تُقهر إلى أعداء الدين والإسلام. وذلك لأن الحرمان من روحانية الإسلام وحقائقه يُعرِّض الإنسان إلى الانحراف عن الصراط المستقيم، والوقوع ضحية في المصيدة المنصوبة على طرق الضلالة والغفلة، ثم ينتهي به الأمر إلى التهلكة والضياع، وبذلك تنقلب سعادته الأبدية إلى نكبة سرمدية.

فمن الضروري للمسلم أن يحيا على التقوى في روحانية الإسلام ويجعل قاعدته في ذلك «إحقاق الحق، وإزهاق الباطل». والدين الإسلامي هو الدين الأكمل ودين آخر الزمان، لذلك فإن التقوى إنما هي الإيفاء بشروط الإسلام بخشوع، والعيش في الحياة بإيمان بالتأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام. فالإيمان حياةٌ تتمثل بدخول أنوار الدِّين إلى القلب، فيحيا الإنسان بنور الله تعالى، وأما التقوى فهو أن تغدو القلوب محلاً لنظر الله تعالى. إن الأخلاق الحسنة والعبادات وأعمال الخير والحسنات كلها من مظاهر التقوى. ومما ينبغي أن نعلمه أن الإسلام الذي يُعاش على طراز غير المسلمين، وحياة غير المسلمين التي تكون



على نمط المسلمين لا تمنح الإنسان السعادة الحقيقية. فالذي ينفع الإنسان عند الله تعالى إنما الوصول إلى محبة لقاء الله بلذة الإسلام التي كانت سائدةً في عصر رسول الله ﷺ، والعيش وفق الإسلام بقلب سليم.

وقد دفعتنا هذه الحقيقة إلى إعداد هذا الكتاب المتواضع الذي يتحدث عن البنية الروحية للإسلام. وبذلنا ما استطعنا من جهد للتعبير عن بعض الحقائق حول الإسلام والإيمان وبيانها، وأملنا ونيتنا الأساسية من ذلك نيلُ رضا الحق سبحانه وتعالى والاشتراك في القافلة السائرة على درب خدمة الدين الإسلامي. وقد حاولنا في هذا الكتاب بعد ذكر معلومات عامة عن الإسلام شرح كلمة الشهادة، وأركان الإيمان، ثم بيان العبادات الأساسية للإسلام من الناحية الروحية بصورة أعم، لأن الإسلام يعني تعلم العبد بالصورة الصحيحة سبيلَ نيل القلب السليم بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح، وتعلم السير على الطريق الموصل إلى الله من خلال سر أحسن تقويم، وبدء حياته على هذا الأساس.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى محمد علي أشملي صاحب الجهد الكبير في تنظيم هذا الكتاب المتواضع وتأليفه، وإلى غيره من إخواننا الذين لم يبخلوا علينا بالعون والمساعدة، وأتضرع إلى المولى ﷻ أن يجعل خدماتهم هذه صدقة جارية في صحائف أعمالهم. وما أعظم سعادتنا إذا استطعنا بهذا الكتاب أن نتقدم



بالقلوب ولو خطوة واحدة نحو تطبيق الإسلام والخضوع لأحكامه كما فعل الصحابة الكرام.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يُكرمنا مما أكرمَ به نبيَّه إبراهيم عليه السلام حينما قال عنه:

﴿**إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[7] نبينا إبراهيم عليه السلام الذي ثبتَ أمام المصاعب الجسام التي تعرَّضَ لها من ظلم واضطهاد شديد لقيه على يد نمرود ورجاله تارةً، وامتحانات إلهية عظيمة تارةً أخرى، فتوجه إلى الله تعالى بتسليم وتوكل ورضا لم يسبقه إليه أحد.

آمين!

عثمان نوري طوبّاش

اسطنبول

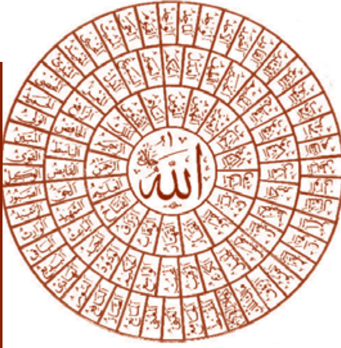
١٢/ ٠٢/ ٢٠٠٠

٧ الصافات: ٨٤.



الإسلام وبُنيته السامية

في رحاب القرآن والسنة



الإسلام وبُنيته السامية

في رحاب القرآن والسنة

إن محتوى الدين المبين الذي ابتدأ بظهور الإنسان الأول والنبي الأول على وجه هذه البسيطة؛ أي سيدنا آدم عليه السلام، واستمر إلى يومنا هذا إنما هو ذاته في كل صفحة من صفحات تكوُّنه. ولا يظهر الفرق إلا في الأحكام الاجتماعية التي كانت تواجه المتغيرات والتطورات المختلفة التي تطرأ على الحياة البشرية في كل عصرٍ من العصور. فهذا يعني أن محتوى «الدين»، هذا الاسم الذي أُطلق على التبليغ الإلهي اعتباراً من سيدنا آدم عليه السلام ووصولاً إلى نبي آخر الزمان وخاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ، إنما هو المحتوى نفسه، واسم هذا المحتوى هو «الإسلام».

ولذلك فقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«الأنبياء أخوة لِعَلَّات[8]، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[9]

---

٨ أولاد العَلَّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى.

٩ البخاري: الأنبياء، ٤٨.

فالإسلام ليس منحصراً في محتوى القرآن الكريم كما يعتقد كثير من الناس؛ إذ إن كل الأديان السماوية في أصلها قبل تعرضها لتحريف البشر إنما هي الإسلام.

وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بصورة جلية، إذ قال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾[10]

وهذا البيان الإلهي إشارة واضحة إلى أن السبيل الوحيد لسلامة البشر جميعاً في الدنيا والآخرة إنما هو الإسلام. وقد بين الله ﷻ هذه الحقيقة بصورة أوضح في آية قرآنية أخرى، قال فيها:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[11]

إذاً، فما الإسلامُ الذي تطور تطوراً يوافق مسيرة نضج البشر منذ آدم عليه السلام، حتى وصل إلى ذروة الكمال كما ورد في القرآن الكريم؟

في البداية سنلخص كل التعريفات التي وردت في هذا المجال في النقطتَين الآتيتَين:

١- الاعتقاد (الإيمان الصادق وأصول العقيدة.)

---

١٠ آل عمران: ١٩.

١١ آل عمران: ٨٥.

٢- العمل الصالح (يأتي بعد الإيمان، وهو الإيفاء بكل العبادات والمعاملات التي كلفنا بها الله تعالى بإخلاص وصدق).

إذاً، إن الإسلام الذي يحياه العبد في ظل هذين الأمرَين سلسلةٌ من المحاسن تضمن أن تكون أفكارنا وحياتنا وسلوكنا كما أمرنا الله سبحانه وتعالى. الإسلام طريق إلى الله تعالى، إذ يربط بين العقل والسمع والبصر واللسان والقلب بروابط سامية لتتوجه جميعها إلى الخالق سبحانه وتعالى. فالأسرار والدقائق السامية فيه إن تقاطرت رحمةً على صخرة صماء فإنها تحولها إلى قلب ليِّن، إلا أن القلوب البعيدة عنه باتت كالحجارة أو أشد قسوة مترامية في صحارى الغفلة والتيه. وما سبيل الخلاص من هذه الحالة إلا الإسلام.

إن الإسلام فجر السعادة الذي يجعل الإنسان بأجمل صورة من الناحية الفكرية والقولية والفعلية ليصل به إلى الكمال، ويخرجه من الظلمات إلى النور. أي إنه مقام يصعد بالإنسان من الدركات السفلى ليبلغ به إلى أعلى القمم. ومَثَله مَثَل التراب الطيب الذي تُغرس فيه الزهور، فمهما غُرست فيه أغصان وفسائل ضعيفة وذابلة، فإنه يحولها إلى ورود وأزهار من الزنبق والياسمين والرياحين التي تفتن العيون وتُبهِج القلوب. والإسلام يرتقي بالعباد البسطاء إلى مراتب متميزة، فيعود بالخلقة إلى حالتها الأصلية ويجمِّلها بأحسن صورة. إنه بضاعة أسرار الإنسان والكون.



ومن هنا كان الإسلامُ الصراطَ المستقيمَ الوحيدَ الذي يقود العباد في رحلتهم الأبدية- بغير أن يقعوا في الخسران- إلى الجنة العلا حيث النعم الإلهية العظيمة، إنه النعمة الأبدية الخالدة التي وصفها أحد الشعراء بقوله:

هو الدين المبين؛ ماء الكوثر للقلب، وماء الحياة
إن شربنا منه عاشت معنا السماوات والأرض
إنه السدرة، فبراق الإسلام لا يترك العبد على الأرض
يأخذ الأمة إلى حيث المعراج محمدٌ الأمين
إنه تاج العالمين، دعا حتى للمذنبين
وحسبنا أن نقول من القلب: آمين
فهل يؤمن بنور الإسلام فحسب قلب الإنسان؟
لا، بل تؤمن به الجبال، والجداول، والشمس والقمر
عاشق الجمال يرتجي وصالك وجنتك
فيا ليت قلوبنا تخرج ونحن من أمة محمد عند تلاوة (يس).

إن عقيدة الإسلام حبل الله المتين المُنزَّل إحساناً ولطفاً إلهياً للإنسان التائه في سراديب التهلكة على وجه الأرض. ومن يعتصم بهذا الحبل يخرج من ظلمات الفناء ليحلِّق في آفاق الروحانية وينضم إلى قافلة الخالدين.



وقد عُرِّف الإسلام بأنه التسليم التام لله تعالى في كل الأمور لأن نيل ثماره يكون بهذا الاعتصام والخضوع التام، فأجمل مظاهر العبودية التي ترفع من شأن البشر لا يتحقق إلا بالتسليم المطلق.

لقد بين الله تعالى حقيقة تسليم الأنبياء الذين يُعدون أكثر الناس عبودية لله تعالى وذلك حينما وجَّه إليهم أمراً عاماً يثبت صلاحية الإسلام لشتى مجالات الحياة.

هذه الحقيقة تجلَّت في قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٢]

إن هذا التسليم دليل على معيَّته مع الله تعالى وذكره وشكره الدائم، فالغاية من العبودية وسائر العبادات إنما هي المعية مع الله عز وجل؛ أي معرفة الله ومحبته. وفيما يلي مثال مليء بالحِكم في هذا الشأن:

يُروَى أن واعظاً كان يعظ الناس من على كرسيه، ويتحدث لهم عن أحوال القبر. وكان من بين الحاضرين الشيخ أبو بكر الشبلي. وذكرَ الواعظ في ختام حديثه الأسئلة التي سوف يسألها الله تبارك وتعالى عباده في القبر، وقال:

«سوف يُسأل العبد عن علمه فيما عمل به! وعن ماله فيما أنفقه! وعن عمره فيما أفناه! وعن عباداته! وعن مراعاته الحلال والحرام!..» وعدَّد أشياء كثيرة.

---

١٢ البقرة: ١٣١.



ولما لم يلتفت الواعظ إلى أساس المسألة على الرغم من إسهابه في الحديث عن التفاصيل والفروع، قال الشيخ أبو بكر الشبلي:

«أيها الواعظ! لقد نسيتَ أهم سؤال! إن الله ﷻ سيسأل: يا عبدي! لقد كنتُ معك، فمع من كنتَ؟»

فإذا ما تأملنا في هذا القول، ندرك بأن الإسلام هو أن يحيا العبد ذلك الشعور الذي يتجلى في قول الله تعالى:

﴿...**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**...﴾[13]

فيبلغ مرضاة الله تعالى.

فالإسلام يعني تأمين النجاة والسلامة في الآخرة على أساس محبة الله تعالى والارتباط به وإطاعته. ونظام الأرض والسماوات وصلاحها مرتبطة بالطاعة، فإن زالت العبودية والطاعة لدى الإنسان فإن النظام الإلهي ينقلب إلى تجليات غضب وعذاب شديد، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [14]

فنفهم من هذه الآية أن الناس عندما يبتعدون عن العبودية والطاعة؛ أي يولون وجوههم عن الإسلام، يختل التوازن في

١٣ الحديد: ٤.

١٤ الروم: ٤١.

البراري والبحار وتحدث الكوارث والآفات الشديدة في الطبيعة، وكل ذلك عقاب دنيوي بسيط للمجرمين والمفسدين، وتحذير لهم لحملهم على العودة مجدداً إلى التمسك بحبل الإسلام.

إن العبد الذي يتمتع بالبصر والبصيرة السليمة يرى المؤثِّر في الأثر، ويرى المسبِّب في السبب؛ وينظر إلى المادة فيدرك المعنى؛ ويتذكر الآخرة بإمعان النظر في حقيقة الدنيا؛ ويتأمل في منظومة الكون العظيمة، لا سيما السماوات الواسعة فتحضر في فكره كل لحظة عظمة الخالق وقدرته اللامتناهية؛ ويدرك عجزه ويعرف نفسه، فلا يبتعد عن العبودية أبداً؛ ويطَّلع على الأسرار الإلهية أثناء السير إلى العالم الأبدي، فينضم بشوق اللقاء إلى قافلة الساجدين العابدين. وبذلك تتحقق غاية الخلق، ويحصل العبد على النعم الكثيرة، ويصل إلى الخلاص ويبلغ مرضاة الله تعالى. يقول الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[15]

ففي الشطر الأول من الآية الكريمة تتجلى حقيقة أن الإسلام إنما هو الخلاص والملاذ الآمن للعباد الذين يدينون بالعبودية لله ﷻ.

---

١٥ الأنعام: ١٢٥.



ويبين الله تعالى في الشطر الثاني حال الذين يبتعدون عن تلك الحقيقة المتمثلة بالإسلام، إذ يكون مصيرهم الضياع في سراديب الغفلة، والخسران والهلاك الأبدي.

فالخلاص الوحيد للبشر تفيؤُهم بظلال الإسلام، والدخول في رحاب سعادته الأبدية، إذ يقول رسول الله ﷺ:

«**من قال: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً وجبت له الجنة**»[١٦]

إن كلمة «الإسلام» مشتقة من السِّلم والسَّلامة، فمن معانيها الارتباط، والخضوع لله تعالى، والحفاظ على طهارة النفس والقلب السليم، والدخول في السلام، والإخلاص؛ ويتكامل الإسلام في الأساس مع الإيمان.

وسورة الفاتحة التي هي فاتحة القرآن الكريم تُعد تعريفاً للإسلام:

فالإسلام دين إلهي يقود العبد إلى الصراط المستقيم بسلامة دون تعرضه للغضب الإلهي، ودون الانزلاق إلى الضلال والانحراف، ويحمله على تقديم الحمد والشكر على نعم الله تعالى التي لا تحصى في سعادة وسلامة، وذلك بقوله:

«الحمد لله رب العالمين». ويدفع هذا الدين العبدَ إلى أن يحيا حياته بسرِّ قول:

---

١٦ أبو داوود: الصلاة، ٣٦؛ الترمذي: الصلاة، ٤٢.



«يا رب! إياك نعبد وإياك نستعين.» كي يستمر في هذه الحال السامية من السعادة والسلامة.

فبالإسلام وحده يمكن تلبية الحاجة للإيمان، وتهدئة العقل، وتأمين سلامة المال والنفس، والحفاظ على النسل، وتحقيق أحسن تجارة للآخرة. وإذا ما نظرنا إلى مضمونه ومبادئه، فإننا نتوصل إلى نتيجة واحدة وهي في غاية العظمة ألا وهي أن:

الإسلام هو الدين الإيماني الأصح على الإطلاق؛ فمبادئ العقيدة مبادئ سامية، وبعيدة عن المعتقدات الفاسدة التي تسيء إلى شرف الإنسان وكرامته، مثل عقيدة الشرك وما شابهها.

وهو دين العبادات التي تغذي الروح وتسمو به؛ إذ إن العبادات التي كلف الله بها العباد بصورها وحِكَمها المختلفة تحقق لهم فوائد كثيرة، سواء جسمياً أو روحياً، فتتلذذ القلوب بها وتتمتع وكأنها تعيش حياة الجنة.

وهو دين الرحمة؛ إذ مهما غاص البشر في مستنقع الذنوب والغفلة والضلال، فإنه يبسط لهم أجنحة الرحمة والعفو والغفران، ويحملهم إلى رحاب السعادة، ودليل ذلك أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي:

«إن رحمتي سبقت غضبي»[١٧]

١٧ البخاري: التوحيد، ١٥، ٢٢؛ مسلم: التوبة، ١٤ – ١٦.



هو دين الرأفة والمرحمة؛ وهذه الصفة مرادفة تقريباً لصفة الرحمة، وهي من أهم الخصائص التي يتميز بها الدين الإسلامي. حيث ذكر في البسملة التي تُعد عنوان كتاب الله كلمتَا «الرحمن والرحيم» اللتان تعبران عن هذه الصفة بعد لفظ الجلالة، وتكرر ذكر هذين الاسمين الإلهيين مرة أخرى في الآية الثانية من سورة الفاتحة أول سورة في القرآن الكريم. وذُكِرَ أيضاً اسم الرحمن كأول كلمة في سورة أخرى وسُمِّيت السورة باسم «الرحمن». فقول الله تعالى في تلك السورة: ﴿**الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ إشارة إلى أن القرآن الكريم إنما هو رحمة مهداة من الحق سبحانه وتعالى إلى البشر جميعاً. وما يؤكد ذلك ما ورد في سورة الإسراء، إذ جاء فيها ما يدل بوضوح على أن القرآن الكريم رحمة وشفاء للعالمين.

فمن أهم الصفات التي اختص بها المولى ﷻ أنبياءه ورسله صفة الرحمة والرأفة بالناس، لا سيما سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إذ قال فيه:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[18]

ويتضح بهذا البيان الإلهي أن هذه الصفة الملازمة للنبي عليه الصلاة والسلام فريدة لا طاقة لأحد من البشر في الوصول إلى درجتها، ومن دلائل رحمته ﷺ الرحمةُ والشفقة العظيمة التي أبداها تجاه أهل الطائف الذين بالغوا في ظلمه وإيذائه حتى إنهم

١٨ الأنبياء: ١٠٧.

جعلوا سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أُدميَ، لكنه بعد أن تعرض لما تعرض له من الإيذاء، جاءه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال، ولما قال له ملك الجبال: «إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبَين»[19]، لم يرضَ رسول الله ﷺ بذلك، بل دعا لأهل الطائف بالهداية. فيمكننا القول أن أول ثمرة من ثمرات الإيمان في الإسلام إنما هي «الرحمة».

وقد عبَّر الأولياء من عباد الله الذين عاشوا حياتهم كلها على هذا النحو عن عبوديتهم بالخصلتَين الآتيتَين:

أ- تعظيم أمر الله تعالى، أي تنفيذ أوامر الله عز وجل في احترام وإجلال وتقدير.

ب- الشفقة بخلق الله، أي إظهار منتهى الشفقة والمرحمة بالمخلوقات لأجل الخالق.

وهو دين المنطق. الإسلام لم يأتِ حصيلة العقل والفكر والمنطق، وإنما هو دين سماوي مُنزَّل من الخالق عز وجل إلى عباده، لذلك فإنه يوجه العقل والمنطق بأصح وأجمل طريقة يؤمِّن التوازن المتكامل لدى الإنسان على أفضل صورة؛ أي إن العقل يسيح في عوالم الكيف والكم، لكنه لا يصل إلى غايته إلا بالتوحيد. ومن أجل ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يكثر في القرآن الكريم من

١٩ مسلم، الجهاد، ١١١.



خطابه: «أفلا تعقلون؟» ليدعو بذلك الناس إلى التفكر والتدبر. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**» مبيناً بذلك الأهمية الكبيرة لاستخدام العقل في بحار المعرفة والحكمة، وذلك لأن العقل ترجمان على طريق الوصال مع الله تعالى.

وهو دين المحبة والعشق. إن الإسلام لا يكتفي في الإقناع بسبيل العقل فقط، لأن العقل على فوائده الجمة والعظيمة يكون أحياناً ترجماناً للإنسان بعيداً عن الوصال والوجد، فيعجز عن حمل هذا الإنسان إلى بلوغ هدفه، ويغرقه في الوساوس والشكوك. لذلك كان من الضروري إحالته إلى أمر العشق والمحبة، وتعريضه للمعاتها. ويقول أحد الأولياء الصالحين:

«إن العبد السعيد يعلم بأن التوقف عند استخدام العقل والذكاء الجاف من عمل إبليس، وأما صبغه بالمحبة والعشق ثم السير به إلى الله تعالى من عمل بني آدم! فالعشق يشبه القارب، ومن النادر تعرض الشخص الراكب في القارب للكوارث، وإن تعرض لها فإنه كثيراً ما ينجو منها.»

فالذين يجعلون العقل بغير محبة دليلاً لهم- أمثال الفلاسفة- يصبحون أسرى للزمن، وخدماً لأصنام السمع والبصر. أما معرفة العقل للحق سبحانه وتعالى فتكون بالمحبة، والمحبة لا تأخذ من العقل إلا الدعم والإسناد وتستفيد منه.



إن ثمرة العشق التضحية، وهذه التضحية تبلغ درجة بذل الروح والتخلي عنها. فالصحابة الكرام ﭫ لم ينالوا تلك المنزلة الرفيعة، ولم يصبحوا قدوة للبشر جميعاً إلا لما تخلوا عن كل رغباتهم الشخصية، وضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان كل واحد منهم يسارع إلى تلبية رسول الله لدى أدنى رغبة منه بقوله:

«بأمي، وأبي، ونفسي أنت يا رسول الله!» مبدياً بذلك استعداده للتخلي عن كل شيءٍ في الدنيا في سبيل تلبية رغبته، فعاشوا بذلك حياتهم في جو روحاني مليءٍ بالمحبة والعشق.

فالإسلام دين القلب، إذ يزين قلوب الناس.

وهو دين التوازن. مما لا ريب فيه أن إحدى أهم الخصائص العظيمة للإسلام هو التوازن الكبير في بنيانه الرصين. فكما أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل هذا الكون في حال من التوازن العجيب المتكامل، فإنه قد وضع هذا التوازن عينه في الدين المبين الذي أرسله إلى البشر. فإذا ما تناولنا أي جانب من جوانب الإسلام ووضعناه تحت مجهر البحث والنظر، فإننا سنجد هذا التوازن الفريد الدقيق الذي وضعه الله تعالى. إن هذا التوازن العجيب نجده في شتى المجالات، فهناك توازن موجود بين الدنيا والآخرة، والروح والجسم، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والخواص من الناس والعوام، والصغير والكبير، والشاب والمسن،



والمادي والروحي.. وغير ذلك كثير. وهذه الفروقات التي تبدو في الظاهر متناقضات إنما هي في الحقيقة متممة بعضها بعضاً، لأن كلَّ واحد منها ضرورية للآخر الذي يقابله؛ فعالم الآخرة ضرورة للدنيا، وعالم الدنيا ضرورة للآخرة، والجسم ضرورة للروح، والروح ضرورة للجسم، فالإسلام يضع كل متقابلَين في مكانه المناسب، ويوائم بينهما ويجعلهما في تناسق وتناغم، وهكذا فإنه يجعل الإنسان بجناحَين يسمو بهما.

وهو دين العلم والحكمة. الإسلام ليس بدين الجهل والجاهليين، وإنما الدين الخاتم والمتكامل بكل جوانبه والذي أنزل من لدن الخالق سبحانه وتعالى من أجل القضاء على الجهل وإنهاء عصر الجاهلية، إذ عدَّ العلمَ شرطاً أساسياً للتقوى والخشية الحقيقية من الله تعالى، فقال الله تعالى في ذلك:

﴿...**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**...﴾[20]

وقال رسول الله ﷺ:

«**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[21]

إن هذا البيان الصادر عن النبي عليه الصلاة والسلام كافٍ ووافٍ لإدراك مدى أهمية العلم في الإسلام.

٢٠ فاطر: ٢٨.

٢١ أبو داوود: العلم، ١/ ٢٦٨٥.

إلا أن الإسلام لا يريد ولا يقبل أن يكون العلم في أرض جرداء قاحلة، وإنما ينمي العلم في ينابيع الحكمة والعرفان ليتحول إلى حدائق وبساتين مزهرة وفواحة بالروائح العطرة. وإلا فلا نفع للعلم، إذ كما أن المعلومة الطبية التي تفتقر إلى الوجدان يمكن أن تنقلب في يد صاحبها المتجرد من الإنسانية إلى وسيلة للإجرام، فكذلك العلم البعيد عن الحكمة والعرفان، فإنه بدل أن يحقق الفائدة يكون سبباً للكثير من الأذى والضرر. وفي إشارة إلى هذا الأمر يقول رسول الله ﷺ:

«من ازداد علماً ولم يزدد في الدنيا زهداً، لم يزدد من الله إلا بعداً» [٢٢]

وهو دين مكارم الأخلاق. إن الكائن المتربع على عرش المخلوقات إنما هو الإنسان. فالإنسان خليفة الله على الأرض، والإنسان من الناحية الجسدية مخلوق من التراب، وأما من الناحية الروحية فقد نُفخ فيه سر من أسرار قدرة الله ﷻ. وعندما يخاطب القرآن الكريم الإنسان فإنه يلفت الانتباه إلى ذلك الجوهر الكامن بين جوانحه، ويهدف إلى عدم فساد ذلك الجوهر الثمين بأهواء النفس وغوائلها. أي إنه يريد تخليص العبد وإبعاده عن سلبيات النفس، وتزيينه بالأخلاق الكريمة السامية ليستجيب لدعوة الحق ﷻ بقلب سليم. فالشرط الوحيد الذي يجعل الإنسان يحيا حياته

٢٢ كنز العرفان: ٦٢.



بصفته الإنسانية بمعناها الحقيقي إنما هو قدرته على الوصول إلى الأهداف السامية للدين والأخلاق. والقدوة التي تحتل قمة الكمال الإنساني ومكارم الأخلاق سيدُنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ويبين رسول الله ﷺ بأن موضوع الأخلاق الحسنة هو أحد أسباب بعثه نبياً إلى الناس، حيث يقول في الحديث الشريف:

«**بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»[٢٣]

وعندما أثنى الله سبحانه وتعالى على النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم، أشار إلى حسن أخلاقه، إذ قال:

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٢٤]

إن النبي ﷺ الذي نالَ هذا الثناء الإلهي كان كما أخبر أصحابه الكرام أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وقد ورد في الحديث النبوي:

«**إن الحياء والإيمان قُرِنَا جميعاً، فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر**»[٢٥]

يقول أحد الأولياء الصالحين في هذه الحقيقة:

«سألت عقلي: ما الإيمان؟ فانحنى إلى أذن قلبي وهمس فيها قائلاً: (الإيمانُ الأدبُ). فالإنسان غير المؤدب يبقى محروماً من لطف الله تعالى وإحسانه.»

---

٢٣ الموطأ: الخلق، ٧.

٢٤ القلم: ٤.

٢٥ السيوطي: الجامع الصغير، ٦٥٨١/ ١٦٠٣.

والإسلام دين الرِّقَّة واللطف واللباقة. إن الرِّقَّة واللباقة التي تبدو في هذه الدنيا بلا أهمية كبيرة ستكون لها أهمية بالغة يوم الحساب كما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام. والنبي عليه الصلاة والسلام الذي يُعد أسوة حسنة لنا في شتى ميادين الحياة، فإنه كذلك في الرقة واللباقة في التعامل. إذ إنه عليه الصلاة والسلام لم ينسَ الرقة واللين في تصحيح الأخطاء حتى لدى رؤيته أعظم الأخطاء التي كان يقع فيها الناس من حوله، فلم يكن يخاطب المخطئ ويشير إلى خطئه مباشرة، وإنما كان يخاطبه بطريقة تلميحية غير مباشرة بتوجيه خطابه إلى عامة الناس، ويبدأ بقوله:

«ما بالُ أقوام يفعلون كذا وكذا»

وهو دين الحق والحقوق. إن من أهم المسائل التي اهتم الإسلام بها كثيراً مسألة الحق والحقوق. وقد بين الإسلام بأن الأمر الثاني الذي لا يعفو عنه الله ﷻ بعد الشرك به إنما هو التعرض لحق العباد. حتى إن النبي ﷺ قد أولى هذه المسألة أهمية كبيرة وأظهر للناس مدى خطورتها حينما توجه بنفسه إلى المسجد النبوي وهو في مرض موته، وطلب من الصحابة الكرام أن يسامحوه إن كانت لهم عليه حقوق، أو يتقاضوها منه إن أرادوا، فقال مخاطباً إياهم:

«أيها الناس! مَن كنتُ جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه! ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا مالي فليستقد منه!» [٢٦]

٢٦ عاصم كوكسال: تاريخ الإسلام، جـ ٢، ص٣٨.



إن هذه العدالة الإسلامية القائمة على أصول سليمة راسخة تعرض المستوى الرفيع الذي بلغته والتي سوف ستُدهش البشر إلى يوم القيامة. ولذلك فإن الفيلسوف الفرنسي «لا فاييت» الذي يُعد أحد واضعي الأسس الفكرية للثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ قام قبل «إعلان حقوق الإنسان» بالبحث والتحقيق في كافة الأنظمة الحقوقية التي شهدها البشر، بما فيها التشريع الإسلامي، ولما اطلع على مبادئه السامية في العدالة والإنسانية، ورأى تفوق نظامه القانوني، قال

«يا محمد، يا صاحب الشأن العظيم! إنك قد بلغت مستوى رفيعاً في تحقيق العدالة والذي لم يستطع أحد إلى يومنا هذا من بلوغه أو تجاوزه!»

إن التاريخ الإسلامي مليء بمظاهر هذه العدالة الرفيعة، ونورد فيما يأتي أحد هذه المظاهر:

إذ اشترى رجل فرساً، وقد كان الفرس في الثانية من عمره سليماً نشيطاً، إلا أنه مات في يد صاحبه الجديد بعد ثلاثة أيام من الشراء. فشكَّ الرجل بأن الذي باعه الفرس قد أطعمه علفاً مسموماً يُميته على المدى الطويل لعداوة يكنها له. فأتى دار القضاء من أجل تحصيل حقه، إلا أنه لم يستطع رؤية القاضي لمدة ثلاثة أيام متتالية، فأخذ الفرس النافق إلى طبيب بيطري لفحصه ومعرفة علة موته كي لا يضيع مزيداً من الوقت. فأكدت المعلومات التي تلقاها من



الطبيب البيطري صحة شبهته، فأتى دار القضاء مرة أخرى، فوجد القاضي، وعرض عليه المسألة.

فقال له القاضي:

- لِمَ لم تأتني في بداية الأمر، وذهبت إلى الطبيب البيطري؟ فلو أنك جئتنا في الحال لوجدنا لك حلاً للمسألة في حينها!

فلما سمع المُدَّعي هذا الكلام من القاضي، قال له:

- سيدي القاضي، لقد جئت ثلاثة أيام متتالية إلى محكمتك، إلا أنك لم تكن فيها!

فقال القاضي:

- معك حق؛ ففي الأيام التي جئتَ فيها إلى المحكمة لم أكن. لقد كنت في بلدتي إذ توفيت أمي...

ثم صمت القاضي، وبعد لحظات من التفكير توجه إلى كاتب المحكمة وقال له:

- لقد تبينت القضية. دوِّنْ أيها الكاتب، يُلزَم القاضي بتعويض الأضرار التي لحقت بالمدعي لأنه لم يكن في عمله في الوقت المناسب...



وصفوة الكلام أن الإسلام- بجوانبه المادية والروحية- دينُ الحياة الوحيد، فهو دائماً إلى جانب الحق ومُسلِّم له ومرتبط به؛ والإيمان قبول الحق وتصديقه.



وعلى ضوء هذه الحقيقة، قيل عن غير المسلمين الذين كانوا قريبين من الإسلام بمعاملاتهم وسلوكهم بمقتضى الفطرة السليمة الكامنة بين جوانحهم «مسلمون من غير دين»، وقيل عن الذين لم يقاربوا الإسلام بسلوكهم مع إسلامهم «مؤمنون غير مسلمين».

لذلك فإن الإسلام الذي يُطبَّق بصدق وإخلاص إنما هو البحر المعنوي الواسع المطهِّر لروح الإنسان. والمؤثِّر الذي يرفع العباد الذين انخدعوا بالرغبات والأهواء النفسية وانزلقوا إلى أسفل سافلين إنما هو الاستقامة على دين الإسلام.

يقول رسول الله ﷺ:

«إذا أسلم العبد فحسن إسلامه كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز الله عَزَّ وَجَلَّ عنها» [27]



إن الذين لم يقبلوا بدعوة النبي ﷺ منذ اللحظة التي بدأ فيها بتبليغ الإسلام، نحَّوا العدالة والحق جانباً، وتحولوا إلى أناس جلُّ مطلبهم في الحياة تحقيق متعهم وشهواتهم الغريزية دون قيد أو حد لبغيهم وغفلتهم وضلالتهم، ليجعلوا من أنفسهم ضحية للنفس والشيطان، وبذلوا جهدهم كي تستمر الحياة على هذا الضلال. والتاريخ مليء

٢٧ النسائي، الإيمان، ١٠/ ٤٩٩٨.



وشاهد على كثير من الأمثلة من هذا النوع، وأبرز مثال على ذلك مشركو مكة، فمع أنهم رؤوا النور يشع في القلوب، واعترفوا بصدق النبي ﷺ حينما وصفوه ب «الصادق والأمين» إلا أنهم لم يفلحوا في فتح أبواب قلوبهم التي غُلِّفت بالظلمات والجهالة ليدخلها نور الإسلام، وقد تغلبت عليهم اهواءهم، وأنكروا أشد الإنكار، مع انهم أدركوا وجداناً حقيقة الإسلام فباؤوا بالخسران المبين. لقد ظلموا أنفسهم، ومع أنهم أقروا بأن القرآن الكريم كلام إلهي وليس بكلام بشر، إلا أنهم أنكروه اتباعاً لرغبات نفوسهم فلبثوا في طغيانهم. وكذلك الأمر بالنسبة للنصارى واليهود، إذ إنهم ظلوا لسنوات طويلة يبشرون ببعثة رسول الله ﷺ وبقرب زمن ظهوره، ولكن لما بعثه الله تعالى، سارع هؤلاء إلى تكذيبه وإنكار رسالته لعصبيتهم العرقية لأن النبي ﷺ لم يكن من بينهم. لا سيما اليهود، حيث إنهم اشتهروا وسبقوا سائر الأمم في إنكار الحقيقة الأزلية والأبدية. والرواية التالية تعكس هذه الحقيقة وتدعونا للاعتبار:

لقد قرأ النبي ﷺ الآية القرآنية الآتية على مسامع اليهود:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢٨]

---

٢٨ آل عمران: ٢٠.



وبعد أن أنهى تلاوتها سألهم:

- هل أقررتم بالإسلام؟

قال اليهود:

- أقررنا.

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام:

- هل تشهدون بأن عيسى عليه السلام كلمة الله، وعبده، ورسوله؟

فقالوا:

- معاذ الله!

فكانوا بهذا الإنكار من المعرضين الخاسرين.

وقال رسول الله ﷺ للنصارى أيضاً:

- هل تشهدون بأن عيسى عليه السلام كلمة الله، وعبده، ورسوله؟

فقال النصارى أيضاً:

- معاذ الله أن يكون عيسى عبداً!

وفي يوم آخر ذهب النبي عليه الصلاة والسلام إلى المعبد والمكان الذي يتلقى فيه اليهود دروسهم وتعاليمهم، ودعاهم إلى الإسلام. فسأله نعيم بن عامر وحارث بن زيد:

- من أي دين أنت؟

فقال رسول الله ﷺ:

- أنا على دين إبراهيم عليه السلام.

فقالا:

- لقد كان إبراهيم عليه السلام يهودياً.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- إذاً، فليحكم بيننا التوراة.[٢٩]

ولكن اليهود لم يتجاسروا على الموافقة على عرض النبي عليه الصلاة والسلام. حتى إنه لما أسلم كبير أحبارهم عبد الله بن سلام والذي كانوا يبالغون في تبجيله وتقديره زادوا من رفضهم للحقيقة، وتراجعوا عن ثنائهم على أعمال عبد الله بن سلام السابقة، وبدؤوا يبالغون هذه المرة في ذمه والإساءة إليه. ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل عمدوا إلى التغييرات التي أجروها سابقاً في كتبهم، ودققوا في الأقسام التي تحتوي على معلومات حول خاتم الأنبياء فحرفوا من جديدٍ الكثير من تلك الأقسام. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة، حيث قال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...﴾[٣٠]

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[٣١]

---

٢٩ الدين الحق لغة القرآن: ٢، ٣٣٤.

٣٠ البقرة: ٧٩.

٣١ النساء: ٤٦؛ المائدة: ١٣.



لقد فسدت الديانة اليهودية والنصرانية بتحريف البشر إذ اتبعوا أهواءهم ورغباتهم فابتعدتا عن أساسيهما، وعمدَ أتباع هاتين الديانتين إلى تشريع مختلف أنواع الضلالات والموبقات في كتبهم المقدسة باسم الإصلاحات.[٣٢] لذلك فإن الدعوات التي نسمعها في أيامنا هذه والتي تنادي بالمصطلح المشبوه «إصلاح الإسلام» لا يقصد به سوى إحداث نوع من التبديل والتحريف الذي أجري على الأديان السابقة. وإن استخدام تعبير «الإصلاح» ليس إلا قناعاً للخيانة المقيتة ومحاولة لتجميلها وتقديمها للناس بصورة مقبولة ومستساغة.

وينبغي لنا الإشارة إلى أنه من الواضح تعذر إجراء مقارنة بين هذه الإجراءات الإصلاحية التي يدعو إليها بعض المشبوهين والتي هي نتاج العقل البشري المحدود والعاجز حتى عن إدراك الكون المملوء بالأسرار والحكم، وبين الإسلام الذي يُعد أثراً من آثار إرادة كلية لا حدود ولا نهاية لعلمها وقدرتها. وذلك لأن الله سبحانه وتعالى العالِم بمختلف أحوال الإنسان وجوانبه الخفية منها والظاهرة، قد وضع أوامره ونواهيه بما يتناسب مع هذا الأمر، ويستحيل الوصول إلى هذا الكمال والإتقان من خلال عقل جافٍ وإرداة بشرية قاصرة إن لم تكن قد اصطبغت بالوحي الإلهي.

٣٢ إن أقدم نسخة للتوراة في عصرنا الحالي يعود إلى عام / ٩٠٠ / م. وهذا الأمر لوحده كاف لبيان ما حل بالتوراة الأصلي من تحريف وتبديل.

إن استحالة معرفة المخلوق وتوجيهه بصورة أفضل من الخالق حقيقةٌ ثابتة لا يمكن أن ينكرها المنطق السليم.

لذلك فإن الإسلام يُعد الدين موافقة للفطرة الإنسانية على الإطلاق.

ومن موجبات رحمة الله تعالى إحاطتها للبشر كافة. كما أن الأحكام القيمة التي وضعها المولى ﷻ تشمل سائر الأفعال التي تصدر والتي يمكن أن تصدر عن الإنسان، إذ إنها لا تدع أي فعل من أفعال البشر خارج نطاقها. وليس ذلك فقط، وإنما تجيب هذه الأحكام عن سائر الفرضيات والتصورات التي يمكن أن تخطر في عقل الإنسان ولم تتحول إلى التنفيذ العملي، فلا يترك الحق سبحانه وتعالى حتى هذه الفرضيات والأفكار المجردة خارج نطاق الأحكام التي شرعها لعباده. فالرؤى مثلاً ليس لها ماهية فعلية، ومع ذلك لم يهمل الإسلام هذا الشأن. إذ إنه سن بتشريعاته القيمة أحكاماً بشأن الرؤى فيما إن كان لها قيمة أو كانت غير ذات قيمة ومغزى، ويمكن تطبيق هذا المثال على الأنشطة الذهنية الأخرى.

إن أي نظام قانوني وتشريعي يوجه الناس وينظم شؤونهم إذا ما وُضِعَت قواعده وأسسه بإهمال أحد الميول الأصلية لدى الإنسان، فإنه سيواجه بعد مدة معينة العصيان والإخلال به لا محالة. ومثال ذلك الرهبانية في الكاثوليكية؛ إذ إن الكاثوليكية



تهمل مسألة الأسرة التي تعتبر من الميول الفطرية والأصلية لطبيعة الإنسان، وتحرم على الرهبان والراهبات الزواج. إن تطبيق هذا الأمر يخل بفطرة الإنسان ويسبب له نوعاً من الاضطراب وعدم الاستقرار، وبعد مدة من الزمن يدفع الإنسان إلى ارتكاب الكثير من المعاصي والآثام في السر.

والأنظمة والقوانين التي لا تُقدِّر الخصائص الثابتة وغير القابلة للتغيير في الفطرة الإنسانية، تفقد فرصة ديمومتها واستمرارها، لأن الفطرة أولاً وأخيراً تمزق الأصول التي تناقض طبيعتها وتزيحها من أمامها كالسيل الجارف. وهذا كان حال الغرب، إذ إن هذا العالَم الغربي الذي عانى الويلات والفظائع على يد النصرانية المحرفة لم يجد في النهاية خلاصاً إلا أن يضع للدين المحرف حداً ويرفع حكمه عن شؤون الحياة، ويضعه حبيساً بين جدران الكنائس. حتى إن كثيراً من الناس وقعوا ضحية الإلحاد لمخالفة النصرانية المحرفة للفطرة الإنسانية، وتصرفاتها العمياء المناقضة للعلم. وقد ظهر كثير من الطوائف الدينية المنحرفة والفاسدة التي أوصلت الناس إلى حد عبادة الشيطان لأن الدين حاجة فطرية عند الإنسان.

إن الدين الإسلامي لا تفقد أحكامه قيمتها وبريقها مهما تعاقبت عليه الأزمان، فقد وُضِعَت قواعده وتشريعه على ضوء العلم الإلهي والمطلق، والموافق للفطرة الإنسانية. فالإنسان هو نفسه في كل زمن بهذه الأسس الأصلية، فمثلاً المرأة لا تستطيع



أن تتجرد عن عاطفتها بحال من الأحوال، لذلك لن تتحقق العدالة فيما لو تم إهمال أخذ هذه العاطفة بعين الاعتبار عند شهادة المرأة في مواضيع معينة.

لقد حُددت النواهي الإلهية التي تحول دون تمرد الميول السلبية التي تكمن في الفطرة الإنسانية، ووُضعت كذلك بصورة دقيقة الأوامر الإلهية التي تنمي الميول الإيجابية لدى الإنسان وتجعلها مسيطرة على شخصيته وكيانه، وهذا الأمر من نتيجة الواقعية في دين الإسلام. فإلى جانب الأوامر والنواهي التي وردت بشأن الميول المشتركة بين الناس وغير القابلة للتغيير، تُرك للناس مساحة واسعة يتحركون فيها بِحُرية بشأن الأمور المتغيرة التي يُطلق عليها مصطلح «المصلحة»؛ إذ ليس هناك أمر أو نهي إلهي قاطع بشأن المسائل المتعلقة بالمصلحة.

والأمر الآخر الذي ينبغي أن نبرزه في هذا البحث كيفية غلبة الميول الفطرية الإيجابية في طبيعة الإنسان. وفي إشارة إلى هذه الحقيقة قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«كل مولود يولد على الفطرة،...» [33]

إن هناك سكينة وطمأنينة عامة تسود هذا العالَم نتيجة لغلبة رحمة الله تعالى على غضبه. وخير مثال لذلك أننا نجد أن

---

٣٣ البخاري: الجنائز، ٩٢.



أضعف المخلوقات وأعجزها يسكن في الغابات إلى جانب أقوى الحيوانات وأشدها وحشية وافتراساً. والحقيقة نفسها تنطبق على الإنسان الذي يُعد جوهر الكون، حيث تجتمع في كيان الإنسان تجليات الجلال والجمال والميول الإيجابية والسلبية، ولكن في الحالة الطبيعية- أي قبل بدء المؤثرات والمحركات الخارجية بلعب دورها الموجه لتلك الميول- نجد أن تجليات الجمال أو الميول الإيجابية هي الغالبة في الإنسان؛ أي إن هذا التوازن القائم لصالح الخير داخل الإنسان في مرحلة الطفولة الأولى من حياته قد يتعرض للفساد من المؤثرات الخارجية للمحيط الاجتماعي الذي ينشأ فيه الطفل. ويعمل الإسلام عن طريق مجموعة من الأوامر والنواهي على منع وقوع مثل هذا الإفساد، والمحافظة على الفطرة السليمة أي الصفاء والطهارة والنقاء الذي يتمتع به الإنسان في سنوات طفولته الأولى، وتنميتها. وكما أن الإسلام لا ينكر الميول السلبية الموجودة في التكوين الخلقي للإنسان، فإنه كذلك لا يجعل من القضاء عليها غاية يسعى إليها، لأن نتيجة مثل هذه الغاية الخسارةُ. ولكنه في الوقت نفسه يسعى إلى احتوائها ضمن مبادئ وقواعد منظمة وتوجيهها بالصورة الإيجابية. ومثال ذلك مشاعر الشهوة الكامنة في الإنسان، فبدلاً من تركها منفلتة طليقة دون إخضاعها لأي قيد أو شرط كما دعا إلى ذلك فرويد، شرَّعَ الإسلام وسائل معينة لإشباعها وذلك من خلال تنظيم عقد النكاح



الذي يجري وفق كتاب الله تعالى وسنة النبي عليه الصلاة والسلام وجعلها وسيلة لتكوين الأسرة وضمان استمرار النسل البشري. ويعمل الإسلام على ربط السعي بالغايات السامية التي تعود بالنفع والخير على البشر. وكذلك فإن الإسلام يرفع الشح والبخل والطمع جانباً من خلال تعليم الإنسان أولاً أن المال لله تعالى، ثم تشجيعه على الإنفاق ضمن حدود الاعتدال. وكذلك الأمر بالنسبة للحسد فإنه يحصره ضمن نطاق الغبطة، وينبغي التفكير بشأن سائر الميول السلبية في الإنسان على هذا المنوال.

والإسلام- كما بيَّنَّا في السابق- يوجِّه العقل بالصورة المثلى، ويريد له البقاء مرتبطاً بالوحي الإلهي، فما أكثر الأحكام الباطلة الغريبة التي سمعنا عنها عبر التاريخ البشري والتي كانت نتاج العقول البعيدة عن تربية الوحي الإلهي. لهذا تاه الفلاسفة وكذَّب بعضهم بعضاً، فمثلاً كانت السرقة من الأعمال المحمودة التي تلقى تقديراً في الأخلاق اليونانية القديمة بشرط أن لا يقع السارق في قبضة أحد، فكان المجتمع يستحسن مثل هذا العمل ويعتبره دليلاً على الذكاء والفطنة، فيُترك الفاعل دون جزاء. والقصد من وراء ذكرنا لهذا المثال إنما هو بيان كيفية اعتبار السرقة من ضمن الحقوق الطبيعية. إن مخالفة العقل الذي لم يتشبع بتربية الوحي الإلهي، حتى للقانون أو الحقوق الطبيعية، تسهل علينا فهم احتمال ارتكابه لحماقات كثيرة مماثلة في الميادين الأخرى.



من الحوادث المشهورة التي تُظهِر ضعف العقل حادثة جرت أيام الإغريق. إذ أراد أحد الشبان أن يطلب العلم، فأتى جورجياس وكان أحد أشهر الفلاسفة السفسطائيين آنذاك. واتفقا على أن يدفع الطالب نصف الأجرة، أما النصف الآخر فيدفعه إن ربح أول قضية، أي حينما يُكمل تعليمه، فيكون من حق الأستاذ حينها أن يأخذ النصف الآخر. ومرت الأيام، وصار الطالب سفسطائيًّا كبيرًا. غير أنه رأى النصف الأول من المبلغ كافيًا، فأبى دفع النصف الآخر، فكانت قضيته الأولى مع أستاذه. ومَثُلا أمام هيئة القضاة، فقال الطالب: «إنني لن أدفع شيئًا سواء أربحت القضية أم خسرتها»

فسأله القاضي: «ولمَ؟»

فأجاب: «إن حكمت لي بربح القضية فلن أدفع شيئًا؛ وكذلك إن خسرتها، لأننا اتفقنا على عدم دفع المبلغ إن خسرت أول قضية».

ثم قال الأستاذ الفيلسوف: «إنني سآخذ المبلغ سواء أربحت القضية أم خسرتها».

فسأله القاضي: «ولمَ؟»

فأجاب الأستاذ: «إن حكمت لي بربح القضية، فسآخذ المبلغ؛ وإن خسرتها، فإن تلميذي سيربح القضية، وعليه فإن شرط دفع النصف الآخر سيتحقق».

فلا يمكن إذاً إنقاذ المنطق الذي لم يخضع لتربية الوحي الإلهي من الانزلاق في المتاهات الكثيرة التي يصعب أو يستحيل الخروج منها، وهذا الأمر ثابت في التاريخ. إلا أن الإسلام قد بين بأن حق العبد على العبد لا يعفى عنه أبداً، ونبَّهَ أتباعه على الدوام إلى هذا الأمر، حتى إنه وضع قاعدة فريدة في غاية الروعة والجمال، وهو قول رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«ليس منا من بات شبعان وجاره جائع»

فعلم أتباعه الإيثار، ودفعهم إلى التفكير بهموم الناس وأحوالهم.

وهكذا، فإن الإسلام قد جعل الناس إخواناً في الإيمان تسود بينهم المحبة والوئام، ويتقاسمون كل ما يملكون، ويتسابقون إلى البذل والعطاء. لقد كان العرب في العصر الجاهلي مشهورين بالبغض والعداوة والحقد والغزوات والحروب الدموية التي لا تتوقف عند حد، وكانوا أعراباً أجلافاً يفتقدون إلى العاطفة الإنسانية، حتى وصل بهم الأمر إلى وأدِ بناتهم. وكان القوي منهم يأكل الضعيف، فكان الحق للأقوى دائماً.

إلا أن هؤلاء الناس قد تحولوا بمجيء الإسلام إلى أمة كانت خير الامم. حيث إن الذين كانوا في يوم من الأيام في بحر من الدماء ارتقوا ببركة الإسلام إلى فضاء المحبة والإيثار، ووصلوا إلى مرحلة من المحبة لبعضهم بحيث لا يتوقفون عن التفكير بإخوانهم



المؤمنين حتى في أشد الظروف التي يقابلون فيها الموت وجهاً لوجه. والحادثة التي يرويها الصحابي حذيفة ﵁ والذي كان يتجول في ميدان القتال بعد معركة اليرموك تظهر بأجمل صورة قمة الإيثار والحال الروحانية التي اكتسبها المؤمنون بفضل الإسلام، يقول حذيفة ﵁:

«بعد أن وضعت معركة اليرموك أوزارها أخذت في يدي قربة، وبدأت أتجول بين الجرحى في ساحة المعركة. فوجدت ابن عمي غارقاً في دماء جراحه وعيناه متجهتان نحو قربة الماء التي في يدي. فأسرعت إليه وقدمت له القربة ليشرب منها، وإذ بصوت عكرمة يطرق أسماعنا وهو يقول:

- ماء! أريد قطرة ماء!

فسحب ابن عمي الحارث الذي سمع هذا الصوت يده الممدودة إلى القربة وأشار إليَّ بعينيه طالباً مني أخذ قربة الماء إلى عكرمة. فأسرعت في الحال نحو عكرمة، ولما مددت إليه القربة بلغ إلى مسامعنا هذه المرة صوت عياش، وهو يطلب ماءً.

فما كان من عكرمة إلا أن سحب يده مثل الحارث، وأشار إليّ بأن آخذ الماء إلى عياش. ولما اتجهت إلى عياش ووصلت إلى جانبه لم يكن قد بقي وقت كافٍ لكي يشرب من ماء هذه الدنيا الفانية الذي بين يدي، وكان قد أغلق عينيه بلذة الشهادة. وبارتباك شديد عدت أدراجي وأقول في نفسي: «لعلي أدرك عكرمة!». ولما



وصلت نظرت إليه وإذا هو الآخر قد ارتقى شهيداً إلى ربه تبارك وتعالى. فسرت على عجل نحو ابن عمي الحارث، ولكن هو الآخر كان قد سلم الروح لبارئها».

فهذا هو الإسلام، وهذا هو الإيثار والتضحية والأخلاق الحميدة التي لا مثيل لها.

فبينما كان هؤلاء الناس في العصر الجاهلي متأهبين في أي لحظة للانقضاض على بعضهم وإراقة الدماء لأتفه الأسباب، ها هم قد أحاطوا قلوبهم بالإسلام بهذا اللطف والإحسان، فخلفوا لنا من ورائهم عصر السعادة. وقد بين الله تبارك وتعالى هذا اللطف الإلهي في القرآن الكريم، إذ قال:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[٣٤]

إن هذه الآية الكريمة توجِّه بشخصية الصحابة الكرام خطاباً شاملاً للناس جميعاً.

٣٤ آل عمران: ١٠٣.



أصول الإسلام الخمسة:

إن الإسلام- كما ذكرنا من قبل- له جانبان:

أ. **العقيدة.**

ب. **والعمل الصالح.**

فتكليف الإنسان في الإسلام يُقسَم إلى قِسمين: «اعتقادي» و «عملي». وأسس القِسم الاعتقادي مقدمة على أسس القِسم العملي، لهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«**إن أخوف ما أخاف منه على هذه الأمة الشرك**» [35] أو كما قال ﷺ.

وذلك لأن الناس عند الله تعالى يقسمون إلى طائفتين: مؤمنة وغير مؤمنة، وعلى ذلك فإنهم أمتان متمايزتان عن بعضهما. فأهمية الإيمان ثابتة باستحالة تجزئته؛ أي إنه لا فرق بين إنكار ركن من أركان الإيمان التي بيّنها الله تعالى وإنكارها كلها، لأن الإنكار يمس بالعزة والعظمة الإلهية. إذ إن إقدام الإنسان المتصف بالعجز المطلق على قلب الأمور التي جعلها الله تبارك وتعالى حقاً إلى باطل، وقلب تلك الباطلة إلى حق جريمة شنيعة، وسفالة ما بعدها سفالة. لذلك فمهما بلغت سوية أعمال البشر من الخير والعطاء فإنها لا تضمن لصاحبها أدنى سعادة إن لم يكن لديه إيمان. ونضرب على

٣٥ مسند أحمد: ٤، ١٢٤، ١٢٦.

ذلك مثلاً؛ إن مخترع المصباح الكهربائي أديسون قدم باختراعه هذا خدمة كبيرة للبشر جميعاً ومازالت آثارها الإيجابية والنافعة سارية إلى يومنا هذا، ولكنه مع ذلك لم ينل منه أي فائدة أخروية عند الله تعالى، لنقص في جانب العقيدة، لأن الإيمان في نظر الإسلام أساس كل شيءٍ.

ولكن ما من شك في أن العمل الصالح إنما هو ركن هذا الأساس ودعامته الوحيدة.

فيمكن القول بأن الدين الإسلامي يشبه شجرة فاكهة، فالتصديق بالقلب جذورها، والإقرار باللسان جذعها، والأعمال الصالحة أغصانها، وأوراقها، وأزهارها، وفاكهتها. فكما أن الشيء المنتظر من تلك الشجرة أول الأمر الفاكهة، فإن الشيء المنتظر من الإيمان العمل الصالح، ولا يمكن التقرب إلى الله والوصول إلى معرفته إلا بهذا الأمر. وبناءً على ذلك فإن الإسلام ليس مسألة إيمان فحسب، وإنما هو اشتراك بين الإيمان والعمل معاً، فالإسلام الذي يكون من دون جانبه العملي لا يؤمل منه إيصال صاحبه إلى السعادة الأبدية. لذلك كانت أربع من أركان الإسلام الخمسة عملاً صالحاً، أي عبادات. وأما الركن الخامس- كلمة الشهادة- فإلى جانب كونها وسيلة لإظهار الاعتقاد، فإنها أيضاً تحمل ماهية العبادة بوصفها ذِكراً.



يقول رسول الله ﷺ:

«بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» [٣٦]

ويشبه أحد الشعراء أركان الإسلام الخمسة هذه بخمس شموس متميزة، فيقول:

إن الذي منحنا الإسلام أقامها على أركان خمسة، وإن كلاً منها لروح البشر شمس مختلفة!

فأولها إيمان بالله وبرسوله؛ وهو اللب بينها، وهو كلمة مباركة ونورانية تفتح أبواب الجنة للروح!

وثانيها الصلاة؛ نور المعرفة والمعراج إلى الله، حيث التضرع والوصال الذي يزيل كل الحجب عن المحبوب!

وثالثها الزكاة؛ حيث نبع الحلال، وطائر السعادة يوم الحشر العظيم!

ورابعها الحج؛ حيث السير إلى الله بإخلاص، وحيث يجعل الله الإنسان مثل المولود الطاهر من الذنوب!

وآخرها الصيام في رمضان؛ نعمة الروح والجسم، فإن كنت مشتاقاً إلى هذه الجماليات فحلِّقْ إليها بقلبك!

إن كنت محمدياً فأنِرْ نفسك بنور الشموس الخمس، واخترق الظلمات وسر مؤمناً بنور الدين!

---

٣٦ البخاري: الإيمان، ١ – ٢؛ مسلم: الإيمان، ٢١/ ١٦.

إلا أن هذه الأركان الخمسة بالتأكيد ليست الإسلام كله، وإنما هي بمثابة الأعمدة الرئيسية التي يقوم عليها بناء الإسلام. ولذلك فإن الاعتقاد بأن الإسلام ليس إلا هذه العبادات فحسب اعتقاد خاطئ، لأن الإسلام نظام إلهي شامل يوجه سائر تصرفات الإنسان في هذه الحياة من المهد إلى اللحد، ويطهِّر البشر ظاهراً وباطناً. ويكفي لإدراك ميدانه الواسع إلقاء نظرة سريعة إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وأما سر الحديث الشريف الذي ذكر في الأعلى فهو إعطاء المسلمين بوصلة يسيرون بها، وهذه البوصلة تقتضي بناء الإسلام أولاً على هذه الأسس الخمسة التي ذُكرت في الحديث الشريف وتطبيقها، وإلا فإنه لا يمكن المحافظة على ثبات بناء الإسلام، لأن البناء القائم على أسس متهاوية وفاسدة لا يتماسك أمام أدنى هزة تصيبه.

ثمة كثير من الأصول الأخرى إلى جانب الأركان الخمسة الرئيسية للإسلام، ولكل أصل من هذه الأصول نصيب داخل بناء الإسلام الكلي. وقد قال حُذَيْفَةُ رضي الله عنه:

«الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم ـ أي الشهادتان ـ، والصلاة سهم، والزكاة سهم، وصوم رمضان سهم، والحج سهم، والجهاد سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، وقد خاب من لا سهم له ...» [37]

---

٣٧ البيهقي: شعب الإيمان، جـ ١٠، ٦٩/ ٧١٧٩.



إن الأوامر والنواهي في الإسلام تشبه رأس الفرجار الثابت، وأما الأوامر والنواهي الأخرى التي هي من السنة، أي النوافل فتشبه رأس الفرجار المتحرك. وهذا يعني بأن الفرائض شاملة لجميع المسلمين دون استثناء، وأما النوافل فإنها تظهر سعة وليونة بقدر مساحة الحركة في القسم المتحرك للفرجار. أي إن كل عبد مكلف في مجال النافلة على قدر طاقته وقدرته. فكما أنه ليس من الصواب لمن لديه طاقة واستعداد أبي بكر ﵁ أن يعيش بتقصير في مجال الإيمان والعمل الصالح مثل ذوي الطاقات الضعيفة، فإنه كذلك لا يمكن لأصحاب الطاقات الضعيفة أن يحيوا حياتهم مثل سيدنا أبي بكر ﵁. وأساس المسألة أنه يمكن للإنسان تحقيق مرضاة الله بالزهد والتقوى، والمحافظة على سر الخلافة في الأرض التي تفضل الله بها عليه من خلال القيام بالأعمال الصالحة على حسب القدرة والطاقة التي متَّعه الله تعالى بها بعد أداء الفرائض كاملاً.



إن الاطلاع المعنوي على الإسلام لا يقل أهمية عن الاطلاع الظاهري، فقد بيَّنَ الحق ﷻ للأمة دائماً أصل الإسلام والحِكم والجوانب الدقيقة المرتبطة بهذا الأصل بواسطة النبي ﷺ. والغاية من ذلك أن يتعلم المسلمون الإسلام والإيمان بماهيتهما الأصلية وبصورة صحيحة، ويقيموا الدين على أساس سليم.



ويروي لنا عمر بن الخطاب ﷺ الحديث المشهور بحديث جبريل عليه السلام والذي يدور حول هذه الحقيقة، إذ يقول:

«بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ. فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام! فقال رسول الله ﷺ:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»

فقال الرجل: صدقت. فعجبنا له، يسأله ويصدقه. ثم قال له: فأخبرني عن الإيمان. فقال رسول الله ﷺ:

«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»

فقال الرجل: صدقت. ثم قال له: فأخبرني عن الإحسان. فقال رسول الله ﷺ:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»

فقال الرجل: فأخبرني عن الساعة. فقال النبي ﷺ:

«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»



فقال الرجل: فأخبرني عن أمارتها. فقال رسول الله ﷺ:

«أن تلد الأَمَة ربَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»

ثم انطلق الرجل. فلبثتُ ملياً [وهذه العبارة مطابقة لما جاء في رواية مسلم. وجاء في روايات أخرى: التقيت بالنبي عليه الصلاة والسلام بعد ثلاثة أيام]. ثم قال لي النبي ﷺ:

«يا عمر! أتدري من السائل؟»

قلت: الله ورسوله أعلم. قال:

«فإنه جبريل عليه السلام **أتاكم يعلمكم دينكم»**.[38]

والحاصل؛ إن الإسلام كما جاء في البيان الإلهي:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[39] تجلِّي العبودية الحقة لله تعالى، ودين عبادة الله ﷻ. وقد قال الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم ﷺ في بيان هذه الحقيقة للناس:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ. قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[40]

---

٣٨ مسلم: الإيمان، ١.

٣٩ الذاريات: ٥٦.

٤٠ الزمر: ١١ – ١٤.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [41]

ينبغي أن نشير هنا بأن التدين لا يعني الإيمان العشوائي بغضِّ النظر عن الارتباط بالالتزامات، وإنما الدين مجموعةٌ من المعتقدات المناسبة والموافقة لرضا الله تعالى خالق الكون ومدبِّر أمور الحياة والموت، مقرونة بالأعمال الصالحة. إن الدعوة إلى الدين أمرٌ لم يُمنَح سوى للأنبياء والرسل. ومعجزة حفظ القرآن الكريم- على عكس باقي الكتب السماوية المقدسة الأخرى- وحمايته من تحريف البشر معجزة قائمة ومستمرة إلى يوم القيامة.

لقد هدمَ الدين الإسلامي مختلف الأباطيل والأوهام والأساطير التي تراكمت في عقول الناس منذ العصور الماضية، وردَّ سائر الضلالات والخرافات، وأعدَّ الإنسانية لجو من السلامة والسعادة من خلال تبليغ الحق، والحقيقة، والسكينة، والفضيلة، والعدالة ونشرها، وأوصل الفكر والوجدان [42] إلى الحقائق التي ظل يبحث عنها طويلاً.

---

٤١ الزمر: ٢٢.

٤٢ الوجدان؛ الحاسة التي تفضل الله بها على الإنسان وميزه بها عن سائر المخلوقات الأخرى، ولأنه مشتق من فعل "وجد"، فيمكن اختصار معناه بـ"اكتشاف الإنسان نفسه". إضافة إلى ذلك فإنه يحتوي على ميزة تمكن الإنسان من خلالها المحافظة على شرف إنسانيته وكرامته، والارتقاء بنفسه إلى منزلة أعلى من منزلة الملائكة وذلك بتربية النفس وتزكيتها والتخلق بالأخلاق الكريمة ليصل إلى معرفة ربه سبحانه وتعالى.



إن دين الإسلام يحمل الإنسان على اكتشاف نفسه فيه، ويوصله إلى جوهر قول الله تعالى:

﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...﴾[43] ويدله على جماليات الخلق ودقائقه، ويصقل مرآة قلبه، ويمنحه نصيباً من أسرار الخلق التي سوف تبلغه الحياة العزيزة، ويزين قلوب المؤمنين بالأوصاف الحميدة مثل العلم، والأخلاق الرفيعة، والرحمة، والشفقة، والعفو.

إن مفتاح السعادة للدين الإسلامي الإيمانُ والعملُ الصالح، لذلك فإن المؤمن الصالح يربط عقله بالحق، وقلبه بالخير، وأعضاءه بفضائل الأمور ليعيش حياة ملؤها العمل الصالح.

وصفوة الكلام أن الإسلام يحوِّل الدنيا إلى جنة معنوية لكل إنسان، والموت إلى راحة، والبعث إلى وصال وسعادة أبدية.

ويأسف الشاعر عاكف أرصوي على ما حلَّ بالمسلمين في عصرنا الحاضر لابتعادهم عن الإسلام الذي أعزهم الله به، ويدعوهم إليه فيقول:

إن أراد المسلمون أن لا يتعرضوا لهوان الأيام

فليعودوا إذاً إلى صدر الإسلام!

اللهم أعزنا بالإسلام في الدنيا والآخرة! ولا تحرمنا من ذلك النور الرباني! اللهم اقبضنا إليك مسلمين، وألحقنا بعبادك الصالحين!....آمين!

---

٤٣ ص: ٧٢.





جوهر الإسلام ومفتاح السماوات والأرض:

كلمة الشهادة، وأركان الإيمان



جوهر الإسلام ومفتاح السماوات والأرض:

كلمة الشهادة، وأركان الإيمان

إن كلمة الشهادة تكوِّن المرحلة الأولى لدخول الفرد الإسلام. وهي عبارة مباركة تحمل معنى الإقرار بوجود الله تعالى ووحدانيته، والتصديق برسالة رسول آخر الزمان وخاتم الأنبياء ونبوَّته، وجعل النفس شاهدة على ذلك، لهذا تُعدُّ كلمة الشهادة أساس الدين وسنده الرئيسي.

إن كلمة الشهادة كلمة في غاية السمو والقداسة بحيث أن خلاص جميع البشر وسعادتهم مكنونة في أسرارها ومعانيها السامية الكثيرة.

وقد وصفت هذه الكلمة الجليلة بأوصاف سامية كثيرة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، منها:



- الكلمة الطيبة.
- كلمة التقوى.
- القول الثابت.
- مقاليد السماوات والأرض.
- كلمة الإخلاص.
- العروة الوثقى.
- دعوة الحق.
- ثمن الجنة.

فهذه الكلمة تُعدُّ لب الألباب، والأصول الأخرى للإسلام وتفرعاتها المختلفة مرتبطة بهذا اللب، لذلك فإن كلمة الشهادة مع الإيمان خير وأفضل من سائر العبادات، فكل العبادات قائمة بها، والعبادات تكون محصورة ضمن أوقات معينة، وتؤدَّى في تلك الأوقات، وحتى الصلاة التي تُعد أفضل هذه العبادات مفروضة في خمسة أوقات محددة خلال اليوم الواحد. وأما الإيمان فهو فرض على الدوام وفي كل الأوقات، فينبغي الحذر دائماً من الانشغال بكل ما يمكن أن يُوقع القلبَ في الغفلة والعملُ على جعله ينبض بالإيمان في سائر الأحوال والظروف. فالإيمان لا يسقط بأي حال من الأحوال ولا يقبل أي عذر للتخلي عنه ولو لحظة واحدة. والمحافظة عليه في كل حين شرط ضروري، ولا رخصة لتأخيره.



إن كلمة الشهادة يتم الإقرار بها باللسان، والتصديق بها بالقلب بالعبارة المعروفة الآتية:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

وأما في معناها العميق فتحتوي على منظومة حقائق الإسلام.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم بتمامه إنما هو شرح وبيان لكلمة التوحيد، لأن القرآن الكريم دينٌ وتوحيدٌ، وقد جاء في الآية الكريمة في معرض بيان هذه الحقيقة:

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[44]

إن كل عمل صالح يحقق رضا الله ﷻ سواء في الدنيا أو في الآخرة إنما هو ثمرة للكلمة الطيبة التي هي التوحيد. فالعبادات تحقق للإنسان المتعة واللذة الروحانية، والأخلاق الكريمة بقدر ظهور الإيمان في القلب. وفي المقابل نجد أن كل عمل خبيث ينزل غضب الله تعالى وسخطه على الإنسان إنما هو نتيجة للكلمة الخبيثة؛ أي الكفر، حيث إنها منبع المصائب والفتن والكوارث.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ

٤٤ إبراهيم: ٥٢.



اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾[٤٥]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**تؤتي أكلها كل حين يعني ذكر العبد الذاكر لله تعالى في الليل والنهار.**».[٤٦] أو كما قال رسول الله ﷺ.

ويقول ابن عباس رضي الله عنه في معرض شرحه للآيات الكريمة:

«هنا إشارة إلى كلمة الشهادة. فالكلمة الطيبة هي في كلام العبد المؤمن وقلبه، وأما فروعها فهي في السماء. ولذلك فإن أعمال المؤمنين ترتفع إلى السماء. وأما الكلمة الخبيثة فهي تعبر عن كلمة الشرك والكفر والإلحاد. ولا يقبل بها أي عمل من الأعمال.»

يقول النبي عليه الصلاة والسلام في شرح قول الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾[٤٧]

بأن القصد من التزكية الواردة فيها هو:

النطق بكلمة الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله

وترك الأصنام في الباطن والظاهر.[٤٨]

٤٥ إبراهيم: ٢٤ – ٢٦.

٤٦ فضائل الأعمال: ٤٦٢.

٤٧ الأعلى: ١٤.

٤٨ فضائل الأعمال: ٤٦٦.

فمهمة أهل الله الذين أُمِروا بتزكية النفس وتطهير القلب إنما هي العمل بسِرِّ هذا الحديث الشريف. والآية الكريمة الآتية تبين بغض الله تعالى لأشكال لوثنية التي تتسرب إلى القلب، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[٤٩]

وقد ذُكِرَ في آيات كثيرة أن من مهام الانبياء جعل الناس يدركون معنى التوحيد بحق عبر تزكية النفس وتطهير القلب، ذلك أن جوهر الإيمان مثل المرآة اللامعة، والعبد يفسد صفاء هذه المرآة على حسب غفلته عن الحق ﷻ، فيكون ذلك حائلاً دون انعكاس تجليات جمال المولى ﷻ عليها. وأما ظهور التجليات الإلهية في القلب فلا يمكن تحقيقه إلا بالانشغال الدائم بذكر الله واستحضاره في العقل والوجدان، فالذكر ضد النسيان، ويزول ذلك الصدأ عن جوهر الإيمان حينما يتوجه القلب إلى الحق ﷻ بصدق وإخلاص.

إن الأنبياء والرسل وأهل الله يدعون الناس جميعاً إلى كلمة الشهادة التي هي مفتاح السماوات والأرضين بأجمل صورة. لقد ذاق أولئك الأصفياء لذة الإيمان الحقيقي، فنالوا رضا الله تعالى عنهم في الدارين. إنهم مشاعل تنير دروبنا في هذه الدنيا الفانية، ويستنفرون قلوبنا من أجل التوحيد. وما أجمل العبارات التي نطق بها الشيخ عزيز محمود هدائي في هذا الشأن إذ قال:

٤٩ الجاثية: ٢٣.



احفظ الوصية وهلم إلى التوحيد
توحيد الرحمن
جدد إيمانك
وهلم إلى التوحيد.

لا تنظر إلى الأماكن الغريبة
لا تحرق روحك
ولا تطلقها نحو كل ما ترى
ولكن هلم إلى التوحيد.

اغمض عينيك عن كل ما سواه
وترجى من الحق ما تود أن تترجاه
فلتغادر الهموم قلبك
وهلم إلى التوحيد.

ما تظن نفسك!
تنخدع بالدنيا الفانية
ستنهض من رقادك يوماً!
فهلم إلى التوحيد.

دعك من التقليد الأعمى
وادخل التوحيد بالروح
ابحث عن كل أمل
وهلم إلى التوحيد.

حذارِ أن تعبد الصور.
فانظرِ إلى وجهك بتمعن

وكن قريباً إلى الحق تعالى
وهلم إلى التوحيد.

حذارِ أن تصدق النفس
ولا تظن أنك عرفتها
ولا تحرق ذاتك بنار الشرك
وهلم إلى التوحيد.

لا ينبغي التأخر عن الأحباب
فهل تتذكر الموت؟
لا تتأخر فالقافلة راحلة
وهلم إلى التوحيد.

إن كلمة الشهادة تخبئ بين ثناياها أسراراً إلهية وحِكماً متنوعة، لذلك فإن السموات والأرضين والموجودات، والملائكة، وأصحاب العلم الحقيقي في حال تصديق وإقرار بكلمة التوحيد. إضافة إلى ذلك فإن الحق سبحانه وتعالى الذي يطلب من هؤلاء جميعاً التصديق والإقرار، يشهد بذاته على ذلك، حيث يقول في الآية الكريمة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[50]

ثمة أربع خصائص في كلمة الشهادة، وهي:

---

٥٠ آل عمران: ١٨.



١. إثبات ذات الله تعالى.

٢. إثبات صفات الله تعالى.

٣. إثبات أفعال الله تعالى.

٤. إثبات صدق رسول الله ﷺ.

وبناء على ذلك فإن كلمة الشهادة كالخاتم لأركان الإيمان الستة. فالشهادة التي تبدأ بكلمة «حقٌّ» التي تأتي بعد ذكر أركان الإيمان الستة والتي تشير إلى العبارات التي قبلها وبعدها، تشمل الإيمان كله، إذ نقول:

آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره
وشره من الله تعالى والبعث بعد الموت حقٌّ،
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

إن العبد يصبح مسلماً بأركان الإسلام الخمسة، ويحقق صفة المؤمن من خلال أركان الإيمان الستة.

لذلك لا يكفي لإنسان أن يصبح مسلماً ومؤمناً بالمعنى الحقيقي أن يقول: «آمنت». فإذا كان الإيمان يُلخَّص بأنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان بوجود الله تعالى وبنبوة رسول الله ﷺ، فإنه لا بد أن يكون في هذا التصديق موقف سليم وتوجه صحيح؛ أي ينبغي أن يكون الإيمان في نضج بحيث يُعد في نظر الإسلام تاماً وكاملاً، ويوصل صاحبه إلى بر الأمان والسلامة، وهذا الإيمان

يتطلب في أول الأمر أن لا يتضمن أي ادعاء أو تصور خاطئ بشأن صفات الله تعالى.

١- الإيمان بالله تعالى

إن عقل الإنسان يقف حائراً وعاجزاً أمام إدراك الله تعالى خالق السماوات والأرض وما بينهما من الكائنات من العدم إدراكاً تامًّا. لذلك فإن التفكير بالذات الإلهية ومحاولة إدراك ماهيتها لا يورث الإنسان أكثر من مجموعة من الأوهام والخيالات الفاسدة، ويُخلُّ بالعقيدة السليمة. فالنبي عليه الصلاة والسلام منع الناس من الجنوح نحو هذا التوجه بقوله:

«**تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله**»[٥١]

ولذلك فإن كبار رجال التصوف قالوا في هذا الشأن:

«يا رب! إنك على ما أنت عليه في كينونتك، وإنك يا رب منزه عن كل علمنا بك، وحتى عن تنزيهنا لك!»

لا شك أنه لا يمكن للإنسان الوصول إلى أي معلومة حول ذات الحق ﷻ، لأن طاقة البشر وطبيعته لا تؤهله لإدراكه، لذلك فإن إدراك الذات الإلهية غير ممكن على الإطلاق، وهذا الطريق مسدود أمامنا تماماً. إلا أن الطرق التي تمكن الإنسان من إدراك الموصوف من الصفات، والمؤثر من الأثر، والصانع من صنعته، والمسبب من

٥١ كتاب الأربعين: ج١، ص، ٩٠.



السبب مفتوحة ومتاحة أمامنا. فإذا ما تمعن الإنسان بإدراكه، ونظر إلى صفات الله تعالى وأفعاله بإرادة سليمة متجردة من التحيز، وبفكرٍ نقي بعيد عن التلوث بالأوهام والعصبيات، فسوف يتوصل إلى معرفته بلا ريب، ولن يقع أبداً في دائرة إنكاره. وذلك لأن الإنكار يبدأ بالظهور عندما يحدث فساد في نشاط الذهن والفكر، وانحراف أحاسيس القلب؛ أي إذا حافظ العقل والقلب على الفطرة السليمة، فلا يمكن أن ينساق المرء إلى الكفر أبداً، وحتى إن كان قد فتح عينيه على الدنيا في عالم محاط بالكفر والإنكار، فإن احتمال نجاته من الكفر يبقى كبيراً. ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام، فمع أنه وُلِدَ ونشأ في جوٍّ مليء بالكفر والشرك، فقد شعر من خلال ملكته الذهنية والقلبية السليمة بوجود الله تعالى ووحدانيته فأدركَ دين التوحيد، وقد ذكرَ القرآن الكريم قصته مع التوحيد بوضوح.

فنفهم من ذلك أن الإنكار المطلق ليس سمة العقل المتفكر المتدبر، لأنه لا يمكن تجاوز أمر ما لمجرد قول أنه غير موجود، وإنما يجب لذلك تقديم حجج وأدلة صحيحة ومقنعة. فما هي أدلة أولئك الذين لم يفهموا سر الحياة والكون والموت حينما يكتفون بالنفي؟ إن هذه الحال كحال من تكون معدتهم فارغة ولكنهم لا يشعرون بالجوع لخلل في جسمهم، فلا يكون ادعاءهم بعدم الشعور بالجوع إلا دليلاً للمرض الذي يعانون منه. ويصف الله تعالى في القرآن الكريم بالعمى والصمم أولئك الذين جعلوا



قلوبهم في غفلة فعجزوا عن درك الحقائق السامية الجليلة فصارت حالهم حكال من أُصيب بخلل في نظام جسمه الحسي، أو تعرض للتخدير فلم يعد يشعر بغرز الإبر في جسده، ولا بآلام تقطيع أعضائه بالسكاكين.

وذلك لأن الله تبارك وتعالى قد جعل في فطرة كل إنسان حاجة الإيمان والبحث عن الحقيقة، فلا يمكن أن يكون الجهل أو الانفصال عن الإيمان إلا لعمى وصمم معنوي، إذ إنه حتى قلوب الملحدين والمنكرين إما مستعدة لإدراك الله تعالى أو أنها بالفعل مدركة، إلا أنهم لِما أصابهم من العمى والصمم المعنوي لا يتمكنون من إخراج هذا الأمر إلى مستوى فوق المشاعر، وهذه الحالة تشبه تماماً الرؤيا والأحلام التي يراها المرء ويحس بها ولا يستطيع تذكرها بأحداثها وتفاصيلها...

لذلك علينا الاطلاع بصورة صحيحة على قدر استطاعتنا ومسؤوليتنا على صفات الله تعالى وأفعاله من أجل بلوغ مرحلة العرفان ومرضاة الله عن طريق معرفة الله تعالى الذي أوجدنا في هذا الكون من العدم.

وإذا ما أمعنا النظر في سائر الأديان السماوية والبشرية السابقة نجد أنها جميعها تحتوي على «الاعتقاد بالله»، إلا أن هذا الاعتقاد فيه أخطاء وانحرافات كثيرة، لذلك فإنها في نظر الإسلام غير مقبولة ولا يؤخذ بها، لأن عقيدة تلك الأديان لا تتوافق مع كون أن الخالق



الوحيد للكون منزه عن كل نقص، ومتصف بكل صفات الكمال؛ أي لا تتوافق مع كماله الذي يفوق الخيال. لذلك فإن الإسلام لاحتوائه عقيدة صحيحة عن الله سبحانه وتعالى، يضع وفقاً للبيان الإلهي وبيان الأنبياء والرسل مجموعة من الصفات التي يتصف بها الله تعالى، ولا يقبل بحال من الأحوال إنقاص أي من هذه الصفات، ولا إضافة أية صفة أخرى لا تتوافق مع تلك الصفات. وتنقسم هذه الصفات وفقاً للتصنيف العام والمشهور لها إلى قسمين:

أ- الصفات الذاتية.

ب- الصفات الثبوتية.

والصفات الذاتية هي:

الوجود: فالله موجود بذاته، ولا يحتاج في وجوده إلى غيره، لذلك يُقَال له: «واجب الوجود»؛ أي إن احتمال عدم وجوده أو انتفاء وجوده غير وارد على الإطلاق. وأما كافة الموجودات الأخرى فهي من مخلوقاته سبحانه وتعالى وتتصف بـ«ممكن الوجود». أي يمكن أن تكون موجودة، ويمكن أن تكون غير موجودة. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾[٥٢]

٥٢ البقرة: ٢٥٥.

إن النظام والتوازن والانسجام الدقيق السائد في هذا الكون الذي يحيِّر العقول ويعجزها حقيقةٌ جلية شاخصة أمام الأبصار ولا يمكن إنكارها على الإطلاق. وهذا النظام والانسجام المتكامل والقائم على توازن أبدي بحسابات في غاية الدقة مستمر دون أدنى خلل منذ أن خلق الله تعالى الكون، وماضٍ على هذا النهج إلى ما شاء الله. ومن أمثلة هذا التوازن والانسجام الحقيقةُ المعروفة بميلان محور الأرض، فلو لم يكن محور الأرض مائلاً بمقدار ٢٣،٥ درجة لما تعاقبت فصول السنة الأربعة، وعندها كان الشتاء الدائم في قسم والصيف الدائم في القسم الآخر. ومن الأمثلة بُعدُ الشمس عن الأرض، فلو أن المسافة بين كوكبنا والشمس زادت قليلاً لتحول وجه الأرض بكل أطرافه إلى مناطق متجمدة مثل القطبين، وعلى العكس من ذلك، فلو كانت المسافة أقرب بقليل لاحترق كل شيءٍ على وجه هذه البسيطة وتحول إلى رماد. إن هذه الظاهرة وغيرها من الظواهر المشابهة تبين حقيقة أن كل الأجرام السماوية إنما وُصِفَت بصورة تجعل الحياة ممكنة وسهلة.

إن وجود مثل هذه الآلية الحسابية بالغة الدقة والتعقيد والمتكاملة ما هو إلا إشارة على وجود الخالق ووحدانيته، وعلى قدرته وعظمته اللامتناهية. حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[٥٣]

٥٣ الرحمن: ٧.



﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[٥٤]

إن صاحب البستان إذا ما استيقظ في صباح أحد الأيام ورأى نوعاً من الفوضى قد حل ببستانه، يمكن أن ينسب ذلك إلى حدوث عاصفة أو كارثة طبيعية. ولكن إذا ما لاحظ أن هناك خللاً منظماً قد أصاب الأشجار أو رآها اقتلعت بدقة وحساب، كأن يرى مثلاً اقتلاع شجرة من بين كل ثلاث أو خمس شجرات بصورة متسلسلة ومنظمة فلن يسلِّم بأن هذا الأمر قد وقع نتيجة لحادثة طبيعية، وإنما سيعلم بأن هناك يد كائن قادر على التصرف بطريقة حسابية منظمة امتدت إلى بستانه وتعمدت إحداث تخريب فيه، وهذا الكائن يمكن أن يكون عدوه. إذاً علينا التوقف والتفكر في أن العقول التي لا تقبل ربط حادثة بسيطة مثل اقتلاع خمس أو عشر شجيرات لأسباب غير حسية، فكيف تدعي بعدها بأن هذا الكون الفسيح القائم على أدق العمليات الحسابية إنما وُجد لصدفة أو أنه إنما أوجد نفسه بنفسه؟ إن مثل هذه الادعاءات ما هي إلا غفلة ما بعدها غفلة!

ينادي الشاعر نجيب فاضل أمثال هؤلاء الغافلين بقوله:

أيما جهة نظرت أجد نفسي محاطاً

---

٥٤ الملك: ٣ – ٤.



أأكون محاطاً دونما محيط

من هو الرسام الذي نقش هذا الوجه

ألا مِن ناظر للمرآة وسائل هذا السؤال

ويدعو أحد أولياء الله الصالحين البصائر إلى التيقظ من خلال التفكر وفتح أبواب الحكمة، فيقول:

ما دمت ترى حركة حجر الرحى، فتأمل أيضاً ماء الجدول الذي يحمله على الحركة!

رأيتَ التراب والغبار في الأجواء، فانظر إلى الرياح التي رفعتها إلى السماء!

إن كنت رأيت قِدر الفكر يغلي، فالتفت بنظرك ببصيرة إلى النار التي تحمله على الغليان!

هل ترى أيها الغافل، أنه من المعقول أن يكون هناك بانياً لهذه القصور والصروح، والبيوت المنتشرة بين جنبات الأرض، أم أن لا يكون لها بانياً؟

أيها الإنسان! هل من المعقول أن تكون للكتابة التي رأيتها كاتباً قد دوَّنها، أم من المعقول أن تكون هذه الكتابات التي تزين الجدران وتملأ الصفحات سطراً سطراً لا كاتب لها؟!

يا هذا! أتستطيع أن تدلنا في هذا العالم المترامي الأطراف على شيءٍ قد أوجد نفسه بنفسه؟ اقتلع نبتة قد غُرست ونَمَت بنفسها من التراب، لنرى إن كانت قطعت نفسها بنفسها!



ما أجمل ما قال الشاعر:

لو أوجد هذا المكان نفسه بنفسه،
لارتفع هذا البناء بنفسه أيها الحكيم!..

إن المداخن التي وضعتها على أسطح المنازل تقول لك:
هل يصعد منا الدخان بنفسه من غير نار؟

هل تدور الكواكب بنفسها بنظام دون خلل،
لو لم تكن وراءها قدرة عظيمة تديرها؟

أيها الفلَّاح دع الحقل مرة لشأنه،
لنرى هل ينفصل القمح بنفسه عن التبن؟

إذا عطش التراب، فإن الغيوم في السماء تحاكي العين،
هل ترى هناك أنهاراً متدفقة بنفسها؟

من يقول اليوم لم أر الحجاب الخلفي،
فإن تلك الكذبة تنقلب غداً إلى ثعبان بنفسه!

لو وقف الأمر عند إبليس، لصب القطران على النور؛
ولقال للوجدان: صدِّق وحدك بنفسك!

هل علة المرض الظاهرة بعيدة عن العين؟
من يدعي أن هذه البثرة برزت من ذاتها! يقولها للطبيب.

يقول اللسان للمحمدي: تعرف على قدر نفسك،
ما كان ليتحرك لولاه من ذاته هذا اللسان.



إن كل إنسان صاحب إرادة وقلب سليم لم تفسد لديه الفطرة يميز بدقة سلسلة الأسباب الكامنة في الكون ويتتبعها بوعي حتى يصل بها إلى مسبب الأسباب، أي إلى الحق سبحانه وتعالى ليدخل في رحاب الإيمان بإدراك وفهم، إلا أن الشيطان قد وضع مصيدة على رأس كل زاوية في طريق ابن آدم إلى الإيمان لكي يفسد التفكير البشري ويخدعه. يقول أحد الأولياء الصالحين مذكراً بدسائس إبليس ومحذراً القلوب لكي لا تقع فريسة هذه المصيدة التي سقط فيها كثير من الغافلين:

«لا تنخدع بألاعيب الشيطان في أمر الإيمان، فإنه سارق ماهر، إذ يتسلل إلى بابك تحت جنح الظلام كلما سنحت له الفرصة ويطرقه. وأنت بلا شك تريد الخروج إلى الباب ممسكاً بالقنديل الذي بين يديك لتتعرف به على القادم إلى بابك. إلا أن ذلك السارق كلما حاولت إشعال القنديل يمسك بأنبوب الفتيل ويُطفئه. وبسبب الظلام لا ترى ذلك فتحيد عن الحقيقة وتقول لنفسك: (إن الفتيل فيه رطوبة). وبذلك يبقى ذلك اللص خفياً ومجهولاً لك، فتغفل عنه. إذاً إن الشيطان بهذه الصورة يتدخل في قنديل إيمانك في ظلام الغفلة، فيبعدك عن المؤثر الحقيقي ويسرق كل الفضائل التي في حجرة قلبك، فيجعلك مفلساً في الآخرة. وإذا ما استمر الأمر على هذه الحال فإن كلاً من عينك وقلبك لن يعلم شيئاً لا عن الأثر، ولا عن المؤثر!»



يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾[55]

يتبين من أحد وجوه هذه الآية الكريمة بأن إدراك عظمة الله تعالى وقدرته كما يليق به إنما هو من شأن العلم قبل أي شيءٍ آخر. ولهذا فإنه ليس من بين العلماء الذين يعملون في مجال البحوث التي تُجرى على الميكروبات والأحياء الدقيقة أحد بغير إيمان أو عقيدة. لا بل إن أولئك العلماء يتوصلون إلى إدراك وجود الخالق ويعلمون قدرته العظيمة بصورة أتم وأكمل من غيرهم، وذلك بسبب النظام المثير للدهشة والحيرة الذي يشاهدونه في الميادين التي ينشغلون بها، والحقائق العظيمة التي أوجدت ذلك النظام، وما العبارات التي نطق بها آينشتاين إلا مظهر من مظاهر هذه الحقيقة، إذ قال:

«إن خالق الأكوان لا يرمي بحجارة النرد، وليس شيءٌ مما خلقه فيه عشوائية أو من غير حساب دقيق. إننا مفتونون بتوازن هذه الدنيا وانسجامها العجيب على قدر فهمنا وإدراكنا... ويمكنني القول بأن كل من يبحث في علوم الطبيعة لديه نوع من احترام الدين، لأنه بعمله هذا كأنه مستكشف يعمل على كشف قدرة الله فيها. ولهذا لا أعتقد بأن يكون الشخص رجل علم حقيقي إذا لم يكن لديه إيمان عميق. ويمكن أن يُعبَّر عن هذه الحال بالقول: (لا

55 فاطر: ٢٨.

يمكن تصديق علم لا دين له. والدين من غير علم أعمى، والعلم من غير دين أعرج)».

لذلك ما أكثر أرباب العلم من غير المسلمين الذين عملوا في مجال العلوم أشهروا إسلامهم، والكثير منهم- حتى وإن لم يؤمنوا- اضطروا إلى الاستسلام للحق. وهذه الحال تُعد إحدى معجزات القرآن الكريم، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[٥٦]

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٥٧]

إن العين التي تنظر إلى الكون نظرة اعتبار وتفكر، تبصر فيه مشاهد لا حصر لها تشكل تجليات هذه الآيات الكريمة:

فلو لم يكن في الكون سوى الإنسان والحيوان، لتعرض الجميع للفناء بعد مدة من وجودهم، وذلك لأن كلاً من الإنسان والحيوان يستنشق الأكسجين المنتشر في الهواء ويطرحه مجدداً بعد تحويله إلى ثاني أكسيد الكربون السام، فبعد مرور وقت

---

٥٦ سبأ: ٦.

٥٧ فصلت: ٥٣.



معين سوف تنخفض نسبة الأوكسجين، وترتفع نسبة ثاني أكسيد الكربون فيسبب لهم التسمم ثم الموت والفناء. إلا أن صاحب القدرة الذي أوجد هذا العالَم خلق فيه النباتات أيضاً، والنباتات على عكس الإنسان والحيوان إذ تمتص غاز ثاني أكسيد الكربون وتطرح الأكسجين، فتؤمِّن في هذا العالم توازناً دقيقاً لتستمر فيها دورة الحياة.

وقد جعل خالق العالم ثلاثة أرباع الدنيا من الماء، وجعل القسم الأكبر من الربع البري صحارٍ وأراض صخرية غير قابلة للزراعة، وأما القسم القليل الباقي فيتكون من التراب. ولكن ما أعظم تلك القدرة التي جعلت هذه التربة في حال تغير أبدية من حال إلى حال لتكون مصدر غذاء يشبع سائر الأحياء على وجه هذه البسيطة. ونضرب على ذلك مثالاً:

لنأخذ نوعاً من الحيوانات، فلو أن الله تعالى قد جعل هذا النوع كله الذي كان في الماضي والذي سيكون في هذه الدنيا في آن واحد، لما وسعته الأرض وحدها، كما أن الغذاء في الأرض ما كان ليكفيه أيضاً. إلا أن الله تعالى قد جعل النوع بسرِّ الزمن ينتشر من المكان الذي وُجِدَ فيه إلى أماكن أوسع، وخلقه وفقاً لقانون التسلسل الخلقي. والحكمة نفسها تنطبق على سائر الأحياء. ولذلك فإن الدنيا بسر الزمان والمكان يمكن أن تستوعب أكثر من قدرتها الطبيعية بأضعاف الأضعاف. أي إن أخذ مختلف الكائنات



لأماكنها في عالمنا هذا إنما قائم على توازن دقيق، فمثلاً إن كل شجرة (دُلَّب) واحدة تنتج كل عام كميات هائلة من البذور تفوق الملايين، وهذه البذور تحاط بأوبار وكأنها مظلات صنعت خصيصاً لتحملها بفعل تأثير الرياح إلى أماكن بعيدة، لتتوزع وتنتشر في مختلف بقاع الأرض تقريباً، وهذه حقيقة من الحقائق الثابتة والمعروفة. فلو صارت كل بذرة من البذور التي تنتجها شجرة (الدُّلَّب) الواحدة شجرة من جديد، لتحولت الأماكن الصالحة للزراعة على وجه الأرض في مدة قصيرة إلى مكان تستولي عليه هذه الأشجار وحدها، أي لضاقت الدنيا الواسعة بهذا النوع فقط. ويمكن تطبيق هذا المثال على كافة الكائنات الأخرى التي تحيا على هذه الأرض، وهذا الأمر يظهر بوضوح وجود انسجام وتوازن سري في الكون.

والحق سبحانه وتعالى قد وهب لكل هذه الكائنات الحية خصائص عجيبة، فمع أنها تتناول أغذية متشابهة وأحياناً واحدة إلا أنها تعطي منتجات مختلفة ومتميزة عن بعضها بعضاً، وذلك لإتمام بعضها بعضاً بصورة تجعل الحياة ممكنة. فمثلاً؛ لو أكل كلّ من البقر والغنم أوراق شجر التوت الخضراء نفسها، فإنها تنتج لحماً وحليباً وصوفاً، بينما إذا تغذت على هذه الأوراق دودة القز فإنها تنتج حريراً، وكذلك الأمر إن أكل من هذه الأوراق نوع من الآيل فإنها تنتج منها مسكاً. وأما إنتاج النحل للعسل من رحيق



الزهور فهو أمر يخرج كلياً عن قدرة الإنسان وطاقته. وإن إنبات أنواع مختلفة من الزهور من التراب، وإخراج مختلف الألوان والروائح والأوراق التي تنبض بالحياة منها إنما هو مسألة في غاية الإعجاز والإبهار حيث يعجز عن الإتيان بمثلها أمهر علماء الكيمياء وأذكاهم. وفي الوقت الذي ينتج فيه الحيوان اللحم والحليب من مركب بسيط من العلف، فإن الإنسان يعجز عن إنتاج حتى غرام واحد من اللحم أو الحليب من أطنان الأغذية والأعلاف التي يحللها ويستخرج تراكيبها وعصاراتها في مختبراته الكيميائية.

إن أي إنسان يمتلك عقلاً سليماً أينما توجه بفكره ونظره في هذا الكون الفسيح، يشاهد وجود الله تعالى وعظمته. والتجليات الكثيرة في هذه الدنيا مثل إرسال الأنبياء، وإيصال البشر إلى مرحلة الكمال بخطابهم وأقوالهم وعلمهم وأخلاقهم كلها من آثار الإحسان واللطف الإلهي بالإنسان. ومن جهة أخرى، فإن العلوم المختلفة التي تقدم للإنسان فوائد جليلة وتعمل خادمة له في هذه الحياة تشكل خير عون له من أجل إدراك وجود الله تعالى وعظمته، وخير أداة لإشعار البشر بعجزهم، وإدراكهم منزلة العبودية التي يعيشون فيها وليس لهم من حيلة أو قدرة للخروج من دائرته. وعندما ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى الكون والكائنات من حوله بعين المتدبر والمتبصر، فإنه يدرك فوراً بأن الامتناع عن الإيمان أمام هذه العظمة والقدرة الظاهرة ضرب من الغبن والحماقة والسذاجة.



وما أجمل كلام الشاعر حين يقول:

ما أكثر العبر والدلائل اللامتناهية التي تنبعث من النظام الكوني،
فالتجليات لا يمكن أن تكون ناقصة أمام عيني بني آدم!

وما أجلها من حقيقة رفعُ السماوات والأرضين من غير عمد،
وعدم ترك أي ذرة دقيقة في هذا الكون العظيم من غير حساب!

يا أيها العبد الذي يظلك فضاء لا نهاية له، ويقلك تراب لا قرار له؛
إن ما يليق بك هو التذلل على سجادة عبوديتك!

لا شك أن هذا الكون الذي لا حدود له علامة تدل على وجود الله تعالى وعظمته، ونور إيماني لابن آدم.

إن في السماء ثقوباً سوداء وأخرى بيضاء، وقد أقسم الله تبارك وتعالى بهذه الثقوب التي اكتشفها العلم الحديث، حيث قال:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٥٨]

هذه الحقيقة التي لم يستطع العلم اكتشافها إلا حديثاً لتدل بأننا في أمام عظمة في غاية الإذهال والروعة. تسمى مواقع ظهور النجوم بالثقوب البيضاء، والمواقع التي تموت فيها بالثقوب السوداء. والجسم الصغير الذي يخرج من الثقوب البيضاء يكبر حجمه ويتضاعف بصورة سريعة إلى ملايين الأضعاف لتنتج عنه كتلة نجمية هائلة. وهناك أيضاً أعداد هائلة من النجوم العظيمة

٥٨ الواقعة: ٧٥ – ٧٦.



التي يبلغ حجمها أضعاف حجم كوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه، وعندما يحين أجلها تغوص في أعماق الثقوب السوداء وتموت فيها. ولذلك فإن الشمس التي تضيء سماءنا اليوم سوف تتعرض ذات يوم إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[٥٩]

إن ذلك اليوم هو اليوم الذي تبلغ فيه أجلها، وذلك اليوم بلا ريب سوف يكون يوم القيامة، فليس بعد ذلك من مفر سوى السجود والالتجاء إلى الله ﷻ.

والخلاصة أن العيون المبصرة تدرك سريعاً بأن هذه الدنيا ما هي أمام العظمة الإلهية إلا ذرة واحدة من ملايين بل مليارات الذرات السابحة في ملكوت الله تعالى، وأن الإنسان والجبال والمحيطات والبحار جميعها داخلة ضمن هذه الذرة؛ فالإنسان بهذا العجز الكبير لا شيء إذا خرج عن عبوديته.

إن هذه الأمثلة التي سقناها هنا والتي هي ليست إلا غيضاً من فيض تشير إلى الضرورة المنطقية للإقرار بوجود كائن يوصف بأنه الحكيم، والقدير، والقيوم، والرزاق وغيرها من صفات الألوهية والعظمة. ولا يلزم لرؤية هذه الحقيقة إلا النظر بالبصيرة أكثر من

٥٩ التكوير: ١.

النظر بالعين، أي أن تكون عيون القلوب متفتحة ومبصرة. إذ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[60]

وما أجمل العبارة التي نطق بها إبراهيم حقي أرزُرملي حيث قال:

هي المعتبر الذي يرى
وما يعنيه الأمر للأعمى؟

ويقول الشيخ يونس أمْرَه أيضاً:

ارسم له الطريق ليصل بأمان
واجعل له عيناً ليرى الحقيقة

الحق ظاهر في كل مكان
فلا بد من العين التي تراه

وذلك لأن الظواهر المنتشرة في السماوات والأرض والتي تشهد بألوهية الله تعالى وأنه رب العالمين تُعد للعيون المبصرة صفحات مفتوحة وواضحة المعاني والدلالة، ولا تحتاج إلى كثير

٦٠ الحج: ٤٦.



من الشرح أو البيان، وأهل الله يعيشون هذه الحقيقة بقلوبهم، لأنهم جعلوها مطلعة على حقيقة الأسرار الإلهية إذ أبعدوها عن كل فان. إن الذين يتخلصون من الخضوع لسلطة النفس بمقتضى الحديث الشريف القائل: «موتوا قبل أن تموتوا» يحيون في ربيع الحقيقة، ويتحررون من الصور لينتقلوا إلى الحياة في أنوار روحانية رسول الله ﷺ، ولا تبقى لديهم حتى أدنى شوائب وسوسة أو شبهة بشأن الحق والحقيقة. والمثال الآتي دليل واضح على هذه الحقيقة:

ذات يوم رأى جنيد البغدادي الذي يُعد أحد كبار أولياء الله الصالحين جماعةً من الناس في الحي الذي يسكنه يجْرُون بحماسة نحو مكان ما، فتعجب من أمرهم وسألهم قائلاً:

- أين تذهبون بهذه الحماسة والاندفاع الشديد؟

فقالوا:

- لقد جاء من البلد الفلاني رجل عالم يثبت بأدلة كثيرة وجود الله تعالى ووحدانيته! فلعلنا نلقى فائدة من الأدلة التي يقدمها. إن شئت تعال معنا.

فنظر إليهم جنيد بابتسامة، وقال:

- إن في الكون من الدلائل والشواهد الإلهية ما لا حصر لها للعيون المبصرة، والآذان السميعة، والقلوب المستشعرة. وما أكثر الشواهد عن ذات الحق سبحانه وتعالى. فأيها الناس! إن كان لدى



أحد شك على الرغم من هذه الشواهد فليذهب! وأما نحن فليس في قلوبنا أدنى ريب.

ولذلك يعبر أرباب المعرفة عن هذا المعنى بقولهم:

«إن الله تعالى بالأساس ليس بغائب أبداً، إلا أنه يمكن القول بالنسبة للإدراك والطاقة البشرية: (أنه غائب لشدة ظهوره).»

مثلاً إذا دخل الإنسان إلى غرفة مضاءة بمصباح له قوة إنارة بمقدار خمسة آلاف فولت، فإنه- حسب طاقة الإبصار التي في عينيه- لن يتمكن من رؤية شيءٍ. وإن ظهور الله تعالى يشبه هذا الأمر تماماً، ظهور شديد للغاية، وغائب عن الإنسان لطاقته المحدودة. أي إن الله تعالى في الأصل منزه عن مظاهر الغياب، فهو ظاهر دائماً ولكن طاقة الإنسان لا تتمكن من رؤيته. لهذا قال الله تبارك وتعالى لنبيه موسى عليه السلام:

﴿... لَنْ تَرَانِي...﴾[61]



القِدَمْ: إن بدْءَ المخلوقات بسبب ضرورةٌ منطقية لارتباطها بعلاقة السبب والنتيجة، ولا بد أن يكون السبب الأول منزهاً عن حاجته في الوجود إلى غيره، وقادراً على الوجود بذاته، وهذا السبب إنما هو الله تعالى، فهو الكائن الذي يُعبِّر عنه الناس بلفظ

61 الأعراف: ١٤٣.



(الله) لذلك ليس لوجوده القدسي أي بداية، إذ إنه بداية كل شيءٍ، وهو القديم والأزلي، إذ جاء في القرآن الكريم:

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ...﴾ [٦٢]

ويقول رسول الله ﷺ:

«**كان الله ولم يكن شيء قبله**» [٦٣]

وكان النبي ﷺ يلتجئ إلى الله تعالى في دعائه بقول:

«**اللهم! أنت الأول فليس قبلك شيء...**» [٦٤]. وأوصى أمته بذلك.



البقاء: الله أبدي لا نهاية لوجوده، إذ يقول تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿...لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٦٥]

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٦٦]

---

٦٢ الحديد: ٣.

٦٣ البخاري: التوحيد، ٢٢.

٦٤ مسلم: الذكر ٦١/ ٢٧١٣.

٦٥ القصص: ٨٨.

٦٦ الرحمن: ٢٦ – ٢٧.

إن هذا العالم ليس فيه أي تجلٍ لصفة البقاء، لذلك فإن كل شيءٍ في الدنيا في دورة حياة مؤقتةٍ، لأن الله تبارك وتعالى قد جعل هذه الصفة- أي صفة البقاء- مخصوصة به وحده، وجعل المخلوقات جميعاً معلولة بصفة الفناء.

يذكِّر يونس أمْرَه بفناء كل شيءٍ ما عدا الله تعالى بقوله:

أرِني أَمارةً تدل على أحد
ليست نهايته الفناء والتلف...

فلتجتهد في كسب ذلك المال
ولكن سيتساقط منك ولا يبقى أبداً

ومن هذا المنطلق فإن أهل الله يعرفون بأن التحرر من هذا العالم المؤقت الزائل ونيل مرتبة الفناء في الله والبقاء في الله يُعدُّ أعظم درجة يصلون إليها. فأولئك العباد العارفون لا يُشغِلون أنفسهم بملذات الدنيا الفانية، وإنما يفردون أجنحتهم بسر «موتوا قبل أن تموتوا» إلى الآفاق اللامتناهية. إذ يقولون أولاً:

«إن ماتوا؛ فإن الأجسام هي التي تموت؛ وليست الأرواح!» فيتحررون من أسر الجسم، ويستمرون في رحلة الروح. وفي النهاية يبلغون مرحلة الوصال مع الله، فيقول واحدهم:

«فلتُسلَب مني روحي هذه، فإني وجدت روح الأرواح.»





الوحدانية: يكفي للدلالة على أن كل شيءٍ في الكون إنما هو أثر لقدرة وحيدة لا ثاني لها ملاحظةُ الانسجام والتوازن الدقيق السائد في الكون منذ خلقه وإلى الآن، ونظامه الذي لم يصبه أي خلل أبداً، والأسرار والحكم اللامتناهية التي يحتويها. فلو أن هذه القدرة لم تكن وحيدة، لتداخلت الحكم والأنظمة والتوازنات السائدة في الكون، وحدثت داخلها فوضى عارمة مما تؤدي بدورها إلى استحالة الحياة، وذلك بسبب الاختلاف بين إرادات تلك القدرات المفترضة، وفي ذلك يقول الله ﷻ:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[67]

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[68]

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[69]

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[70]

---

٦٧ النحل: ٥١.

٦٨ الإسراء: ٤٢.

٦٩ الأنبياء: ٢٢.

٧٠ المؤمنون: ٩١.

إذا ما أمعنَّا النظر في القرآن الكريم من أوله إلى آخره، فسوف نجد بأن أهم الأمور التي كلَّفَ الله تعالى بها عباده الإيمانُ والتصديق بذاته العلية، وأن النقطة الأكثر دقة في هذا الإيمان إنما هي الوحدانية. لذلك فإن الإسلام يُعدُّ الشرك بالله في مقدمة المعاصي التي تجلب الغضب الإلهي، وقد خصص القرآن الكريم آيات كثيرة تحث الإنسان وترشده إلى التوحيد الذي يحميه من الانزلاق نحو الشرك، إذ يقول الله تعالى:

﴿... إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[71]

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[72]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾[73]

هناك أديان أخرى تدَّعي ارتباطها بعقيدة التوحيد، مثل عقيدة الموسويين والماسونيين التي تؤمن بالربوبية. إلا أنهم ليسوا من

---

٧١ المائدة: ٧٢.

٧٢ الزمر: ٦٥.

٧٣ النساء: ٤٨.



أهل الوحدانية لسلوكهم مسلكاً خاطئاً بشأن صفات الله تبارك وتعالى، وهو سلوك «عقيدة التجسيم».

إن سائر الأديان السماوية- ما عدا الإسلام- كانت على منهج واحد لدى أول نزولها على الإنسان، إلا أنها نتيجة للتحريفات البشرية الكثيرة التي لحقت بها فيما بعد، اتخذت آراء مختلفة ومناقضة تماماً لخصائصها الأصلية. ومنها التحريفات التي تعرضت لها النصرانية التي تلفت انتباه الإنسان، إذ إن عقيدة التوحيد التي كانت راسخة في هذه الديانة في بدايات أمرها تعرضت في نهايات القرن الخامس الميلادي إلى تحريفات فظيعة وهائلة أدت إلى إحلال عقيدة التثليث- أي الآلهة الثلاثة- محل عقيدة التوحيد، وعندما لم يقبل إنسان العصر الحديث لهذا المنطق المعوج الذي أدى إلى ابتعاده عن الكنيسة، بدأ المقام البابوي بأعمال وبحوث علمية لإعادة النصرانية إلى عقيدة التوحيد من جديد.

إن الله «**أحد**»، وأحد معاني هذه الصفة أنه لا احتمال لوجود ثانٍ لله تعالى.

فالإيمان بوحدانية ذات الله، أي بكونه واحداً وأحداً، يجب أن لا يدع حتى مجرد احتمال لوجود ثانٍ له. والإسلام يريد ذلك من أتباعه ويأمرهم به، وهذا الأمر يشكل الخطوة الأولى للدخول في الإسلام. إن الذين يخطون هذه الخطوة بالصورة التي تليق بها يفتح الله لهم أبواب رحمته، وبركته، ولطفه، وإحسانه الواسع. ولذلك

فإن بلالاً الحبشي ﷺ لما صبر على مختلف أنواع العذاب التي أنزلها به المشركون والتي كانت فوق حد التحمل والوصف، وواجهَ أمرَ المشركين له بالرجوع عن دينه بقوله: «**أحدٌ، أحدٌ، أحد**»، نالَ عندئذ المكافأة الدنيوية على ثباته على التوحيد بأن جُعل مؤذناً لسيد العالمين سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.

إن أدنى نقصان في الإيمان بالوحدانية لا يمكن تلافيه والتعويض عنه بفضائل الأعمال ولو بلغت عنان السماء. ومثل ذلك مثل الأعمال الخيرة التي تُقدم لإنسان وتحقق له الراحة الجسدية لكنها لا تبرر أبداً الإساءة إلى شرفه ولو بأدنى كلمة. إن الكفر إذا ما نظرنا إليه من هذ الجانب فإنه إنكار لله تعالى، وبالتالي رفض لعزة ألوهيته تعالى الله عن ذلك. أي إن الإنكار جرم بحق ذات الله ﷻ، وعدم العفو عن هذا الجرم تغليظٌ معنوي لشناعته وفظاعته، ولهذا فإن أول أمر يريده الله تعالى من عباده الإيمانُ ثم العمل الصالح.

في معركة أحد وفي أشد لحظات القتال جاء عمرو بن ثابت أحد الأبطال الصناديد إلى النبي عليه الصلاة والسلام كي يؤمن. ولما رأى سير المعركة سأل النبي ﷺ فقال:

- يا رسول الله! أَأؤمن أولاً، أم أقاتل؟

فقال رسول الله ﷺ:

- آمن أولاً، ثم قاتل!



فآمن الرجل واشترك في القتال في صف المسلمين، ولما انتهت المعركة وُجِدَ هذا الصحابي بين شهداء المسلمين، فقال رسول الله ﷺ:

- عمل قليلاً، وكسب كثيراً! [٧٤] أو كما رسول الله ﷺ.

إن الوحدانية توحيد الله تعالى، وتخلصٌ من التثنية، وهي قصرُ الإيمان الذي يكرم الإنسان بعرش أحسن تقويم. وينادي الشاعر يونس أمْرَه الناس من أجل نيل هذه المكرمة السامية، فيقول:

الوِحدة لنا حق وكذا لكل البشرية
تجاوز فكرة التثنية واطرد يا عبد الأنانية

ولأن الوحدانية من إحدى صفات الذاتية للحق ﷻ، فإنها عامل مؤثر في استجابة الدعاء إذا ما التجأ بها العبد إلى ربه ﷻ في دعائه. ذلك أن النبي ﷺ كان يُعلِّم أصحابه الكرام الالتجاء إلى الله تعالى بصفاته القدسية، وعلى رأسها «الوحدانية» كي تلقى أدعيتهم الاستجابة من الحق ﷻ. يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه:

قال رسول الله ﷺ:

«من تعار ـ استيقظ ـ من الليل فقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله)،

٧٤ محمود سامي رمضان أوغلو: غزوة أحد، ٣٥.

ثم قال: (اللهم اغفر لي)، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» [٧٥]

وقال رسول الله ﷺ:

«من كانت له إلى الله حاجة، أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ فليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم لِيُثْنِ على الله، وليصلِّ على النبي ﷺ ثم ليقل: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلا غفرته، ولا هماً إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين» [٧٦]



مخالفته للحوادث: لا نظير لله سبحانه وتعالى ولا شبيه له، أي إنه لا يشبه أحداً من المخلوقات، ولذلك فإنه منزه عن الوصف بكل صفة مجسمة.

إن أحد جوانب تحريف العقيدة في الأديان السماوية المحرفة اليوم يتعلق بهذه المسألة. فلقد انحرف أتباع هذه الديانات عن العقيدة الصحيحة لدياناتهم التي تقتضي بأن الله تعالى لا تدركه

٧٥ البخاري: التهجد، ٢١/ ١١٥٤.

٧٦ الترمذي: الوتر، ١٧/ ٤٧٩.



العقول والأفكار وأنه منزه عن التشبيه بسائر الصفات البشرية، وعملوا على حسب قوة خيالهم وتصورات أوهامهم على توصيف الحق سبحانه وتعالى في كتبهم بالصفات والخصائص البشرية، حتى بلغ بهم الانحراف أن أسندوا إلى الله ﷻ بعض صفات العجز التي يتميز بها البشر مثل النسيان، والتعب، والندم، والغفلة، والسهو. فمثلاً قالوا: إن الله تعالى أعطى أمراً بالطوفان، ثم بعد ذلك نسيَ الأمر، وفجأة نظرَ فإذا بالسماء والأرض قد غرقتا بالمياه! فتذكر في ذلك الوقت الأمرَ الذي أصدره بشأن الطوفان، فأغلق بيديه بإرهاق بابَ السفينة بعد أن ركب فيها جميع المخلوقات. وحسب كتبهم أيضاً إن يعقوب عليه السلام ـ حاشا لله ـ قد تصارع مع الله سبحانه وتعالى وغُلب. ومن المعلوم أنهم ذهبوا أبعد من ذلك في ضلالهم، حتى إن اليهود قالوا ـ حاشا لله ـ إن عُزيراً ابن الله، وقالت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام هو ابن الله. وقد جاء الرد الإلهي على مظاهر الضلالة هذه التي أنتجها الناس من مخيلاتهم ثم أقاموا عليها معتقداتهم، إذ قال الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٧٧]

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٧٨]

٧٧ الزمر: ٦٧.

٧٨ الشورى: ١١.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[٧٩]

سمع رسول الله عليه الصلاة والسلام رجلاً يقول في تشهده:

«اللهم إني أسألك يا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم». فقال رسول الله ﷺ:

«قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له» [٨٠]

ويقول يونس أَمْرَه الذي علم بهذه البشارة النبوية:

يا إلهي يا إلهي
يا مَنْ ليس كمثله شيء
تعلقت معاصينا بأمر عفوك
يا واسع الرحمة يا إلهي

القيام بنفسه: فالله سبحانه وتعالى موجود بذاته، وهو القيوم. والقيوم الذي يُعد من أسماء الله الحسنى يعني أنه القائم بذاته من الأزل وإلى الأبد، والموجود دائماً، وغير المحتاج في وجوده إلى أحد وإلى شيءٍ. بل كل شيءٍ محتاج في وجوده إليه سبحانه وتعالى، إذ قال تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

---

٧٩ الإخلاص: ١ – ٤.

٨٠ أبو داوود: الصلاة، ١٧٩/ ٩٨٥.



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٨١]

﴿...إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٨٢]

إن أحد المعاني الأخرى لهذا البيان الإلهي هو عدم حاجة الله تعالى في وجوده إلى مؤثر آخر أبداً، ولذلك يُقَال: «إن الله قائم بذاته».

فإذا لم يدرك العبد هذه الصفة الإلهية التي هي من مقتضيات ذات الله تعالى ولم يؤمن بها بالمعنى الكامل، فإنه يكون ناقص الإيمان، أي ذا إيمان غير صحيح، لأن هذا الأمر يحمل معنى تشبيه الله تعالى، الذي هو أصل كل شيءٍ وخالقه، بصفة ما سواه من الحوادث التي وُجدت بعده.

إن الله سبحانه وتعالى بريءٌ من مختلف الصفات الخاصة بما سواه من حوادث الكون ومنزه عنها. أما أصحاب القلوب التي أدركت ووصلت إلى المعنى الكامل في هذا الشأن، فإن اسم «القيوم» لا يفارق ألسنتهم، وببركة هذا الاسم يقطعون روابط قلوبهم عن كل ما عدا الله تعالى، ليصيروا فانين وباقين في الله ﷻ. أي إن حظ العبد من هذا الاسم الشريف مرتبط بنسبة استغنائه عن كل ما سوى الله تبارك وتعالى.

---

٨١ فاطر: ١٥.

٨٢ العنكبوت: ٦.



دعا أحد الصحابة الكرام بقوله:

«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم ، إني أسألك!

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:

- **تدرون بمَ دعا؟** قالوا:
- الله ورسوله أعلم! فقال رسول الله ﷺ:
- **والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[٨٣]



الصفات الثبوتية:

الحياة: إن الله سبحانه وتعالى له حياة، وهذه الصفة قائمة بذاتها، وهي مشهورة باسم «الحي» الذي يُعد من الأسماء الحسنى. وحياة الله تعالى دائمة ومطلقة.

وكل أنواع الحياة الأخرى إنما هي موجودة كتجلٍّ لهذه الصفة القدسية، ومضافة إليها. ولذلك فإن حياة المخلوقات المتولدة عن اتحاد الجسم مع الروح إنما هي حياة مادية مؤقتة، وليست حياة حقيقية، لذلك عندما يحين الموعد المحدد تُسترد الحياة من

٨٣ النسائي: السهو، ٥٨/ ١٣٠٠.



كل كائن فانٍ مجدداً. أما صفة الحياة لله تعالى فهي صفة الكمال الملازمة لذات الباري سبحانه وتعالى ولا تنفصل عنها أبداً. لأن كمال وجوده يقتضي كونه صاحب حياة حية ومستمرة ومطلقة. والخلاصة إن الحياة العائدة لله تعالى ليست بالحياة التي هي ضد الموت، وإنما هي حياة مخصوصة به سبحانه وتعالى. وقد ورد وصف هذا الأمر في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿...**الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**...﴾[٨٤]

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه:

قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات. فقال:

«إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[٨٥]

ويقول رسول الله ﷺ في حديث شريف آخر:

«من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله الا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات، غفر الله له ذنوبه...» [٨٦]

٨٤ الفرقان: ٥٨.

٨٥ مسلم: الإيمان، ٢٩٣/ ١٧٩.

٨٦ أحمد بن حنبل: مسند، ٣، ١٠/ ١١٠٧٤.

ويقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[87]

وكان النبي ﷺ إذا أصيب بضيق من شيءٍ، يقول:

«**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**»[88]

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل، فجئت فإذا هو ساجد يقول:

- (يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم برحمتك استغيث!) لا يزيد عليها. فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول:

- (يا حي يا قيوم، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث!)

ثم ذهبت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك. فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه».

ويقول ابن عباس رضي الله عنه عن الآية الكريمة:

---

87 غافر: ٦٥.
لقد كان الأستاذ محمود سامي أفندي -رحمه الله- يكثر من تلاوة هذه الآية الكريمة، ويوصي من حوله بتلاوتها. ولما اقتربت منيته كان من الآيات التي يكثر تلاوتها هي هذه الآية الكريمة.

88 الترمذي: الدعوات، ٩١/ ٣٥٢٤.



﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[89]

إن إحياء الأرض بالمطر نراه بالعين المجردة وهو دعوة للناس إلى الاعتبار، والآية الكريمة تشير إلى معنى آخر وهو أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها فيجعلها منيبة إلى ربها، وكذلك يحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة.



العلم: إن الله تعالى عليم، وعلمه محيط بكل شيءٍ، فلا يوجد شيءٌ في الكون خارج علمه، وهو يعلم علم اليقين بكل شيءٍ حادث، وما سوف يحدث، ولا يوجد بالنسبة لعلمه شيءٌ خفي أو سري، فكل شيءٍ ظاهر وعيان أمام علمه. وأما كافة العلوم التي وهبها لابن آدم فما هي إلا جزء يسير جداً من هذه الصفة، بل ربما أقل من جزء، ويقول الله سبحانه وتعالى عن هذه الصفة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾[90]

﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[91]

---

٨٩ الحديد: ١٧.

٩٠ آل عمران: ٥.

٩١ آل عمران: ٢٩.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[92]

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[93]

ولهذا يقال عند البحث في الكثير من الحقائق الغيبية التي لا يستطيع الإنسان العلم والإحاطة بها «الله أعلم»

لأن علم الإنسان حول هذا الكون الفسيح والمترامي الأطراف ليس حتى بمقدار نقطة من البحار. ويقول الله سبحانه وتعالى عن ذلك:

﴿... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾[94]

لذلك فإنه إلى جانب فتح أبواب خوارق العادة في ميادين العلوم أمام ابن آدم، شُيِّدَت جدران الأسرار أمام كثير من المسائل التي لا يمكن للعلم البشري خرقها والولوج إلى ما وراءها. والحكمة من ذلك أن يعلم العبد عجزه، ويدرك حاجته الدائمة إلى الله تعالى، وبالتالي يُسلِّم أمره لعلمه سبحانه وتعالى القائل في كتابه الكريم:

---

٩٢ الأنعام: ٣.

٩٣ البقرة: ٢٥٥.

٩٤ الإسراء: ٨٥.



﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٩٥]

والحق أن الإنسان يصيبه حزن شديد بشأن الكثير من التجليات التي تبدو للوهلة الأولى أنها غضب من الله ﷻ أو على الأقل ذات تأثير سيءٍ عليه، وذلك لجهله بالحكمة الكامنة وراءها، إذ إنه لا يستطيع رؤية الرحمة المنطوية في ثناياها. وفي الوقت نفسه فإنه يفرح ويستبشر ببعض التجليات التي تبدو في صورة إحسان ولطف، ولا ينتبه أو يطلع على وجه النقمة أو الغضب الكامن في تلافيفها.

يُروى أنه كانت هناك قبيلة عربية فيها رجل صالح. وكان أفراد هذه القبيلة يحضرون مجلس هذا الرجل الصالح، فيصغون السمع إلى إرشاداته ونصائحه، ويعملوا على الالتزام بها والسير وفقها. وذات يوم لما استيقظ أبناء القبيلة في الصباح من نومهم وجدوا أن كل كلابهم قد ماتت، فأسرعوا في الحال إلى ذلك الرجل الصالح وأعلموه بما حدث، وبعد برهة من التأمل قال بكل توكل:

- يبدو أن موت هذه الكلاب إنما هو من أجل نجاتكم وخلاصكم!

وفي اليوم التالي ماتت ديكة القبيلة كلها، فجاؤوا مرة أخرى إلى الرجل الصالح، فكان جوابه كجوابه السابق:

٩٥ البقرة: ٢١٦.



- يبدو أن موتها من أجل نجاتكم وخلاصكم!

فلما سمعوا هذا الجواب، سأل أحدهم:

- يا سيدي! لقد كانت الكلاب حراسنا، وكانت الديكة تؤذن لنا، فكيف يمكن أن يكون موتها فائدة لنا؟

فقال الرجل الصالح:

- إن العالِمَ بجميع الأسرار والخفايا إنما هو الله تعالى، ولا ريب أنه قد أخفى لنا حقيقة كبيرة في ثنايا هذه الحادثة، ولكن عقولنا القاصرة تعجز عن إدراكها.

وفي الليلة التي أعقبت هذه الحادثة لم تُشعل نار أحد من أفراد القبيلة، وطفق الجميع يفكرون بهذه الحادثة، ويقولون: ما هذا البلاء الذي ابتلينا به؟

إلا أنهم لما نهضوا في الصباح أدركوا الحقيقة التي كانت غائبة عنهم. إذ إن العدو كان قد هجم في آخر الليل على القبائل المجاورة ونهبها. وكان قد جاء العدو إلى أطراف القبيلة، إلا أنهم لما لم يسمعوا نباح الكلاب، ولا صياح الديكة، ولم يروا أي شعلة من النار، ظنوا أنها خالية، فرحلوا عن المكان. وبذلك فقد نجا أبناء هذه القبيلة من القتل والنهب.

فهذا هو عجز علم الإنسان، والإحسان الذي يبدو بصورة المصيبة والغضب!



يقول إبراهيم حقي أرزُرملي:

لا تقل لم ذاك هكذا،

وليت كان كذلك.

لكن اتبع النتيجة وقل:

يا مولاي اختر لي الخير،

مهما كان ما أرى!

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام:

«إذا مرض العبد بعث الله تعالى إليه مَلَكَين فقال: انظرا ماذا يقول لعُوَّادِه! فإن هو إذا جاؤوه حمد الله وأثنى عليه، رفعا ذلك إلى الله ﷻ وهو أعلم فيقول: لعبدي عليَّ إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته»[٩٦]

إن النبي ﷺ يعلمنا في هذا الحديث الشريف بأن هناك الكثير من الحوادث التي تبدو في الظاهر أنها تسبب لنا آلاماً وأوجاعاً، إلا أنها في الحقيقة عبارة عن امتحان مقدر من الله، تخفي وراءها الكثير من المكافآت والعطاءات الإلهية الجزيلة.

والتاريخ البشري مليء بمثل هذه الحوادث التي بدت في ظاهرها غضباً إلا أنها انتهت بالخير والإحسان، كما وقعت أحداث

٩٦ الموطأ: العين، ٥.

أخرى بدت خيراً، وانتهت بالشر. ومثال ذلك قوم عاد الذي لم يؤمنوا بنبي الله هود ﷺ، إذ إنهم لما رأوا غيوم الغضب والعذاب مقبلة عليهم، فرحوا واستبشروا ظانين بأنها تحمل الخير والمطر إليهم. إلا أنه لما بدأت تلك الغيوم بإمطار الحجارة فوق رؤوسهم بدلاً من الماء أدركوا حقيقة الأمر، ولكن ذلك الإدراك لم ينفعهم، إذ جاء بعد فوات الأوان!

لأجل ذلك كان من واجب العبد أن يحيا حياته بمشاعر التسليم للعلم الإلهي بقوله: «لا أعلم، ولكن الله أعلم». ولا شك أن هذا التسليم لا يكون إلا بمعرفة الله تعالى، لأن أي علم لا يمكنه إزالة النتائج السيئة التي يمكن أن تتسبب بها الجهالة في هذا الشأن. ولكن العلم في هذا المجال ـ أي معرفة الله ـ يمكنه تفادي النقص الذي يكون في العلوم الأخرى. إذ ما أكثر الأميين الذين قد صاروا ببركة معرفة الله مظهراً لألطافه تعالى الخاصة والمميزة.

ولذلك يرى يونس أمْرَه أن أصل العلم إنما هو معرفة الله، ويشير إلى ذلك في قوله:

ماذا يعني أن تقرأ تسع وعشرين حرفاً من أولها إلى آخرها، لكي يقال لك أستاذ؟

فالعلم معرفة، العلم أن تعرف نفسك، فإن لم تعرف نفسك، فلم التعلم؟



ويبين الله تبارك وتعالى في الآية الكريمة الآتية حال العلم البشري أمام علمه الإلهي، حيث يقول:

﴿...وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا...﴾[97]

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾[98]

فالعلم عند الله، أي إن العلم المطلق منحصر بالله سبحانه وتعالى، وعلمه محيط بكل شيءٍ، فالعلم الإلهي من هذا الجانب يشبه المرآة، فمهما تنوعت وكثرت وتغيرت الأمور التي تنعكس عليها فإنها تحيط بها جميعاً، وفي الوقت ذاته لا تتعرض لأي تغيير.

إن العلم الإلهي منزه عن كونه نتيجة للفكر أو التأمل. وهذا النظام والانسجام الدقيق السائد في هذا الكون الواسع والذي يعجز عن مجاراته أي عقل أو إرادة، لهُوَ أصدق الأدلة وأجلها على أن الله ﷻ صاحب العلم المطلق الذي لا حد له، بينما الإنسان لا يتمكن من التوصل إلى اكتشاف أو اختراع بسيط حتى تتضافر جهود كثير من الأشخاص، وتتم الاستفادة من تجارب الأجيال المتراكمة خلال عدة عصور، وتُستخدم فيه الكثير من القواعد والعلوم. ومثال ذلك اكتشاف الاتصال عن طريق الهواتف المعروفة بهواتف الجيب المنتشرة في وقتنا الحالي، فكم من التجارب والمحاولات التي مر

97 لقمان: ٣٤.

98 الملك: ٢٦.

بها هذا الاكتشاف منذ خلق الإنسان، حتى وصل إلى ما وصل إليه اليوم! والاختراعات والتطورات الأخرى هي أيضاً بهذه الطريقة. إن هذه الاكتشافات والاختراعات والأسرار الكثيرة التي لم تُكشف بعد إنما هي أمور أودعها الله تعالى في نظام الكون بالعلم الإلهي في لحظة واحدة. وقد خاطب الله تبارك وتعالى بني آدم مذكراً إياه بهذه الحقيقة، إذ قال في كتابه الكريم:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[99]



السمع: إن الله تعالى سميع. وسمعه منزه عن سمعنا، فلا صوت يخفى عليه، حتى إنه ليسمع دبيب النملة على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء. وصفة السمع التي تملكها سائر الكائنات إنما هي من تجليات صفة سمع الحق ﷻ، فعندما تُنزع هذه الصفة من الكائنات، لا تقدر على سماع شيءٍ، وأمثلة ذلك كثيرة.

وقد ورد ذكر صفة السمع «السميع» مع صفة البصر «البصير» في القرآن الكريم مراراً وتكراراً، وذلك في معرض تذكير الإنسان بمشاهدة الإله من خلال آثاره الدالة عليه، وتحذيره من الانحراف عن الصراط المستقيم.



---

٩٩ الملك: ١٤.

البصر: إن صفة البصر أيضاً من مقتضيات الذات الإلهية مثلها مثل الصفات الأخرى. فالله تعالى يبصر كل شيءٍ بحق، فهو البصير، ولا يوجد شيءٌ يخفى عن بصره.

ويعبر أحد أولياء الله الصالحين عن الحكمة من إعلام البشر بصفات الله تعالى المتمثلة ب «العلم، والسمع، والبصر» بقوله:

«لقد أعلم الله تعالى العبد بأنه «عليم» يعلم كل شيءٍ، حتى يخشى العبد فلا يفسد في الأرض، ولا ينشر الرذيلة فيها.

وأعلمه بأنه «سميع» فيسمع كل صوت مهما كان خافتاً، حتى يلجم لسانه وشفتيه عن قول السوء.

وأعلمه بأنه «بصير» يرى كل شيءٍ حتى يتجنب الوقوع في الذنوب بما يعتقده سراً.»

ويبين الله ﷻ مسؤولية العباد هذه بقوله في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾[١٠٠]

يقول نيازي مصري:

عين إن لم تكن للاعتبار ناظرة،

فما هي إلا عدو لصحابه في الرأس باصرة.

وإذن لم تتعظ بالنصائح سمعها،

١٠٠ الإسراء: ٣٦.



فصب الرصاص ـ لا تسأل ـ على صماخها.

ولسان إن لم يكن مطواعاً بذكر الله،

فلا تنتظر لحظة واقطعها.

ويقول ناخشبي الذي نقل هذه العبارات:

«يا من لا تخاف! إن كنت رجلاً شجاعاً، فاقترف ما تقترفه في الزوايا المهجورة في ساحات الأسواق، لكي يتبين إن كنت تخاف من الناس، أم من الخالق ﷻ! فإذا كنت تخاف من الله، فإنك سوف تخشاه في كل مكان!»

إن السالكين الصادقين يقفون على هذه الصفات الإلهية في السر والعلن، وفي كل زمان ومكان، ولا يغفلون أبداً عن أنهم تحت المراقبة الإلهية على الدوام.

لقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتجول ذات ليلة في أزقة المدينة وأحيائها فتوقف فجأة عن السير. إذ مرَّ أمام باب بيت من بيوت المدينة فلفتَ انتباهه صوت فتاة وأمها تتجادلان في أمر ما بصوت مرتفع يصل خارج الباب. فتقول الأم لابنتها:

- يا بنيتي! اخلطي بعض الماء بالحليب الذي سوف نبيعه غداً في السوق!

فأجابت الفتاة:

- يا أماه! ألم ينه الخليفة عن خلط الماء بالحليب؟



فردت الأم على كلام ابنتها بقسوة:

- يا بنيتي! وكيف للخليفة أن يعلم بخلطنا الماء بالحليب في هذه الليلة؟

إلا أن الفتاة التي كان قلبها ينبض بمخافة الله تعالى لم ترض بفعل أمها في خلط الماء بالحليب، فقالت:

- يا أماه! إن كان الخليفة لا يرانا، أفلا يرانا الله تعالى؟ من السهل إخفاء هذه الحيلة عن أعين الناس، ولكن أيمكن إخفاءها عن الله تعالى الذي يعلم ويرى كل شيءٍ؟

لقد أثر الرد الذي أجابت به هذه الفتاة النزيهة صاحبة القلب الرقيق المليء بالحقائق الربانية، والمعبر عن خشيتها لله تعالى، تأثيراً بليغاً بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وعلم أمير المؤمنين رضي الله عنه بالتقوى الكامنة في قلبها، فأسرع إلى طلبها زوجة لابنه، وزوَّجه بها. وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله المشهور بخامس الخلفاء الراشدين من هذا النسل الطيب الطاهر.

فينبغي لنا أن نعيش في كل مسألة بإدراك تام بأننا تحت نظر الله سبحانه وتعالى، إذ يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١٠١]



١٠١ الأنعام: ١٠٣.



الإرادة: إن الله تعالى يريد ما يبتغيه، ويفعل ما يريد. وحدوث الأمر الذي يريده لا يحتاج سوى أمر «كن» فيكون في الحال، ولا يُسأل عن سببه وحكمته. يقول الله ﷻ عن إرادته في القرآن الكريم:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١٠٢]

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[١٠٣]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠٤]

تبين هذه الآيات الجليلة المباركة بأن الله تبارك وتعالى إنما هو الفاعل المختار الوحيد، وكل كينونة وفعل مرتبط بإرادته، إن إنه «كل ما يريده الله يكون، وكل ما لا يريده لا يكون!»

لهذا فإن الأفعال التي توافق رضا الله تعالى تتحقق بإرادته، وتنفيذ الأفعال التي لا توافق رضا الله تعالى تكون أيضاً بإرادته امتحاناً منه.

---

١٠٢ البقرة: ١١٧.

١٠٣ الأنعام: ١٨.

١٠٤ آل عمران: ٢٦.



فكل شيءٍ خاضع للشرط الوارد في الآية الكريمة والذي يُعبَّر عنه بعبارة «إن شاء». هذا الشرط شامل لجميع الكون، والإنس والجن، وحتى الأنبياء والرسل. وقد تجلى أحد مظاهر هذا الشأن في حياة النبي ﷺ لكي يكون نموذجاً ومثلاً للأمة جمعاء:

إذ جاء وفد من الأعراب إلى النبي ﷺ وسألوه عن بعض الأمور. وكانت المواضيع التي سأل هؤلاء عنها لم يسبق أن نزل الوحي الإلهي على النبي ﷺ بشأنها، فرأى النبي ﷺ أن ينتظر حتى المساء ظناً بأن الوحي سوف ينزل عليه بخصوص هذه المواضيع، فقال لهم:

- ارجعوا إلي في الغد، لتأخذوا الإجابة! أو كما قال النبي ﷺ.

ولأنه لم يقل «إن شاء الله» فقد انقطع عنه الوحي الإلهي مدة خمسة عشر يوماً. وبعد هذا الانتظار الطويل كان أول ما نزل قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[١٠٥]

وتبين هذه الآية الكريمة أيضاً بأن كثيراً من الأشياء التي يريدها الإنسان لا تتحقق، وذلك لأن البشر يمتازون بالنقص في الإرادة والقدرة، وبالتالي تعوزهم القدرة التي تخولهم فعل ما يشاؤون ويريدون. فمن واجب العبد أن يعلم حدود استطاعته وقدرته، ولا

١٠٥ الكهف: ٢٣ – ٢٤.

يتجاوزها إلى المسائل المتعلقة بإرادة الحق سبحانه وتعالى. وقد جعل الله تعالى أمر العقاب والعذاب بشأن ذنوب العباد- ما عدا الشرك، والإنكار، وحق العبد- مجهولاً وبيَّن بأنه سوف يحاسب عباده على هذه الذنوب وفقاً لمشيئته وإرادته؛ أي إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم إذ قال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١٠٦]

إن أهل الله يدركون هذه الصفة المختصة بالله تعالى حق الإدراك ويخضعون إرادتهم لهذه الإرادة الإلهية؛ أي كما أنهم يطيعون في الله في كل شيءٍ، فإنهم يطيعونه في هذا الشأن أيضاً، فيعلمون بأنه ينفذ كل ما أراده، ويوجهون كل أطرافهم في هذا الطريق.

ذات يوم سأل الشيخ سنبل سنان مريديه:

- يا أبنائي، هبُوا أن الله تعالى قد منحكم قيادة هذا الكون، فما أنتم فاعلون؟

فأخذ كل مريد يقول شيئاً. فمنهم من قال:

- سأقضي على كل الكافرين!

ومن قائل:

- سأنهي وجود كل من يشرب الخمر!

---

١٠٦ آل عمران: ١٢٩.



ومنهم من قال:

- لن أدع حتى مدخناً واحداً!

وكان من بين المريدين وأحد العلماء مصلح الدين، إلا أنه كان ملتزماً الصمت ولم يدل بأي جواب. فالتفت الشيخ هذه المرة إليه، وقال له:

- يا بني، ما كنت ستفعل؟

فأجاب مصلح الدين بكل أدب:

- يا سيدي، هل في إرادة وإدارة الله تعالى من نقصان حتى أفكر وأريد شيئاً مغايراً؟ إن جوابي هو: أني كنت سأدع كل شيءٍ يسير كما هو عليه الآن دون أدنى تغيير.

فسُرَّ الشيخ كثيراً من هذا الجواب البارع، وقال:

- الآن وجد الأمر مركزه!

ومن ذاك اليوم صار مصلح الدين يُلقَّب باسم «الشيخ مركز».



القدرة: إن الله صاحب القدرة المطلقة التي لا حدود لها، وما من شيء يصعب عليه، ويعبر الحق ﷻ عن هذه الصفة بقوله:

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. وقد ورد هذا التعبير في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.



ويقول الله تبارك وتعالى في آية مباركة أخرى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[107]

فعندما يصدر أمر الله تعالى المتمثل بـ «كُن» فإن عدم تحقق الشيء الذي شاءه غير ممكن على الإطلاق، ولا يجوز بحق قدرته اللامحدودة. لذلك ينبغي أن نحذر من النظر إلى القدرة الإلهية من منظار عجزنا، وألا ننجرف إلى الأخطاء في هذا الشأن، لأن القدرة والقوة التي نتمتع بها محدودة جداً ومعلولة بضدها الذي هو العجز. وأما قدرة الله تعالى اللانهائية فغير محدودة؛ أي مطلقة، وهي منزهة عن كل صفات النقص مثل العجز وغيرها. لذا لا وجود لكائن لا يُوصَف بالعجز أمام قدرته اللامحدودة، وقدرتنا أيضاً ما هي إلا بالقدر الذي منحنا.

لقد امتلأ التاريخ البشري بصفحات الهلاك والخسران التي تعرِضُ العواقب الوخيمة لأولئك الذين تحدوا نتيجة جهلهم وغفلتهم القدرةَ الإلهية. وما نمرود وفرعون وقارون وأبو جهل إلا أمثلة لأولئك الطغاة الذي رحلوا عن هذه الدنيا خالي الوفاض. إن الموت الذي أخذهم به رب العزة إلى العالم الأبدي ليلقوا العذاب المهين كأنه استهزاء بطغيانهم وتمردهم الذي يدل على الغفلة وضيق التفكير، لا سيما هزيمة نمرود الذي ادَّعى الألوهية فسلَّط

١٠٧ يس: ٨٢.



الله عليه بعوضةً ضعيفةً، فكانت هذه الطريقة في القضاء على نمرود تحمل رسالة تدعو للاعتبار بشأن القدرة الإلهية. ولا ننسى أبرهة الحبشي الذي اغتر بالفيلة التي ضمها إلى جيشه وتجرأ على مهاجمة بيت الله الحرام مع جنوده، فأُهلِكَ بطيور الأبابيل الصغيرة، فصار عبرة وعظة لكل من اعتبر.

يقول أحد أولياء الله الصالحين:

«كلما بدت هذه الدنيا أمام ناظريك كبيرة لا نهاية لها، تذكر بأنها لا تساوي حتى ذرة واحدة أمام القدرة الإلهية. افتح عينيك وانظر بتمعن؛ ماذا يحل بالدنيا وما فيها إن أصابها زلزال أو إعصار أو فيضان!»

وفي الواقع إن القدرة الإلهية تتجلى بمظاهر كثيرة خارج النظام والبرنامج الكوني الذي اعتدنا عليه. فالصفة البناءة والإيجابية للعناصر الطبيعية مثل النار، والماء، والريح وغيرها تتحول أحياناً بالقدرة الإلهية إلى الصفة المعاكسة بحيث تصبح عناصر مدمرة في الكون. لذلك فإن عدم ملاحظة الإرادة الإلهية في أصل الأحداث والكوارث التي تقع في الطبيعة يدل في الحقيقة إلى قصر النظر وأحياناً يكون نتيجة لعمى البصيرة. يقول أحد الأولياء الصالحين منبِّهاً مَنْ وقعوا ضحية الغفلة عن هذه الحقيقة:

«لا تنسَ أن هذه الدنيا مَثَلُها أمام القدرة الإلهية كَمَثَل القشَّة، فالإرادة الإلهية ترفعها تارة إلى الأعلى، وتارة تنزلها إلى الأسفل، وتارة تحفظها سليمة، وتارة تجعلها حطاماً، وتارة توجهها نحو



اليمين، وتارة نحو اليسار، وتارة تجعلها بستاناً من الأزهار، وتارة تجعلها ميدانًا من أشواك ...»

ويذكر الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم بصورة متكررة، ومن ذلك قوله:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١٠٨]

ويعبر سلطان العارفين والعاشقين يونس أمْرَه عن عجزه أمام قدرة الله تعالى بقوله:

إن سُلك الطريق من دونك،
فلا أقدر على الإقدام على المسير أبداً!
فأنت القوة التي في بدني،
وأنت الذي يمسك بزمام رأسي!



الكلام: إن الله تعالى صاحب الكلام، ولا يحتاج من أجل ذلك إلى الصوت والحروف ولا إلى ترتيب الجمل والكلمات التي تنتج عن هذه الحروف، أي إن كلامه منزه عن الحروف والأصوات، لا يشبه كلامه أبداً كلام البشر وأحاديثهم، لأن كلام البشر إنما يتحقق بأخذ نصيب من كلامه سبحانه وتعالى.

١٠٨ البقرة: ١٠٧.



ويقول يونس أمْرَه:

يا من يعلم أصل هذه الكلمات....تعال وقل ممن صدر هذا الكلام

ومن لا يعلم مصدر هذه الكلمات.....يظن أنها تصدر مني.

إن الحق ﷻ يُعلِم الملائكة والأنبياء والناس وكافة المخلوقات الأخرى بأوامره ونواهيه ومشيئاته الأخرى من خلال صفة الكلام. فخلق أي كائن يتم بأمر «كن»، وهذا يعني أن هذا الشيء يتحقق بواسطة صفة الكلام التي في ذاته. إن هذه القدرة في الكلام الإلهي يوجد جزءٌ منها في كلام بني آدم أيضاً، الكلام الذي كان فضلاً من الله تعالى عليه. ويعبر الشاعر يونس أمْرَه عن هذا الأمر في قوله:

كلمةٌ تنتهي بها الحروب، وكلمةٌ تقطع بها الرؤوس

وكلمة تحول الطعام المسموم سمناً وعسلاً

وقد كانت سائر الكتب الإلهية من خلال صفة الكلام هذه، والوحي الذي جاء بهذه الكتب إلى الأنبياء كان يتم بواسطة الملائكة، وأحياناً كان يأتي إلى الأنبياء مباشرة من الله تبارك وتعالى من وراء حجب كثيرة لا حصر لها. وفي ذلك يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[109]

١٠٩ الشورى: ٥١.



﴿... وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[110]

لم يكلم الله تعالى موسى عليه السلام بشيءٍ مادي كاللسان والصوت الذي نعرفه، وإنما كلمه بصفة الكلام التي في الأزل. إذ لم يشعر به أحد من الناس البالغ عددهم سبعون الذين جاء بهم موسى عليه السلام شهداءَ، ولا جبريل عليه السلام. وأُغميَ على موسى عليه السلام وغاب عن وعيه أمام هذا التجلي الإلهي، إذ خرج عن نطاق الزمان والمكان، ولم يدرِ أهو في الدنيا أم في الآخرة، ونتيجة استغراقه في مشاعر عظيمة من الوجد والاشتياق، فقد استيقظت بين جوانحه رغبة شديدة عارمة لرؤية الذات الإلهية. ولكن أتاه القرار الإلهي الحازم والقطعي أمام تلك الرغبة أن: ﴿...لَنْ تَرَانِي...﴾[111]

ولما أصر موسى عليه السلام على رغبته نتيجة دافع خارج عن إرادته، أمره الله تعالى بأن ينظر إلى الجبل، فإن رآه ثابتاً في مكانه، فيمكنه مشاهدة الذات الإلهية. وتذكر الروايات بأن نوراً من الحق سبحانه وتعالى قد انعكس على الجبل من وراء حجب كثيرة لا حصر لها، فتصدع الجبل وانهار ولم يتحمل هذا النور، وأغمي على موسى عليه السلام من شدة هول هذا المشهد. ولما أفاق عَلِمَ أنه تجاوز حده فجعل يسبح الله تعالى ويستغفره. فلو لم يُغمَ على موسى عليه السلام لانهارَ هو الآخر مثل الجبل.

---

١١٠ النساء: ١٦٤.

١١١ الأعراف: ١٤٣.



إن أوسع الصلاحيات في هذا العالم الفاني قد مُنحت لسيد الخلق سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، وأُكرِمَ بالمعراج. وقد نال النبي عليه الصلاة والسلام تلك الليلة الوصال مع الله تعالى.

ولأن صفة الكلام الثابتة لله تعالى لا تشبه أي كلام آخر، فإنها من حيث المعنى منزهة عن محدودية كل أنواع الكلام. والبيان الإلهي الذي ينعكس من كلامه إلى دنيانا، والذي يحمل إلينا في الظاهر عدداً معيناً من المعاني، يحتوي على بحر لا حدود له من المعاني. ويشير الحق سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة في قوله:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[١١٢]

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١١٣]

إن كل أشكال الكلام في هذا الكون إنما هي أحد تجليات صفة كلام الحق ﷻ. وبذلك يُظهِر اللهُ تعالى قدرته العظيمة الكامنة في صفة الكلام، ويجعل ذكر اسمه الشريف قائماً بألسنة كثيرة لا حصر لها. فقد وهب الله تعالى لكل مخلوق من مخلوقاته بما فيها تلك

---

١١٢ الكهف: ١٠٩.

١١٣ لقمان: ٢٧.

المخلوقات التي يُظَن أنها بلا روح فيها لساناً ولغة مختلفة من صفة كلامه سبحانه. وهذا ما يُعرف بلسان الحال، حيث يقول الله ﷻ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[١١٤]

يقول يونس أمْرَه الذي أدرك بحق سر هذه الآية الكريمة:

أنهار الجنة تلك تجري وهي تقول الله الله

وبلابل الإسلام خرجت وهي تقول الله الله

أزهار جبال الجنة تفوح وتقول الله الله.



التكوين: وهو صفة الخلق، وتعني الإيجاد من العدم، وهذه الصفة منحصرة بالله ﷻ وحده دون غيره. فالعوالم التي لا حدود ولا حصر لها إنما هي أثر من آثار هذه الصفة الإلهية. والصفات الفعلية الأخرى داخلة ضمن صفة التكوين؛ مثل صفة المميت، والمحيي، والرزاق وغيرها.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[١١٥]

---

١١٤ الإسراء: ٤٤.

١١٥ السجدة: ٧.



﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[116]

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾[117]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[118]

إن صفة التكوين متميزة ومختلفة عن الصفات الأخرى، فبصفة العلم تصبح المعرفة منكشفة ومتمايزة عند الحق سبحانه وتعالى. وبصفة القدرة يصح إيجاد الكائن أو إنهاؤه، وبصفة الإرادة يُرجَّح شيءٌ على آخر قبل إيجاده أو إنهائه، وبعد هذا الترجيح فإن الصفة ذات التأثير الفعلي في خلق الشيء المُرجَّح هي صفة التكوين.

إن أسرار الكون وخفاياه كلها مخبأة في صفة التكوين، وكل ذرة مخلوقة تشهد على الحق سبحانه وتعالى.



١١٦ البقرة: ٢٩.

١١٧ يس: ٨٠.

١١٨ النحل: ٤٨.

وصفوة الكلام أن معرفة العباد للحق سبحانه وتعالى تكون ممكنة في البداية بهذه الصفات، فهذه الصفات التي تحدثنا عنها وغيرها من الصفات الإلهية التي لا تحصى، لا تكون موجودة في الله تعالى حسب ظروف الزمان والمكان بحيث تغيب أحياناً وتعود أحياناً أخرى، وإنما هي موجودة في الله تبارك وتعالى كل آن ولحظة.

ويجب أن نقول بصورة عامة عن كافة هذه الصفات:

لا يوجد لأي صفة من صفات الله تعالى ضد في ذاته العلية، أي إن الله تعالى حي، ولكنه منزه عن الموت الذي هو ضد الحياة بالنسبة للمخلوقات؛ وهو موجود، إلا أنه منزه عن الفناء أو العدم الذي هو ضد الوجود؛ وهو عليم، إلا أنه منزه عن الجهل الذي هو ضد العلم؛ وهو قاضي الحاجات، إلا أنه منزه عن الاحتياج لأحد، وكذلك سائر الصفات الإلهية الأخرى فإنها منزهة عن أضدادها.

والله تعالى في كل صفاته منزه عن الأعضاء أو الوسائط والوسائل، والصفات الإلهية بشكلها وكيفيتها الموجودة في الله تعالى لا تتوفر ولو ذرة واحدة في البشر أو غيرهم من المخلوقات الأخرى، ولكن توجد في المخلوقات تجليات جزيئات بسيطة من هذه الصفات، فكلامنا ليس أثراً لصفة الكلام الخاصة بنا، وإنما هو تجلٍ لجزء يسير من صفة كلام الله ﷻ، لذلك فإن حياة الله ﷻ لا تشبه أبداً حياتنا، ورؤيته لا تشبه رؤيتنا، و كذلك قدرته وصفاته الأخرى.



إن مضامين كل صفات الذات الإلهية الجليلة واسعة ولا متناهية بحيث لا يمكن حصرها بالكلمات. وكلها أزلية وأبدية مطلقة؛ أي ليس لأي صفة حدود أو نهايات. ولهذا فإن علمه سبحانه وتعالى، وكلامه، وقدرته، وتكوينه وسائر صفاته بهذه الماهية التي بيناها منزهة عن التشبيه والشرح والتعريف. أما خصائصنا وخصائص عالمنا فهي محدودة من جهة، وفانية من جهة أخرى. فالإنسان الذي لم يعرف نفسه بعدُ حقَّ المعرفة، لا شك أنه يعجز عن إدراك صفات الله تعالى المخصوصة به في ماهيتها الأصلية، كما يليق بها. أي كما أننا عاجزون عن إدراك حقيقة الذات الإلهية وماهيتها، فإننا عاجزون كذلك عن إدراك حقيقة صفاته بالمعنى التام.

ولا يُشَبَّه الكائنُ أو الصفة التي تكون في مرتبة عالية بما هو في المرتبة الأدنى في الظروف الطبيعية. وإذا حدث ذلك فإنه يكون انتقاصاً من قدره، ونضرب على ذلك مثلاً- ولله المثل الأعلى- إذا ما شُبِّه قط بالأسد، فإن هذا التشبيه يعبر عن تفوقه في القدرة والقوة والشجاعة على أقرانه من جنسه، بينما تشبيه الأسد بالقط يحمل معنى معاكساً، إذ يدل في الحقيقة على جبنه وعجزه. ولذلك فإن تشبيه الله ﷻ بالمخلوقات ما هو إلا غفلة وجرم عظيم ما بعده جرم. ويُعد افتراءً كبيراً بحق ألوهية الله تعالى. لذلك يُقال عن هذا الجرم «شرك»، ويُقال لفاعله «مشرك». إن أحد وجوه انحراف المشركين يتمثل في تجرؤهم على تشبيه صفة سمع الله تعالى

بخصائص أسماعهم، وتجرؤهم على حصر صفة بصر الله تعالى في حدود أبصارهم العاجزة، لذلك تشكلت لديهم اعتقادات بشأن الله تعالى تتميز بضيق الأفق والفساد، وانزلقوا إلى غفلة وضلالة ما بعدها ضلالة. أما الذين أدركوا الحقيقة، وعلموا بأن سائر الصفات التي يتمتعون بها من السمع، والبصر، والفهم، والكلام وغيرها إنما هي تجليات لجزء يسير من صفات الله تبارك وتعالى اللامحدودة، فتراهم يعيشون بفيض المعرفة في جو من نكران الذات، ويفنون داخل اللذة والمتعة العميقة للإيمان الحقيقي، ويرددون قول:

«لا موجود إلا هو»

ويتحررون من كل الأوهام والوساوس الشيطانية، ويأتون ربهم بقلب سليم، ويُكتَبون في سجلات الأولياء الصالحين.

سأل أحد الدراويش أبا يزيد البسطامي قائلاً:

- يا سيدي، أي الأسماء من أسماء الله الأعظم؟

فأجاب أبو يزيد بقوله:

- يا بني، أي اسم من أسماء الله تعالى صغير؟! لا تكن غافلاً، فكل أسماء الله تعالى عظيمة. وإن كنت تريد منه إجابة طلبك، فاجهد في حفظ قلبك من الانشغال عما سواه! فإن أسماءه الحسنى لا تتجلى في القلوب الغافلة، والله تعالى ينظر بأسمائه في كل آن إلى القلب المعمور بنوره!



٢- الإيمان بالملائكة

إن الملائكة كائنات نورانية مخلوقة من النور، لذلك لا نستطيع رؤيتهم على صورتهم وأشكالهم الحقيقية، ولكن الملائكة قابلة للرؤية في الصور والأشكال التي يتشكلوا بها كما يشاؤون، ومِن الأنبياء والرسل مَن رأى بعض الملائكة على هيئتها الأصلية. وليست للملائكة خصائص البشر مثل الطعام والشراب واللباس وغيرها. ولأنها مخلوقة من أجل تسبيح الله تعالى وعبادته، وتنفيذ أوامره، لم يجعل الله تعالى لها نفساً كما هو شأن الإنسان، فالملائكة لا تعصي الله أبداً وأعدادها كبيرة لا تُحصى.

والملائكة من حيث الفضل على درجات. يقول أحد أولياء الله الصالحين:

«لكل ملك درجة من الكمال والنور والقيمة كما للقمر درجات تبدأ بالولادة في أول يوم، ثم بالهلال ثم البدر وهكذا».

«لكل ملك نصيب من النور الإلهي، وقد أُكرم كل واحد منهم بقدر من النور الإلهي وفقاً لمنزلته ومرتبته.»

ويمكننا القول أن هناك أربعة من كبار الملائكة هم:

١. جبريل عليه السلام .
٢. ميكائيل عليه السلام.
٣. عزرائيل عليه السلام.
٤. إسرافيل عليه السلام.

- فجبريل عليه السلام مكلف بمهمة إنزال الوحي على الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.
- وميكائيل عليه السلام مكلف بالطبيعة
- وعزرائيل عليه السلام مكلف بقبض الأرواح.
- وإسرافيل عليه السلام مكلف بالنفخ في الصور.

والملائكة تشبه إلى حد ما الروح التي بين جوانحنا، فكما أننا لا نستطيع إنكار أرواحنا على الرغم من عدم رؤيتنا لها، فإننا لا يمكن أن ننكر وجود الملائكة أيضاً، وقيل إن الإيمان بالملائكة إيمان بالنبوة، وإنكار الملائكة إنكار للنبوة لأنها تحمل أنوار الحقيقة إلى الإنسان. ولذلك فإن الله عز وجل قال في الذين ينكرون ملك الوحي جبريل عليه السلام:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[119]

فنفهم من الآية الكريمة أن للملائكة وظائف أخرى إلى جانب العبادة والتسبيح لله تعالى، فبعض الملائكة تقدم العون والمساعدة للإنسان بأمر الله تبارك وتعالى، لا سيما تقديم العون والعناية لأهل الإيمان في الأوقات العسيرة، والتاريخ الإسلامي شاهد على أمثلة كثيرة من هذا النوع، وهي حقائق لا يمكن إنكارها أو الجحود بها.

119 البقرة: ٩٧.



ويبين الصحابة الكرام الذين شهدوا غزوة بدر هذه الحقيقة بقولهم:

«لقد رأينا يوم بدر لما اشتد القتال رؤوس الأعداء تتطاير من فوق أكتافهم قبل أن تمس سيوفنا أعناقهم».

وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم أيضاً، إذ قال:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[١٢٠]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[١٢١]

وهناك ملائكة أخرى مثل الملائكة الحفظة الذين يقومون بمهمة حماية الإنسان، والكرام الكاتبين الذين يكتبون سجلات أعمالنا، والمنكر والنكير المكلَّفان بسؤال القبر، والملائكة الذين يستغفرون للإنسان كي تُغفَر ذنوبه،

والملائكة الذين يدعون من أجل سير الإنسان على الصراط المستقيم.

---

١٢٠ الأنفال: ١٢.

١٢١ الأنفال: ٥٠.

٣- الإيمان بالكتب

إن الله سبحانه وتعالى أنزل أوامره ونواهيه بدءاً من آدم عليه السلام الإنسان والنبي الأول، وكانت تأتي هذه الأوامر والنواهي على شكل صحف، وفيما بعد لما ازداد النسل البشري وكثرت المسائل والقضايا الاجتماعية وتعقدت، أرسل الحق سبحانه وتعالى الكتب السماوية، وهي أربعة كتب: الزبور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن. والكتب والصحف كلها حق في العصور والفترات التي نزلت فيها، ولذلك فإن الإيمان بالكتب يكون بالإيمان بشكلها الأصلي الذي نزلت به من عند الله تعالى.

لقد أُرسل إلى سيدنا آدم عليه السلام عشر صحف، وإلى سيدنا شيث عليه السلام خمسون صحيفة، وإلى سيدنا إدريس عليه السلام ثلاثون صحيفة، وآخرها عشر صحف إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ وأما الكتب السماوية فمن المعلوم أن التوراة أُنزِلَت على سيدنا موسى عليه السلام، والزبور على سيدنا داود عليه السلام، والإنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام، وأما آخر هذه الكتب فهو القرآن الكريم فقد أنزل على سيد العالمين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إن الكتب الإلهية رسائل أرسلها الله تعالى إلى عباده، تنظم مسار حياة البشر وترشدهم لبلوغ السعادة الأبدية، وهذه الكتب انعكاس لصفة كلام الله تبارك وتعالى على كلام البشر وإدراكهم، لذلك فإن في كل واحدة من الرسائل معجزة كلامية متميزة.



لقد نسخ القرآن الكريم الذي يُعد آخر هذه الكتب السماوية سائر الكتب والصحف التي نزلت قبله، وقد كان النسخ لاحتياجات البشر التي تطورت مع تعاقب العصور، وبسبب التحريفات التي لحقت بالكتب السابقة على أيدي أهل الغفلة والأهواء النفسية. إن المسائل الاعتقادية التي وردت في سائر الصحف والكتب السماوية واحدة، ويعبر أحدهم باختصار عن هذا بقوله:

معنى الكتب الأربعة: لا إله إلا الله.

يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾[١٢٢]

إن أعظم صفة للكتب السماوية هي أنها بلا شك مستندة إلى الوحي الإلهي، وهذا الوصف في وقتنا الحاضر لم يعد ينطبق إلا على القرآن الكريم وحده، ذلك أن الكتب السماوية الأخرى قد تعرضت بعد موت الأنبياء المنزلة عليهم إلى تحريف البشر، لذلك فقدت هويتها السماوية لتكتسب هوية الكتب البشرية التي دوَّنها الناس بأقلامهم، وهذه الحال التي وصلت إليها هذه الكتب كانت أحد أسباب نزول القرآن الكريم الذي يُعد شاملاً لجميع الكتب السماوية السابقة، ومن أتمها وأكملها. وقد أُحيطَ بالرعاية

١٢٢ الحج: ٦٧.

الإلهية لحفظه من أي تبديل أو تحريف على أيدي البشر لأنه آخر الكتب السماوية، وهو باقٍ ومستمر إلى يوم القيامة دون أن يستطيع أحد تقليده أو الإتيان بمثله، كما أخبر بذلك الحق سبحانه وتعالى، إذ قال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٢٣]

فالقرآن الكريم- بهذا التأييد الإلهي- سيستمر إلى يوم القيامة بياناً إلهياً معجزاً يتحدى الإنسان في كل زمان ومكان. إن الأمور الأساسية التي تُقدَّم في القرآن الكريم وسيلة نجاة لنا هي باختصار:

١- العقيدة والأعمال الصالحة.

٢- مراحل خلق الإنسان أي بنيته الجسمية، مثل قدوم الإنسان إلى الدنيا، وعيشه فيها وموته. وما يتعلق بالبنية المعنوية مثل صفات النفس، وخصال الروح الكاملة، وتطهير القلب وتزكية النفس من أجل الارتقاء من الصفات النفسية الأصلية إلى صفة الكمال.

٣- منظومة الكون المتمثلة في السماوات السبع، والشمس، والقمر، والنجوم، وحوادث الطبيعة، وقصر وامتداد الظل، والمطر، وتعاقب الليل والنهار، والكائنات التي تعيش فيما بين السماء والأرض وخصائصها.

---

١٢٣ البقرة: ٢٣.



٤- المعلومات التاريخية المتمثلة في مآل الأمم في الدنيا والآخرة، وتجليات الغضب والانتقام الإلهي، والعِظات التي لا حصر لها في قصص الأنبياء وأقوامهم، والعِبر من الأحداث السابقة.

٥- أحوال التفكر والتذكر الممتدة من الأزل إلى الأبد.

٤- الإيمان بالرسل

إن الأنبياء والرسل قادةُ الهداية.

لقد أرسل الله تعالى بفضل منه وإحسان الأنبياءَ والرسل لتقوية الإنسان لأنه كائن يتصف بالضعف في مجال السير على الصراط المستقيم بشكل صحيح مما يعرضه للوقوع في الكثير من الأخطاء والانحرافات. وهكذا فإن الله تبارك وتعالى جعل الناس مُكلَّفين بعد أن بيَّنَ لهم حدود المسؤوليات عن طريق الكتب والرسل، ولم يستثنِ أي قوم من هذا اللطف والإحسان.

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[١٢٤]

إن غاية الدين محو أو تقليل الجوانب السلبية للنفس الكامنة بين جوانح الإنسان الذي يُعدُّ مظهراً للتجليات المختلفة

١٢٤ النحل: ٣٦.

والمتناقضة القائمة في الميول النفسانية والروحانية، ثم الارتقاء بالصفات النورانية لديه حتى تبلغ أوجها. إلا أن الإنسان يحتاج إلى «أسوة حسنة» يقتدي بها حتى يستطيع الوصول إلى تلك الصفات النورانية. وإحدى الحِكم التي تقف وراء بعث الأنبياء أن يكونوا قدوةً لكي يتبعهم الناس ويطيعوهم.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾[١٢٥]

ويقول واصفاً نبينا محمداً ﷺ:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١٢٦]

فجميع الناس مكلَّفون بالإيمان بالله تعالى وعبادته، ولكي تتحقق هذه المسؤولية بالمعنى الكامل وعَدَ الله تعالى مَن يقوم بها بالجنة، وجعل الأنبياء أيضاً مسؤولين في مهمة التبليغ، وبيَّنَ أن الطرفان سوف يُحاسبَان في الآخرة عن المسؤوليات الملقاة على عاتقهما. يقول الحق سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[١٢٧]

---

١٢٥ النساء: ٦٤.

١٢٦ الأحزاب: ٢١.

١٢٧ الأعراف: ٦.



لذلك فإن النبي ﷺ شعرَ بهذه المسؤولية الملقاة على كاهله، فسأل أصحابه الكرام الذين تجاوز عددهم المئة ألف في خطبة الوداع:

- **«أيها الناس! إنكم ستُسألون عني غداً، فماذا أنتم قائلون؟»**.

فقال الصحابة جميعهم:

- نشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأديت الأمانة، ووفيت وأديت الذي عليك كله!

ثم بعد هذه الشهادة قال النبي ﷺ معبراً تبليغه:

- **«ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟»**.

وفي المرات الثلاث تلقى التصديق من الصحابة الكرام. ثم رفع يديه إلى السماء وأشهد الله تعالى على قيامه بمهمته، فقال:

- **«اللهم اشهد! اللهم اشهد! اللهم اشهد!»**[١٢٨]

والأنبياء والرسل ليسوا فقط هم من مرَّ ذكر أسمائهم في القرآن الكريم لأن الله تعالى قد أرسل إلى كل أمة رسولاً، فهو القائل في كتابه العزيز:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ...﴾[١٢٩]

١٢٨ البخاري: العلم، ٣٧.

١٢٩ النساء: ١٦٤.

ووفقاً للروايات الواردة في هذا الموضوع فإن عدد الأنبياء المبعوثين إلى الناس يبلغ / ١٢٤ / أو / ٢٢٤ / ألف نبي. ومن هؤلاء الأنبياء من أُعطِيَ شريعة خاصة به، ومنهم من أُمِرَ بالسير على شريعة النبي الذين قبله.

يمكن حصر المهام الأساسية التي أُرسل بها الأنبياء في ثلاث، وهي:

١- تبليغ آيات الله تبارك وتعالى.

٢- تزكية النفس.

٣- توجيه الناس إلى الصراط المستقيم بتعليمهم الكتاب والحكمة.

إن وجود الأنبياء يشكل أساس وجودنا، حيث إنهم يمزجون مئات الآلاف من الناس المختلفة طبائعهم بشخصياتهم المثالية التي يُعبَّر عنها بالأسوة الحسنة، ويجعلونهم كأنهم كائن واحد، ويوصلون الناس إلى مرحلة مرضاة الله تعالى.

لم يصلِ الأنبياء إلى مراتب النبوة باجتهاداتهم الذاتية، وإنما كُلفوا بمهمة النبوة باختيار من الله تعالى. لذلك فإن لهم صفات متميزة أُعطيت لهم من الحق سبحانه وتعالى، والإيمان بالرسل يكتمل ضمن هذه الصفات، وهذه الصفات هي:

١. **الصدق**: إن الأنبياء والرسل ملتزمون دائماً بالصدق في القول والفعل، فلا يحيدون عنه أبداً. وثمة تطابق في أقوالهم وأفعالهم، ومن المحال أن ينطق الأنبياء بالكذب. وقد شهد على



صدقهم واستقامتهم حتى ألد أعدائهم الذين لم يؤمنوا بنبوتهم، ونسوق فيما يأتي بعضاً من الأمثلة الكثيرة:

لقد أراد هرقل إمبراطور الروم أن يجمع معلومات عن النبي ﷺ لما أرسل إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وكان أبو سفيان الذي لم يكن قد دخل الإسلام بعد من الذين سألهم الإمبراطور. ومن الأسئلة التي وجهها هرقل إليه عن الرسول ﷺ السؤال الآتي:

- هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فأجاب أبو سفيان الذي لم يكن قد آمن بالنبي عليه الصلاة والسلام وكان من أشد المعارضين لدعوته:

- لا! وما يرجع عن وعد قطعه على نفسه! .

ومن الأمثلة أن أُبَيَّاً بن خلف كان من أشد مشركي مكة عداوة وبغضاً للإسلام، وكان قبل الهجرة يقول للنبي ﷺ:

- يا محمد! إن عندي العَوْذَ، فرساً أعلفه في كل يوم فَرَقَاً (أي مكيالاً) من ذُرَة ، اقتلك عليه!

وفي إحدى المرات أجابه الرسول عليه الصلاة والسلام:

- بل أنا أقتلك إن شاء الله!

ويوم معركة أُحُد خرج هذا المشرك يبحث عن النبي ﷺ لقتله، وهو ويقول:

- لا نجوتُ إن نجوتَ!

واقترب من الرسول عليه الصلاة والسلام قاصداً قتله، فأراد الصحابة الكرام ضرب عنقه وهو ما زال بعيداً، وقالوا:

- يا رسول الله! يعطف عليه رجل منا!

ولكن النبي ﷺ قال لهم:

- دعوه!

ولما دنا أُبي بن خلف من الرسول عليه الصلاة والسلام ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة و انتفض انتفاضة تطاير لها الشعر عن ظهر البعير، ثم استقبله الرسول فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها مراراً على الأرض حيث سقط عن ظهر فرسه، ثم ولى هارباً إلى قومه. وكان عدو الله يجري، ويصرخ وهو يقول:

- قتلني و الله محمد!

فلما رجع أبي بن خلف إلى قومه، وهو يردد هذا القول، وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشاً غير كبير. قالوا له:

- ذهب و الله فؤادك! و الله ما بك من بأس!

ولكنه لم يهدأ له بال، وقال:

- إنه قد كان قال بمكة: «أنا أقتلك! فوالله لو بصق عليَّ لقتلني!»

وبعدها استمر في صراخه، وكأن صوته خوار ثور هائج مطعون.

فسخر أبو سفيان منه وعاب عليه عمله بقوله:



- أيحتاج هذا الجرح الصغير إلى كل هذا الصراخ؟ فقال له أبي بن خلف:

- أتعلم من أحدث هذا الجرح؟ إنه الجرح الذي فتحه محمد. وإني لأقسم باللات والعزى لو وُزع الألم الذي أشعر به من هذا الجرح على أهل الحجاز جميعهم لهلكوا كلهم. لقد قال لي محمد في مكة: «إني قاتلك». ومنذ ذلك الوقت أدركت أن مقتلي على يديه، وأني لن أفلت منه.

ومات أبي بن خلف العدو اللدود للنبي ﷺ في الطريق قبل وصوله إلى مكة بيوم واحد.

إن هذه الحادثة لتستحق التوقف والاعتبار، فحتى ألد خصوم النبي عليه الصلاة والسلام، وأشدهم بغضاً وكرهاً له، يعترف بصدق قوله وقوته.

٢. **الأمانة**: إن الأنبياء عليهم السلام من أكثر البشر اتصافاً بالأمانة على الإطلاق. وحتى غير المؤمنين يثقون بالأنبياء وبأمانتهم ثقة عمياء، إذ لم تكن عبارة «محمد الأمين» تفارق ألسنة المشركين في مكة. وكانوا لا يسلِّمون أماناتهم إلى أصحابهم وخلانهم، وإنما يفضلون تسليمها إلى رسول الله ﷺ. حتى إن النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة كانت لديه بعض الأمانات لمشركي قريش، فترك وراءه ابن عمه علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يسلم تلك الأمانات إلى أهلها، على الرغم من احتمال أن يقتله المشركون.

٣. **الفطنة**: إن الأنبياء من أكثر الناس فطنة وتمتعاً بالذكاء. فهم أصحاب ذكاء حاد، ولهم منطق قوي في إقامة الحجة وإقناع الطرف الآخر. وقد ظهرت هذه الصفة في الأنبياء والرسل بشكل متقطع، أما رسولنا الكريم ﷺ فقد كانت حياته كلها حافلة بمظاهر هذه الصفة.

ومن هذه المظاهر:

أن الكعبة المشرفة تعرضت قبل البعثة لفضيان كبير فأصبها ضرر، وقامت القبائل التي في مكة بإصلاحها وبناء ما تهدم منها. إلا أن البناء لما وصل إلى مرحلة وضع الحجر الأسود الشريف في مكانه اختلفت القبائل المشتركة في البناء فيما بينها، لأن كل قبيلة أرادت أن تستأثر شرف مهمة رفع الحجر الأسود لنفسها، واشتد الخلاف بينهم. وكادت أن تقع حرب كبيرة بين تلك القبائل، ولما لم يصلوا إلى حل للمشكلة وأشرفوا على القتال، قال أحدهم:

- دعكم من هذا الخلاف ومن القتال! فما دمنا قد عجزنا عن إيجاد حل لهذه المسألة فيما بيننا، فلندع أول رجل يدخل من باب الحرم يتولى حل الخلاف بيننا، ونرضى جميعاً بحكمه!

وفي تلك الأثناء دخل سيد الخلق سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم من باب الحرم، فعَلَتِ الابتسامة وجوه الجميع، وظهرت علامات الرضا على محياهم، لأن الذي دخل من الباب هو «محمد الأمين ﷺ».



ولما بينوا له المسألة وعرضوا عليه حل الخلاف، اختار رسول الله ﷺ من كل قبيلة رجلاً، ثم خلع رداءه وبسطه على الأرض. ثم وضع الحجر الأسود على ردائه وأمر الرجال الذين اختارهم بأن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء، فرفعوا الحجر الأسود معاً، ثم وضع بيديه الشريفتين الحجر الأسود في موضعه من البناء. وبذلك فقد أظهر فراسة وبصيرة قلَّ نظيرها، وحال دون نشوب خلاف وحرب دامية كان يمكن أن يذهب ضحيتها عدد لا حصر له من الأرواح، حيث إن القبائل العربية كانت آنذاك تخوض حروباً شعواء دامية لأسباب أقل من هذا.

ومن مظاهر فطنته ﷺ الدرايةُ العسكرية التي أظهرها خلال المعارك والغزوات التي خاضها في سبيل الإسلام، والفراسة العظيمة في المعاهدات التي عقدها مع الأعداء لا سيما في صلح الحديبية، والعدالة المنقطعة النظير التي طبقها يوم فتح مكة وفي حنين والطائف.

٤. **التبليغ**: فالأنبياء يبلغون الناس وينقلون إليهم الأوامر الإلهية كما يتلقونها من الحق سبحانه وتعالى دون أدنى تغيير أو نقص، إذ لا توجد في تبليغاتهم زيادة ولا نقصان.

٥. **العصمة**: إن الأنبياء بعيدون كل البعد عن ارتكاب مختلف المعاصي والذنوب الظاهرة منها والباطنة. إلا أنه قد بدت منهم بعض الزلات اللاإرادية التي هي من مظاهر الصفة البشرية التي

يتصفون بها، وذلك لتذكيرهم بالعجز كي لا ينسوا طبيعتهم البشرية فيضيفوا إلى أنفسهم صفات الألوهية. فهم مكلَّفون بالأفعال التي يمكن اتخاذها مثلاً أعلى للاقتداء بها. ولولا الطبيعة البشرية للرسل فإن الناس كانوا وجدوا أعذاراً ليتهربوا من تنفيذ الأوامر والنواهي الإلهية، من حيث أن هذه الأوامر التي يأمرهم بها الأنبياء فوق طاقتهم البشرية. وقد تعامى بعض المغفلين عن الحقيقة وخرجوا بفكرة تقضي بضرورة أن يكون الأنبياء من الملائكة، وقد ردَّ الله تبارك وتعالى على هؤلاء الغافلين بقوله في كتابه الكريم:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا﴾[١٣٠]

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾[١٣١]



وما عدا هذه الصفات الخمسة التي يتمتع بها الأنبياء والرسل جميعاً، فإن هناك ثلاث صفات عظيمة خاصة بسيدنا محمد ﷺ، وهي:

١- إن النبي ﷺ «حبيب الله»، فهو خير الأنبياء، وأشرف الناس. ويصوره الشاعر نجيب فاضل باختصار فيقول:

الأزل صفَّى عطرك ......فأنت العسل والكون شمعك.

١٣٠ الإسراء: ٩٥.

١٣١ الأنبياء: ٨.



٢- النبي عليه الصلاة والسلام مبعوث إلى الإنس والجن كافة. أي إنه رسول الثقلين، والدين الذي جاء به باق إلى يوم القيامة. وأما الأنبياء والرسل الآخرون فقد بُعثوا لزمن مؤقت، ولأقوام محددين. لهذا فإن معجزات الأنبياء منحصرة في زمنهم، أما معجزات سيدنا ونبينا محمد ﷺ فشاملة لجميع الأزمنة، لا سيما معجزة القرآن الكريم الذي نزل عليه، فإنها معجزة جارية إلى يوم القيامة.

٣- خاتم الأنبياء؛ أي أنه آخر الأنبياء والرسل، فلا نبي بعده ولا رسول. يقول رسول الله ﷺ:

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[١٣٢]

فنفهم من حديثه أنه آخر الأنبياء ببعثه إلى الإنس والجن بعدهم جميعاً، وهو أول الأنبياء من حيث الخلق.

إضافة إلى ذلك فقد أعطي النبي ﷺ يوم القيامة المقام المحمود، والشفاعة العظمى. لذلك فإن نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام سوف يشفع لأمته يوم المحشر. وإن قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[١٣٣]

١٣٢ كشف الخفاء: ٢، ١٣٢.

١٣٣ النساء: ٦٤.

يبين مدى أهمية استغفار النبي عليه الصلاة والسلام وشفاعته في أمر العفو عن أمته، وكأنه وعد وبشارة إلهية بالشفاعة.

ويظهر من الحديث الذي سوف نورده فيما يأتي أن النبي ﷺ بُشرى تُلقي في القلوب الأمل والرحمة. حيث يقول رسول الله ﷺ:

«إذا كان يوم القيمة ماجَ الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون:

- اشفع لنا إلى ربك!

فيقول آدم عليه السلام:

- لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن!

فيأتون إبراهيم عليه السلام، فيقول:

- لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام، فيقول:

- لست لها، ولكن عليكم بعيسى! فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام فيقول:

- لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ!

فيأتونني، فأقول:

- أنا لها.

فأستأذن على ربي، فيُؤذَن لي، ويلهِمني محامدَ أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجداً، فيقال:



- يا محمد ارفع رأسك! وقل يُسمع لك! وسل تُعط! واشفع تُشَفَّع!

فأقول:

- يا رب! أمتي أمتي!

فيقول الله تعالى:

- يا محمد! انطلِقْ فأخرِج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان!

فأنطلقُ فأفعل. ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً.

فيقول الله تعالى:

- يا محمد! ارفع رأسك! وقل يُسمع لك! وسَلْ تُعط! واشفع تُشَفَّع!

فأقول:

- يا رب! أمتي أمتي!

فيقول الله تعالى:

- انطلِقْ فأخرِجْ منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان.

فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً.

فيقول الله تعالى:

- يا محمد ارفع رأسك! وقل يُسمع لك! وسَلْ تُعط! واشفع تُشَفَّع!

فأقول:

- يا رب! أمتي أمتي!

فيقول الله ﷻ:

- انطلقْ فأخرِجْ من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار!

فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجداً.

فيقول الله تعالى:

- يا محمد! ارفع رأسك! وقل يُسمع! وسَلْ تُعطه! واشفع تُشَفَّع!

فأقول:

- يا رب! ائذنْ لي فيمن قال لا إله إلا الله!

فيقول الله ﷻ:

- وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنَّ منها من قال لا إله إلا الله!»[١٣٤]



١٣٤ انظر البخاري: التوحيد، ٣٦.



والخلاصة أن الأنبياء قد أصبحوا بتمتعهم بالصفات التي ذكرناها مرشدين للناس إلى الهداية، وأُمِرَت أممهم بالإيمان بهم واتباع منهجهم. يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١٣٥]

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[١٣٦]

إن الذين يراعون هذا الأمر الإلهي ويتبعونه يعيشون بسلام وسعادة في الدنيا والآخرة. ولهم في الدارين المقام العالي والدرجة الرفيعة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾[١٣٧]

وأما من يسيرون على عكس هذا النهج، أي يخالفون الأنبياء والرسل ولا يراعون الأمر الإلهي الذي نزل بحقهم، فإنهم يعيشون

---

١٣٥ البقرة: ١٣٦.

١٣٦ الأنعام: ٩٠.

١٣٧ النساء: ٦٩.

حياة تعيسة ويبوؤون بالخسران المبين والأبدي في الدارين. وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿... فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١٣٨]

﴿... وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١٣٩]

والحق أن التاريخ البشري على مختلف عصوره مليء بأولئك الغافلين الذين ابتعدوا عن الآفاق النورانية التي فتحها الأنبياء والرسل ليلاقوا مصيراً مرعباً من الدمار والخسران الأبدي، حتى إنهم تسببوا جعلوا مجتمعاتهم مدمرة. فإن ظنَّ أولئك التعاسةَ التي عاشوها سعادةً قد أوردهم المهالك، إذ إنهم لم يدركوا ولم يفهوا الأسرار والحكم الكامنة وراء خلقهم، فعملوا على تقليد الحياة الحيوانية باتباع الأهواء النفسية والغرائز الشهوانية، فتعرضوا للغضب الإلهي فهلكوا وخسروا الدارين.

يقول الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[١٤٠]

---

١٣٨ النحل: ٣٦.

١٣٩ النساء: ١٣٦.

١٤٠ مريم: ٩٨.



﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١٤١]

ويقول الله ﷻ في أولئك الغافلين الذين يصرون على عدم الإيمان على الرغم من الإشارات والعلامات والتبليغات والتحذيرات الإلهية الممتدة من الماضي السحيق إلى الحاضر والمستقبل:

﴿... فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١٤٢]

لقد كان جميع الأنبياء والرسل شخصيات مباركة عملوا على إرشاد الناس على أساس التوحيد. وإن إنكار نبوة أي واحد من الأنبياء والرسل الذين ثبتت رسالتهم ونبوتهم بالقرآن الكريم يخرج المرء عن دائرة الإيمان. فمثلاً؛ لو أنكر أحد الناس نبوة عيسى عليه السلام فإنه لا يمكن أن يُعد مؤمناً، لأن الأنبياء جميعاً قد بلغوا الأسس ذاتها، لذلك فإن الدين الذي جاؤوا به هو الإسلام بالنسبة إلى جميعهم.

إن نبي آخر الزمان هو سيد الأنبياء جميعاً، وسوف يجمع كل أمته يوم القيامة تحت «لواء الحمد». وفي زحام هذا اليوم المهيب

١٤١ الروم: ٩.

١٤٢ المؤمنون: ٤٤.

يسير كل الأنبياء الذين سبقوه على رأس الناس الذين آمنوا بهم واستقاموا على النهج السليم ليأخذوا مكانهم أيضاً تحت هذا اللواء. أي إن كل أمة آمنت بنبيها في زمن نبوته، وسارت على منهجه- حتى الزمن الذي تم فيه نسخ شريعته- سوف تكون ضمن «أمة محمد ﷺ».

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٤٣]

٥- الإيمان باليوم الآخر

لقد قدَّرَ الله سبحانه وتعالى لحياة الإنسان خمس مراحل:

أولها: عالم الأرواح.

وثانيها: عالم الأرحام.

وثالثها: الحياة الدنيا.

ورابعها: عالم البرزخ.

وخامسها: العالم الآخر الذين يكون إما للجنة أو للنار.

والإنسان يخضع في الحياة الدنيا لامتحان، وترتبط سعادته الأبدية بعمله وسلوكه ومعتقداته في هذه الحياة. وقد جُعلَ الإيمان باليوم الآخر الذي هو المرحلة الخامسة لحياة البشر من بين أركان الإيمان الستة ليعلم كل عبد بأن هناك جزاءً لكل عمل، فيكون مدركاً

١٤٣ الصافات: ١٨١ – ١٨٢.



للمسؤولية الملقاة على عاتقه. وقد ورد ذكر الإيمان باليوم الآخر كثيراً في القرآن الكريم مقروناً بالإيمان بالله تعالى لأهميته العظيمة، ومن ذلك قول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١٤٤]

ويقول الله تبارك وتعالى في مدحه للمؤمنين:

﴿...الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾[١٤٥]

إن الآخرة هي الحياة الحقيقية الخالدة التي سوف تبدأ بعد الموت.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[١٤٦]

لذلك فإن الذين يعلمون الحقيقة يستفيدون من كل نَفَس لهم في هذا العالم الفاني، ولا يغفلون عن الحق سبحانه وتعالى ولو لحظة واحدة، ويكون عمرهم مليئاً بالخير والأعمال الصالحة،

١٤٤ البقرة: ٦٢.

١٤٥ التوبة: ٤٥.

١٤٦ العنكبوت: ٦٤.

وتراهم يعيشون بين الخشية من الله تعالى لهول الحساب يوم المحشر، والرجاء في رحمته سبحانه وتعالى.

ذهب أحد الصالحين إلى السوق يريد شراء بعض الأشياء الضرورية. وقد أجرى حساباً في البيت للمبلغ الذي سوف يدفعه مقابل تلك الأشياء وكانت قناعته بأن النقود التي بين يديه كافية لدفع ثمنها، إلا أنه لما وصل إلى السوق وجد أن تلك النقود غير كافية لشراء حاجياته. فبدأ الرجل الصالح بالبكاء واستمر مدة طويلة على هذه الحالة، فتعجب الناس المحيطين به من حاله، وحاولوا تهدئته والتخفيف عنه بقولهم أن عدم كفاية النقود لا يستدعي كل هذا القلق والبكاء. وبعد أن هدأ الرجل الصالح وخف بكاؤه، نظر إلى القوم الذين تجمعوا من حوله مندهشين لحاله، فناداهم بصوت ما زالت فيه حشرجة البكاء، وقال:

- لا يظننَّ أحدكم أن دموعي من أجل هذه الدنيا، ولكني فكرت وقلت لنفسي: إن حسابي اليوم في بيتي لم يتطابق مع السوق! فكيف سوف يطابق في الغد حسابُ الدنيا حسابَ الآخرة؟!

لا شك أن دموع العبودية هنا سوف تكون سبباً في ابتسامة الوجوه غداً في الآخرة، وإن الشاعر يونس أمْرَه كان في الصفوف الأولى للذين بكوا خوفاً من يوم المحشر، وقد دعا الجميع إلى أخذ أماكنهم في هذه الصفوف بقوله:



هلموا نتذكر يوم القيامة،
ونذرف من أجله الدموع.
إن ذلك اليوم يوم الملامة،
فهلموا إلي نذرف من أجله الدموع..

في ذاك اليوم سوف تتشقق الأرض،
ويُبعث الأموات جميعاً أحياء.
وسوف يُسألون عن كل الذنوب،
فهلموا إلي نذرف من أجله الدموع..

في ذلك اليوم سوف تنشق السماء،
وسوف يعاني الناس.
فمن لا يخاف ذلك اليوم؟
هلموا إلي نذرف من أجله الدموع..

في ذلك اليوم ترفع الصيحات والصرخات،
وتصبح الرجال والنساء عراة.
يومها كل الأكباد تتلوى من العطش،
هلموا إلي نذرف من أجله الدموع..

يا يونس أمْرَه اسلكْ الصراط،
إذ لا يُعرَف يا أخي إلى ما تؤول الحال.
سيكون الدواء من الحق،
هلموا إلي نذرف من أجله الدموع..

ويقول في أبيات أخرى:

يُحاسَب المرء عن الحلال،

ويُعذَّب في الحرام.

ويلحق بالعاصي العقاب،

فماذا أقول أنا وماذا أفعل؟..

بعد أن تصل الدنيا إلى حدها المرسوم لها وتنتهي، سينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور فيُبعث بذلك النفخ جميع الناس من قبورهم إلى الحياة من جديد، ويتوجهون إلى أرض المحشر.

إن بعث الناس في ذلك اليوم لأهونُ على الله تعالى من خلقهم من العدم أول مرة، يقول الحق عز وجل عن هذا الأمر في كتابه العزيز:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾[147]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[148]

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ

١٤٧ مريم: ٦٦ – ٦٧.

١٤٨ القيامة: ٣ – ٤.



يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١٤٩]

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[١٥٠]

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا . أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[١٥١]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا

١٤٩ يس: ٧٧ – ٨٣.

١٥٠ الروم: ١٩.

١٥١ الإسراء: ٥٠ – ٥١.

ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[152]

فنفهم من هذه الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى هو المحي والمميت والباعث من الموت، وأن البعث من الموت سوف يتحقق لا محالة. والأمر المهم هنا أن يعمل الإنسان على ضوء البيان الآتي:

«كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تُبعثون».

ويقول يونس أمْرَه:

يا أيها الأصحاب يا أيها الأخوة،
يُقَال إني أخاف من الموت.
كلا، ما أخشاه ليس موتي،
بل أخشى مما يحكى أن المرء يلقى ما يعمله..

فالله تبارك وتعالى يقول:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[153]

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[154]

---

١٥٢ الحج: ٥.

١٥٣ الزلزلة: ٧ – ٨.

١٥٤ الشعراء: ٨٨ – ٨٩.



يقول الشاعر عارف نهاد مستلهماً من هذه الآيات الكريمة:

قالوا: لا يوجد في جهنم حطب،
إنما يأخذ الراحل حطبه معه بنفسه!
فعلمت أن الذاهب إلى الجنة أيضاً،
يأخذ من هنا الزهور والزنبق بنفسه!

ويقول يونس أمْرَه منبهاً إلى ضرورة الإعداد للتوجه إلى الآخرة:

لا ينتهي عملك في الغد،
عندما لا ينتهي هنا اليوم!

والحاصل، إن الآخرة ضرورية سواء للسيئين أو الصالحين، لأنه ليس شيءٌ أكثر عدلاً من أن ينال الصالحون مكافأة صلاحهم وإحسانهم، ويخضع المفسدون والمسيؤون لجزاء سيئاتهم. فلو لم يكن هناك أماكن آمنة يلجأ إليها الصالحون في ظروف هذه الحياة البسيطة ولم يكن هناك سجون يُوضَع فيها المسيؤون لأصبحت الحياة مستحيلة؛ فيمكن للإنسان أن يصل إلى الإيمان بوجود الحياة الآخرة بهذه الحكمة وحدها.

فالإنسان يغضب ويسعى إلى معاقبة حتى البعوضة الصغيرة الحقيرة التي تلسع جسده، ولا ينسى من قدَّم له معروفاً، لذلك لا يمكن أن يكون في غفلة إلى حد التفكير بأن كل التصرفات والأفعال الإيجابية والسلبية الصادرة عنه طيلة سنوات عمره سوف تبقى من غير مقابل عند الله تعالى، ففي هذه الدنيا ظلم الظالمين، وآهات



المظلومين، وكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين. فلو لم يكن لهؤلاء جزاء، لكان جعل النظام الإلهي للكون المسخر للإنسان لا معنى له، ولكان حتى خلق الإنسان بذاته عبثاً، وهذا مخالف لصفة العدل الثابتة لله تعالى. فكما أن الحق سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص، فإنه منزه عن هذا الأمر أيضاً، يقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[155]

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[156]

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾[157]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[158]

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾[159]

---

١٥٥ القيامة: ٣٦.

١٥٦ المؤمنون: ١١٥.

١٥٧ الدخان: ٣٨.

١٥٨ سبأ: ٣.

١٥٩ النساء: ٨٧.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[160]

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[161]

لم يُذكر موعد يوم القيامة لا في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية الشريفة، إلا أنه ذُكِرَت بعض من العلامات الصغرى والكبرى التي تدل على قرب وقوعه، ويمكن أن نلخصها باختصار على النحو التالي:

أ. العلامات الصغرى:

١- قبض العلم وظهور الجهل. وفي هذه الحالة سوف يكثر شرب الخمر، وارتكاب الزنا ويجاهَر بهما علناً.

٢- الهرج والمرج أي كثرة القتل لأبسط الأسباب، أو دون سبب.

٣- رفع العدالة، وعدم كفاءة من يتولون أمور الناس، وعدم مراعاة الحلال والحرام.

---

١٦٠ النساء: ١٣٦.

١٦١ القيامة: ٦ – ١٣.

٤- زيادة عقوق الوالدين، وطاعة النساء.

٥- انتشار التلاعب في الميزان والمكيال.

٦- تناقص احترام الإنسان والرحمة، وعدم الأخذ بالنصائح.

٧- زيادة الهجرة إلى المدن، وارتفاع البنيان. وإظهار الاحترام لشرار الناس، وإسناد أمور الناس إلى غير أهلها القادرين على تسييرها.

٨- ازدياد القمار، وانتشار آلات المعازف ورواجها، وظهور السحر، وعدم الشعور بمرور الوقت.

٩- الإسراف، وترجيح الأموال والمنافع الدنيوية على سعادة الآخرة.

ب. العلامات الكبرى:

١- ظهور الدخان الذي سيستمر مدة أربعين يوماً.

٢- خروج الدجال.

٣- خروج دابة الأرض.

٤- شروق الشمس من المغرب.

٥- خروج يأجوج ومأجوج.

٦- نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء.

٧- ظهور نار عظيمة من الحجاز.

٨- حدوث خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في شبه الجزيرة العربية.





تقوم الساعة وتبدأ أهوال يوم القيامة بنفخ إسرافيل عليه السلام في الصور للمرة الأولى حيث يُصعق كل ما السماوات والأرض، ويحدث البعث بالنفخة الثانية في الصور. ويقول الله سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[١٦٢]

وإلى جانب هذه المعلومات العامة حول النفخ في الصور، هناك تصنيف آخر له، حيث إن الصور يكون على ثلاث نفخات، وهي:

١- **نفخة الفزع**: وفيها يفزع كل ما في الدنيا.

٢- **نفخة الصاعقة**: وفيها يهلك كل شيء، وبذلك لن يكون على وجه الأرض أي مرتفعات، فيُسوَّى كل شيء بالأرض، ويهلك كل شيءٍ، ولا يبقى إلا الله تعالى الواحد الصمد.

٣- **نفخة القيام لرب العالمين**: إذ ينادي الله عز وجل جميع المخلوقات فتنهض جميعها قائمة من مرقدها.

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز:

١٦٢ الزمر: ٦٨.



﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[١٦٣]

قال بعض العلماء: مهما بلغ عذاب أهل الكفر في القبور من الشدة والألم فإنه يعد خفيفاً مقارنة مع عذابهم في جهنم، لذلك عندما يُبعثون من قبورهم إلى يوم المحشر فإنهم يرون أنفسهم في منام عميق قد أفاقوا منه ليُساقوا إلى عذاب شديد، فيبدؤون بالصراخ بقولهم: «يا ويلنا!»

فقول «يا ويلنا» ينطق به من يُساقون إلى العذاب الشديد. ويُذكَر في بعض الروايات أن المدة التي تفصل بين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة حيث يُرفع خلالها عذاب القبر، فيصير الأموات وكأنهم غارقون في نوم عميق. ولهذا عندما يُبعثون في صباح يوم القيامة، ويدركون بأنهم معرضون لعذاب جهنم، فإنهم يبدؤون بالصراخ:

«من بعثنا من مرقدنا هذا؟»

فالأمر الذي يجب أن لا يغيب عن بالنا هو أن لا نشغل تفكيرنا بموعد حدوث يوم القيامة كثيراً، وإنما ينبغي أن ينشغل كل واحد منا بقيامته التي هي الموت وما بعد الموت، وما إن كان مستعداً لها أم لا.

١٦٣ يس: ٥١ – ٥٢.



إن الدنيا سراب خادع، أما الآخرة فحياة أبدية لا موت فيها. وينبغي لنا التيقظ قبل حدوث قيامتنا التي هي الموت كي لا نكون من الخاسرين النادمين، فمما لا شك فيه أن عزرائيل يتربص بنا في كل مكان وزمان من هذه الدنيا الفانية، ويمكن أن يقبض أرواحنا في لحظة من اللحظات، فلا مفر من الموت أبداً. وإن كان الأمر كذلك، فعلى الإنسان السعي إلى الله تعالى دون إضاعة أي وقت، وعليه ألا يقبل إلا الرحمة الإلهية ملجاً وحيداً له، مسترشداً بقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ...﴾[١٦٤]

فالخواص من عباده يقولون: اليوم يومنا، فيسعون دون تلكؤ إلى تدارك أنفسهم واتخاذ تدابير الآخرة قبل حدوث قيامتهم، ولذلك فإنهم يوم القيامة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأترك الكلمة الأخيرة في هذا الشأن لالتجاء وتضرع الشاعر يونس أمْرَه إذ يقول:

اجعلنا من الذين يدخلون إلى دار الجنة!

اجعلنا في لحظة الوصول من الناظرين إلى جمال وجهك الكريم!

---

١٦٤ الذاريات: ٥٠.

٦- الإيمان بقضاء الله وقدره خيره وشره

إن إرادة الحق سبحانه وتعالى موجودة في كل الحوادث، ولا يحدث في الكون شيءٌ خارج دائرة إرادته وقدرته. فلا تتحرك حتى ذرة من مكانها، ولا تخفق جناحا بعوضة إلا بقدرته. والله تعالى يعلم كل شيء ما يكون وما سوف يكون في المستقبل لأنه صاحب العلم الكلي. والقدر هو التقدير الموجود في الأزل لشيءٍ ما سوف يحدث، وأما القضاء فهو حدوث ذلك الشيء وفق ما هو في القدر.

لا يمكن فهم القدر بكل جوانبه بالمقاييس البشرية، لهذا فقد أُسيِءَ فهم القدر كثيراً. فالتعمق بالبحث في هذا الموضوع لا يُكسِب الإنسان فوائد تُذكر، لأن قول الله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾[١٦٥]

لا يدع مجالاً للتعمق في موضوع القدر.

وكما أن الإنسان الأعمى لا يمكنه وصف الألوان، فكذلك لا يمكن الولوج إلى أسرار القدر وماهيته بالإدراك البشري العاجز، ولكن يمكن للإنسان أن يأخذ القليل مما منحه الحق سبحانه وتعالى من علمه اللدني. والقصة التي ذُكِرت في القرآن الكريم عن سيدنا موسى والخضر عليهما السلام مثال بارز على ما ذكرناه:

١٦٥ الأنعام: ٥٩.



إذ أرسل الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام إلى صاحب العلم اللدني الخضر عليه السلام كي يأخذ منه هذا العلم. وهذا العلم علم يعكس ومضات من خلف الأسباب والحجب، أي من اللوح المحفوظ. فخرج سيدنا موسى عليه السلام في رحلة مع الخضر عليه السلام. وجرت في تلك الرحلة تجليات إلهية كثيرة، فإذا ما أخضعنا الأحداث التي جرت في هذه القصة للتحليل العقلي نستنتج ما يلي:

يبدو أن ثقب السفينة التي صادفاها في طريق رحلتهما ضربٌ من الظلم بحق أصحابها؛ ولكن في الحقيقة كانت حمايةً لتلك السفينة التي هي وسيلة تأمين لقمة عيش الفقراء من الغصب من قبل الظالمين.

وكذلك فإن قتل الطفل الصغير من حيث الظاهر جريمة قتل؛ ولكن في الحقيقة يمثل هذا الفعل حماية الحياة الأخروية للأب والأم الصالحَين.

والأمر ذاته في مسألة بناء الجدار، إذ إن بناء الجدار للقرية التي طردهما أهلها يُعد في الظاهر عملاً مخالفاً لمنطق السلوك البشري، وأما في الحقيقة فهو حفظ لأمانة الولدَين اليتيمَين المظلومَين.

إلا أن أسرار هذه الأحوال التي وقعت في هذه القصة لا يمكن الاطلاع عليها وكشفها إلا عن طريق العلم اللدني الذي منحه الله تعالى لعبد من عباده، ولهذا فإن سر القدر لا يمكن إدراكه بالعقل. لأن فهم القدر وإدراكه أمر فوق طاقة إدراك البشر، ولأجل ذلك فقد



أمرنا رسول الله ﷺ بالاكتفاء بالإيمان بالقدر، ولما رأى جماعةً من الصحابة يتناقشون في أمر القدر، قال لهم:

«أبهذا أُمرتم؟ أم بهذا أُرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه.»

فالأمر الأهم في مسألة القدر إنما هو إدراك الحكمة الأساسية في المسألة والاكتفاء بذلك، وليس التعمق في بحث أمر القدر.

إن الله ﷻ قد جعل الأفعال المقدَّرة على الإنسان على نوعين:

1. **الأفعال الاضطرارية.**
2. **الأفعال الاختيارية.**

الأفعال الاضطرارية:

وهذه الأفعال تقع خارج إرادتنا ورغبتنا، فهي تجليات القضاء والقدر التامة. ولا يمكن السير عكس هذه الأفعال أبداً. ومن الأمور والأفعال الداخلة في هذا القسم من القدر الولادة، والموت، والبعث، والنوم، والألم، وبينة الجسم، ومدة العمر وما شابه من الأمور التي تحدث من غير إرادتنا، وتُسمَّى «القدر المطلق» والإنسان ليس مسؤولاً عنها لخضوعه لها بشكل اضطراري دون اختيار منه.

وعندما يحين وقت القضاء في الأمور الداخلة ضمن القسم الاضطراري للقدر، فإن عين الإنسان البصيرة تصبح عمياء، وأذنه السميعة تصبح صماء، فينقاد لقضاء الله تعالى.



يقول أحد أولياء الله الصالحين:

«حينما يأتي القضاء ويطل برأسه، فإن الأسماك ترمي بنفسها خارج البحر من تلقاء ذاتها، وتبدأ الطيور المحلقة في السماء بالهبوط والسير نحو المصيدة المنصوبة على الأرض فيُقبَض عليها».

«إن الفارون من هذا القضاء والقدر لا يسعهم إلا الفرار إلى القضاء والقدر مجدداً».

لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿... وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[166]

إلا أنه عندما تُذكَر كلمة «القدر» لا ينبغي أن يُفهَم منها الكوارث وغيرها من حوادث الطبيعة، فالقدر بأحد معانيه يعبر عن التوازن الذي في الطبيعة والمقياس الإلهي لذلك التوازن. يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[167]

لذلك فإن لوم حكم القدر أو انتقاده لهوَ حماقة حتى ولو كان عن جهل، لأن حكم القدر يكون صادراً عن إرادة، ويكون صواباً دائماً. فالشمس التي تضيء الأرض والتي هي في حال دوران مستمر بتوازن دقيق وتام دون انحراف عن مسارها، لا أحد- سواء من المؤمنين أو الكافرين- يخشى من تحركها من تلقاء نفسها، ثم

١٦٦ الأحزاب: ٣٨.

١٦٧ القمر: ٤٩.

الاقتراب أو الابتعاد عن الأرض. فالكل يؤمن بأن الشمس تشرق وتغيب كل يوم ضمن نظام محدد لا يشذ أبداً. فلا بد من الإقرار والتصديق بالنظام الإلهي في الكون مهما حدث فيه من أمور إيجابية أو سلبية. حتى الكافرون الأشد إنكاراً لا يجدون بداً من إظهار إعجابهم بحقيقة التناغم والتوازن والنظام الإلهي المقدر في بنيتهم الجسمية، وعمل الأجهزة والأعضاء الداخلية الذي يتسم بغاية الدقة. إن انتقاد نظام التدبير الإلهي الذي لا يمكن حل أي سر من أسراره إلا بإذن الله ما هو إلا حماقة من العقل البشري. ومن يخوض في هذا المجال محروم العقل والإدراك والاطلاع حتى على سر واحد من أسرار التقدير الإلهي. وهؤلاء هم ضحايا الجهل الذين لا يميزون بين الخير و الشر، والخطأ والصواب، والحق والباطل.

ومن المعروف أن القضاء والقدر أمر مجهول. وهذا في الحقيقة لطف إلهي بالإنسان الذي يُعد كائناً فانياً. لأن الإنسان إذا عرف كل ما سوف يتعرض له من الأشياء أو الأحداث السلبية والإيجابية، فلسوف يستحيل عليه الاستمرار في الحياة. فتراه ينطوي على نفسه ويبتعد عن كل مقومات الحياة من الطعام والشراب والعمل، أي يدخل في يأس تام. إلا أن الله تعالى كان من لطفه وإحسانه أن أخفى على الإنسان مسائل القضاء والقدر، ولأجل ذلك فإن الإنسان يحمل بين جنباته الأمل حتى مع علمه بأنه يمكن أن يواجه الموت في أي لحظة من لحظات حياته، ولا يتوانى



بهذا الأمل عن الانخراط في نشاطات الحياة المختلفة. ويعد هذا الأمر نظاماً إلهياً بالغ العظمة والتكامل والذي يجعل العيش ممكناً في هذه الحياة الدنيا.

وإذا ما ذكرنا مسألة الشر، فيمكن القول أن أي شر ليس من مراد الله تعالى، أي إن الله سبحانه وتعالى لا يريد الشر، إلا أنه لضرورات الامتحان الذي يعيشه الإنسان في هذه الحياة فقد أذن الله تعالى لوقوع الشر أيضاً. ووضع الله تعالى شرط إذنه، وكأن إذنه تأشيرةُ مرور، وذلك مظهرٌ من مظاهر رحمته الواسعة بعباده، لأن هذه التأشيرة لا تأذن لكل شر بالحدوث، وتحفظنا من كثير من الكوارث والحوادث الجسيمة المادية منها والروحية سواء لاحظنا ذلك أم لم نلحظ. وإلا فإن أحداً لا يعلم كم سيضيف الإنسان إلى الآثام التي يرتكبها نتيجة وقوعه تحت تأثير غواية الشيطان والنفس. لأن الإنسان- بعلم أو بغير علم- يطلب الشر بقدر طلبه الخير. والله سبحانه وتعالى يبين هذه الحقيقة في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولا﴾[168]

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[169]

---

١٦٨ الإسراء: ١١.

١٦٩ يونس: ١١.

إن الإنسان كلما راقب نفسه أكثر فإنه يقف على معاني الآية الكريمة ويفهمها بشكل أوضح. فمثلاً عندما يحاول إنسان كاذب جعل مَن يخاطبه يصدِّق كلامه، يقول: «فلتعمى عيناي إن كنتُ لا أقول الصدق»، وهو في الواقع كذاب. إلا أن عيناه لا تعميان، فالله تعالى يعطيه فرصة أخرى كما بيَّنَ في كتابه الكريم، فتستمر عيناه بالإبصار على حالتها الطبيعية. وكذلك فإن كثيراً من الناس يتلفظون بعبارات تحمل الدعاء أو إرادة الشر بالنفس في مواقف جديَّة حازمة، مثل قول بعضهم:

«فلتُكسر يدي إن فعلت كذا؛ إن ارتكبت هذا الفعل فليُقطَع رأسي؛ إن كنت قد فعلت ذلك فلترى موتي!» وغيرها من عبارات طلب الشر للنفس. ولكن بعد مضي وقت معين تراهم قد أصبحوا في حالة مخالفة لما عزموا عليه بأقوالهم، وعلى الرغم من ذلك، لا تُكسر أيديهم، ولا تُجزُّ رؤوسهم، ولا يموتون. وهناك أمثلة لا تُعد ولا تحصى على هذه الحالات في حياة الإنسان، ففي هذه الحالات وأشباهها كأن الله تعالى لرحمته الواسعة بعباده لم يعطِ تأشيرة مرور لطلبات الإنسان التي تحمل الشر لنفسه، ولم يأذن بتحققها، وهذا ما عبرت عنه الآية التي ذكرناها في الأعلى.

ولذلك فإن أصحاب القلوب العارفة يقولون أمام سائر تجليات القدَر السلبية منها والإيجابية، وبإدراك تام بأن هذه من مظاهر رحمة الحق سبحانه وتعالى:



جميل كل ما يأتيني منك،

سواءٌ كانت وردة عطرة أم شوكة حادة.

سواء كانت حلة أم كفناً،

وسواءٌ كانت مصيبة أم إحساناً!

والله سبحانه وتعالى في الأساس قد أمر عباده أن يكونوا على هذه الحال، حيث قال في كتابه العزيز:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[١٧٠]

وما أجمل قول الشاعر:

اعلم أنه لا المصيبة من يد الأعداء،

ولا الإحسان من يد الأصدقاء

ففوِّض أمورك كلها إلى الله تعالى،

واعلم أن الأمر كله بيده صاحب الكبرياء!

لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١٧١]

١٧٠ التوبة: ٥١.

١٧١ يونس: ١٠٧.

والخلاصة أن صفاء القلب مخبأ داخل تجاويف الرضا بالقدر، ولا تجلب معاكسة القدر أي فائدة للإنسان.

وما أجمل كلام أحد الأولياء الصالحين إذ يقول:

«إن لم ترضَ بعطايا الله تعالى، فاهرب حيثما شئت أن تهرب بأمل الحصول على الراحة والنجاة، فسوف يعترض لك حادث هناك، وإن البلاء الذي كنت تفر منه سوف يأتيك ويصيبك من جديد»

«فلتعلم أنه ليس في هذه العالم الفاني زاوية من غير مصيدة. ولا نجاة ولا راحة سوى بإيجاد الحق تعالى في القلب، والالتجاء إليه والعيش في سكينته الروحية. انظر إلى ما حولك؛ ألا يسقط الذين يعيشون في أكثر الأماكن أمناً في هذا العالم الفاني، والذين يظنون أنفسهم الأقوى بين الخلق، ألا يسقطون في النهاية ضحية في مصيدة الموت؟»

«لا تنظر إلى كونك في مأمن من المصيدة الفانية! ولكن انظر إلى الالتجاء إلى الحق تعالى! فلو أراد لجعل لك السم شفاءً، ولو أراد لجعل لك الماء سماً!».





الأفعال الاختيارية:

لقد منح الحق سبحانه وتعالى عبادَه إرادةً إضافية وجزئية. والعبد يُسأل عن الأفعال التي يأتي بها من خلال استخدام هذه الإرادة، فإن كانت خيراً يكافأ عليها، وإن كانت شراً يعاقب عليها. إن خلقَ الشيء الذي يريده العبد، ومشيئته بتنفيذ إرادته في ذلك الطريق داخل ضمن صفة الخلق الثابتة لله تعالى. وبذلك فإنه يوجد في الأفعال إلى جانب صفة الخلق، صفة الفعل أيضاً، وهذه الصفة من صفات العبد. إلا أن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي العبد إمكانية تنفيذ كل فعل داخل ضمن نطاق قدرته على القيام به، ومن ذلك الأفعالُ التي يرغب بها العبد ولا يستطيع القيام بها.

وليس من الصواب الانشغال بالبحث في القدر أكثر من المعلومات الأساسية والضرورية التي ذكرناها. لأن القدر قفل محكم الإغلاق مفتاحه بيد رب العالمين وحده. وماهيته وكيفيته أمر فوق إدراك العبد، والوقوف على سره يمكن أن يُكرَم به بعض الخواص من أهل الجنة. لذلك فإن محاولة الإنسان فتح ذلك القفل ما هو إلا تجاوز لحدوده، فإن كان الأمر كذلك؛ فإنه من الجهل والغفلة قول بعض الناس: «أنا سيء القدر!» ثم إصدارهم لبعض الأحكام الارتجالية من تلقاء أنفسهم دون أدنى علم أو بصيرة محاولةً منهم للهروب من تحمل مسؤولياتهم في ميادين هذه الحياة، والتصرف بشكل مخالف للغايات التي خُلقوا من أجلها.



إن علم الله تعالى بالأشياء التي سوف تحدث في المستقبل مثل علمه بالأشياء الحادثة، فالأمران سيان بالنسبة إليه، لأن الزمن غير موجود عند الله سبحانه وتعالى. ولأننا نُعمِل الفكر في عالَم مرتبط بالزمن، فإننا نميل إلى التصور بأن علم الله تعالى بالأشياء المستقبلية هو تقدير منه لهذه الأشياء وكأننا مجبرين عليها. وليس هذا التصور إلا نتاج ضعفنا وعجزنا المتولد عن عدم قدرتنا على التفكير خارج حدود الزمن. بينما إذا رفع حجاب الزمن فسوف يُشاهد كل شيءٍ وكأنه يحدث في اللحظة ذاتها. ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان ينقل مشاهداته التي رآها في ليلة المعراج، كان من جهة يتحدث كمن يقف على عالم الأزل، حيث يقول:

«**عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»[172]

ومن جهة أخرى كان يشاهد العالم الأبدي، حيث وصف دخول عبد الرحمن بن عوف ﵁ إلى الجنة، بقوله:

«رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حَبْواً».

إن حقيقة خروج النبي عليه الصلاة والسلام من قيود الزمن ليلة المعراج التي أُكرِمَ بها حقيقة ثابتة بحق الله تعالى، لأن الحق سبحانه وتعالى منزه عن قيود الزمن.

١٧٢ مسلم: الإسراء، ٢٦٣/ ١٦٣؛ الحاكم: المستدرك، ٢، ٤٠٥.



لذلك إذا ما بحثنا في حجب ضعفنا وعجزنا فيما يتعلق بأمر الزمن، نرى أن الله تبارك وتعالى قد أعطى عباده إرادةً بقدر المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وكلَّفهم بمسؤوليات بقدر الإرادة الممنوحة لهم. فلو لم يكن الأمر كذلك لما حمَّلَ الله الرحمن الرحيم عباده أي مسؤولية، ولما حاسبهم عما إن كانوا قد عملوا وفقاً للأوامر والنواهي أو لم يعملوا. إن تقديره المسؤولية والحساب بحق عباده يظهر تقديره الإرادة والاختيار لهم أيضاً وبنفس المستوى الذي يمكنهم من القيام بالمسؤولية.

يخاطب مولانا جلال الدين الرومي أولئك الذين لا يرون هذه الحقيقة، فيقول لهم:

«إذا أظهر العبد التسليم للقضاء والقدر، فإن مكافأته هي نيل رضا الله تعالى. وإن القضاء والقدر في نظر الذين ينالون هذا الرضا ذو مذاق حلو مثل حلاوة السكر؛ ويزرع الابتسامة على وجوههم»

«إن سرت معوجاً فإن القلم يكتب بشكل معوج، وإن سرت مستقيماً فإن السعادة تستقيم»

«إذا قبض الشرطي الص، فإن اللص يقول له: (يا سيدي! إن ما اقترفته يداي هو حكم الله تعالى وتقديره علي.) فيجيبه الشرطي بقوله: (نعم يا سيد؛ إن ما فعلتُه أيضاً من حكم الله تعالى وتقديره. افعل الخطأ ثم ألصقه بالقدر، إن هذا ليس بعمل العاقل أبداً.)»

«وخلاصة القول أن الشيطان يدل الإنسان على الشر، وإن الروح تدله على الخير. ولو لم تكن قدرة الاختيار، لما كان هناك سعي!»

«إن لدينا قدرة خفية على الفعل كما نريد أو نختار. عندما تظهر في القلب فكرتان مختلفتان، أي ضد بعضهما، فانظر كيف تتدخل هذه القدرة بينهما! ووقتها يُعمَل التفكيرُ في الأهم منهما، فتقول: (تُرى أيهما أفضل لي؟) ثم تتخذ قرارك بشأن أحدهما! فهل من أحد يوجهك في هذا المجال، ولو لم يكن لديك الاختيار، فهل كان الأمر يجري على هذا النحو؟!»

«إن الاعتقاد بالجبر من الناحية العقلية غفلة عظيمة. والمعتقد بالجبر ليس إلا منكر لأحاسيسه ومشاعره. فالجبريون يفعلون الأفاعيل في هذه الدنيا بواسطة العقل، ويرسمون الخطط والمشروعات، ثم لا ندري كيف ينكرون العقل؟ فلو لم يكن لدى الإنسان إرادة واختيار، فهل كان سوف تظهر لديه عبارات مثل؛ هذا جيد، وهذا رديء، وهذا جميل وذاك قبيح ... إلخ؟ أيها الصاحب! حتى الحيوان لديه إدراك بقدر حسه وقدرته. لكن من المؤكد أن فهم ماهية ذلك أمر في غاية الدقة!»

«لو لم يُمنَح الناس الاختيار، ألم يكن من الواجب طلبك الشفاء من الله مباشرة بدلاً من الطبيب؟ فانظر كيف يحملك المرض على التصديق والإقرار بالاختيار!»



«لو لم يكن الاختيار، فما الذي تعنيه مخططاتك التي لا تعرف لها نهاية كأن تقول: (غداً سوف أفعل كذا، وعليَّ فعل كذا، ويجب أن أتجنب فعل كذا..) وهل يمكن الإقدام على هذه الخطط بلا اختيار؟»

«فيا أيها الجبري! إنك عندما تقول: (ليس لدى العبد اختيار) فإنك في الظاهر تهدف إلى نفي العجز عن الحق سبحانه وتعالى، لكن ألا ترى بأنك بفعلك هذا تنكر سر جعل الحق تعالى العبدَ مسؤولاً، وأنك تنسب إلى الله تعالى صفات البشر، مثل عدم العلم، وعدم معرفة ما يفعله! فهل يظلم خالق العالَم عباده بمطالبتهم بشيءٍ ثم حرمانهم مما يمكنهم من الوفاء بذلك الشيء؟ اعمل عقلك وفكِّرْ لمَ أمر الله تعالى عباده بـ(افعل هذا ولا تفعل ذاك) وافهم الحكمة من ذلك! إن توجيهه لهذه الأوامر والنواهي هو بحد ذاته علامة دالة على القدرة على الاختيار»

«عد وانظر إلى عالم نفسك؛ فلو لم يكن هناك اختيار غير عند الله سبحانه وتعالى، فلمَ تغضب من اللص الذي يسرق مالك. ولم تعرف أن فلاناً عدو ثم تناكفه ليل نهار؟ وكيف لك أن تختم ظهور من لا اختيار لهم بختم الذنوب والأخطاء؟ إذاً هناك اختيار! وإلا فما ضرورة السجون والزنازين!»

هناك أمر آخر لا بد من الإشارة إليه هنا:

إنه لمن الجهل المبالغة في إيلاء الأهمية للقدرات الممنوحة للعبد من ربه سبحانه وتعالى إضافة، إلى الإرادة والاختيار الذي يمكِّن من استخدام تلك القدرات. لذلك عندما يزداد العرفان أكثر من العلم فإن الإنسان يفهم بكل بساطة مدى صغر حجم الاختيار والإرادة البشرية أمام الإرادة الكلية لله تعالى. وفي النهاية فإن الإرادة الجزئية ـ التي هي جزء صغير ـ لدى العباد الذين وصلوا إلى مرحلة الفناء في الله تصغر ثم تصغر، حتى لتبدو وكأنها معدومة. وإن بعض الكلمات التي صدرت عن بعض العارفين والتي تصورها الكثيرون بأنها نوع من الإنكار للاختيار والإرادة البشرية، في الواقع ما هي إلا من مظاهر هذه الحقيقة التي أشرنا إليها. إذ إنهم لا يبقون أنفسهم محكومين بشكل مطلق للإرادة البشرية، وإنما يرون بأنها صغيرة جداً لدرجة الانعدام أمام الإرادة الإلهية. إن الإرادة الجزئية لدى السائرين في طريق الفناء في الله والذين جسدوا أنموذج عباد الله بكون «عينهم باصرة، ويدهم قابضة»، تذوب مثل ذوبان الشمعة وخفوت لهبها، ثم انعدامه تحت أشعة الشمس. والمثال الآتي يعبر عن هذه الحال:

انتشرت شائعة مفادها أن الشيخ محمد نور العربي ينكر الإرادة البشرية. وسمع السلطان عبد الحميد خان بهذه الشائعة، فأصدر أمراً بإحضار الشيخ إلى قاعة الدروس وأراد أن يستفسر عن المسألة



منه بالذات، ولما سُئِلَ الشيخ محمد نور العربي عن طبيعة المسألة، أجاب بقوله:

«إنني بالمعنى العام لم أقل بعدم وجود الإرادة الجزئية ولم أنكرها. ولكني قلت بأن هذه الإرادة لدى بعض الناس بحكم المعدومة، أي غير موجودة. وذلك لأن كبار أولياء الله تعالى يعيشون على الدوام في إدراك تام بأنهم في الحضرة الإلهية، فلذلك ليس للإرادة الجزئية لديهم نصيب في الظهور والتحقق. وبناءً على ذلك فإنهم لا يتحركون وفقاً لإرادتهم، وإنما يتحركون كتابعين لإرادة الحق سبحانه وتعالى الذي يسكنون في ملكه. وإلا ـ أي إن لم يفعلوا ذلك ـ فإنهم يرتكبون فعلاً مخالفاً للتأدب مع الحق سبحانه وتعالى، ويقعون في التقصير بحق مولاهم ﷻ. فمثلاً؛ نحن الآن جالسون في حضرة السلطان، فإن قيل لنا: (تعال، جئنا) وإن قيل: (انصرف، انصرفنا). فعلى الرغم من وجود إرادتنا إلا أننا لا نستطيع استخدامها وفق ما نريد بسبب الإحاطة بها من قبل الإرادة السلطانية. بينما انظروا إلى الغافلين والمخلوقات الأخرى في الخارج، ترونها طليقة وفي غاية الحرية في إراداتها.»

وخلال تعمقنا في هذه الأصول الأساسية تواجهنا مسائل كثيرة والتي بدورها تحتاج إلى الشرح والإيضاح، إلا أننا لن نتقدم في البحث أكثر من ذلك وسوف نتوقف هنا لأن مناقشة تلك المسائل



والبحث فيها يحتاج إلى ملكة كبيرة في علم الكلام. إن أصل المسألة باختصار هو:

إن العبد صاحب إرادة منحها إياه الله سبحانه وتعالى. ومع أن إرادة الله تعالى موجودة في كل فعل أو تصرف، إلا أن رضاه موجود في الخير فقط. إن مهمة أي مدرِّس تزويدُ التلاميذ بالمعلومات المطلوبة وتجهيزهم بها ثم الانصراف من قاعة الدرس، فإن لم يعمل التلاميذ ولم يجتهدوا فلا يتحمل المدرس مسؤوليتهم. وكذلك الأمر بالنسبة للطبيب فإن مهمته تتجسد في تأمين الشفاء لمريضه، فإن لم يتبع المريض التعليمات الطبية التي يبينها له في الوصفة الدوائية، فإن المريض هو من يتحمل مسؤولية التطورات والنتائج السلبية التي تترتب على مخالفته لتعليمات وصفة الطبيب، ولا يمكن اتهام الطبيب بأي جرم على الإطلاق.

لذلك لا يمكننا التهرب من المسؤولية متذرعين بالقدر، ، لأن المقدَّرَات التي تظهر هي ما أردناه بإرادتنا واختيارنا، وبالتالي لا تسقط عنا المسؤولية.

وقول الإنسان الذي ابتعد عن العبادة أو سلك طريق السوء والخطيئة : «ماذا أفعل، فهذا قدري!» ما هو إلا دليل الغفلة والجهل المطبق. فالله سبحانه وتعالى يكرم الذين يريدون إقامة الصلاة بتهيئة الأسباب التي تمكنهم من أدائها؛ ويضع الأسباب المانعة من أدائها في طريق من لا يريدون إقامة الصلاة.



وأما إبداؤنا للأعذار عن المعاصي التي نقترفها فما هو إلا بهتان بحق القدر، وبعد عن العقل والمنطق، وتهرب من المسؤولية.



فكلمة الشهادة إذاً تعبر عن الإيمان بكل المبادئ والأسس التي ذكرناها إلى هنا، وكل إنسان يصدق بقلبه كلَّ ما تتضمنه هذه الكلمة، ويقر بها بلسانه يصبح مؤمناً حقيقياً.

إن الاعتقاد بأن كلمة الشهادة ألفاظ ينطق بها المرء بلسانه وإهمال معانيها الحقيقية ما هو إلا غفلة عظيمة. وأصحاب القلوب الكاملة التي تشعر بعظمة حقيقة الشهادة يفنون أعمارهم في سبيل أن يكونوا جديرين بتلك المشاعر السامية التي يشعرون بها، إذ يجعلون أعمارهم تسبيحاً دائماً لله تعالى، ويبذلون أقصى جهدهم لكي لا يغفلوا عن الحق سبحانه وتعالى ولو طرفة عين. ولا ينسون نكران الذات واستصغار النفس فيصبحون في حال من الترقي الدائم. يقول محمد أسعد أربيلي الذي يُعد من عباد الله الخواص الذين احتلوا هذا المقام والمكانة الرفيعة:

«ما زلت أحاول إكمال أصل الإيمان، وأعمل جاهداً على أن أنطق بكلمة التوحيد هذه بصدق. لأنه إن وجد في القلب مطلوب غير الله، أو كما يُقَال بلسان الصوفيين: إن وجد في القلب وثن [أي ميل مفرط نحو الدنيا]، فمن الصعب حينها النطق بقول «لا إله إلا الله». ولا يضمن أحد أن يكون إيمانه مقبولًا ووسيلة لبلوغ مرضاه الله»



لهذا ينبغي أن يكون هناك وقوف على أسرار كلمة التوحيد والعمل بمقتضاها من أجل التلفظ بها بمعناها الحقيقي. وترديد كلمة التوحيد والنطق بالشهادة باللسان مع عدم التعمق في خفاياها لا يُكسب العبد مقصدها الأصلي، وإن كان لا يخلو من الفائدة. وأما الشهادة التي تنطق بها القلوب الحية فإنها تمهد السبيل أمام تلك القلوب للعبور إلى ما وراء الأفهام والإدراك للوصول إلى حسن الثواب.



خطبَ النبي عليه الصلاة والسلام في أصحابه، فقال:

«**من قال: لا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة!**».

فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا، فسره لنا. فقال رسول الله ﷺ: «**حب الدنيا طلباً لها وإتباعاً لها**»[١٧٣]

وقال رسول الله ﷺ في حديث شريف آخر:

«**ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً، إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبَ الكبائر**»[١٧٤]

ولأجل ذلك كان لزاماً اجتناب اقتراف الذنوب لأن رسول الله ﷺ قال في حديث آخر:

١٧٣ إحياء علوم الدين، ٤، ٢٢١.

١٧٤ الترمذي: الدعوات، ١٢٦/ ٣٥٩٠.



«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [١٧٥]

ولا تؤثر كلمة التوحيد في قلوب مثل هؤلاء الناس، وبناءً عليه على الإنسان تجنب أربعة أشياء تميت القلب، وهي:

١- مجادلة الحمقى.

٢- كثرة اقتراف المعاصي.

٣- كثرة مخالطة النساء من غير المحارم والتحدث معهن.

٤- مجالسة الميتة قلوبهم.

إن الأمنية الكبرى للشيطان التسلطُ على قلب الإنسان، فإن انشغل القلب بذكر الله، فلا يقرب منه الشيطان، وهذا الأمر هو ما يغيظه. أما إن كانت حال الإنسان على العكس من ذلك، أي إن كان قلبه بعيداً عن ذكر الله تعالى، فإن ذلك يفتح الباب واسعاً أمام الشيطان ويسهِّلْ من تسلطه عليه.

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ...﴾ [١٧٦]

١٧٥ المطففين: ١٤. الترمذي: التفسير، ٨٣/ ٣٣٣٤.

١٧٦ الحديد: ١٦.

إن الإنسان البعيد عن ذكر الله والخاضع لأهواء النفس مثل الجوهرة التي فُقِدَت في الطين. ومواجهة النفس تعني تنقية العبد لذاته من الطين أي السلبيات المتراكمة، وإخراج للجوهرة الكامنة في كيانه، وإن القلوب التي نالت هذه التزكية قد صارت محل نظر الله القائل في كتابه العزيز: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾[١٧٧]

يقول أبو علي الدقاق:

«ما إن يقول العبد (لا إله) حتى يُنقى قلبه من الأدران كما تُنظف المرآة المغبرة بمنديل مبلل بالماء. وحينما يتبعها بـ (إلا الله) يبدأ انعكاس نور الله تعالى على ذلك القلب الذي صار نقياً من كل شائبة. وفي هذه الحال تذهب كل الجهود التي بذلها الشيطان سدى».

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى:

«بلغنا أن إبليس قال: سوَّلت لأمة محمد المعاصي فقطعوا ظهري بالاستغفار، فلما رأيت ذلك تمحَّلت لهم فسوَّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها.

فيقول الحسن البصري:

- هذه الأهواء والبدع التي يظنها الناس من الدين، وما هي من الدين في شيء».

---

١٧٧ الأعلى: ١٤.



ويقول وهب بن منبه:

«اتقِ الله أيها الإنسان! ما لكَ تلعن الشيطان إن كنت مع الناس، وإذا ما اختليت بنفسك أطعته، وألقيت إليه بالمودة».



ذات وجهين:

إن كلمة الشهادة ذات وجهين. فالوجه الأول هو التوحيد، أي الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته؛ وأما الوجه الثاني فالتصديق بعبودية النبي عليه الصلاة والسلام ورسالته.

ويتحقق الإيمان من خلال تثبيت هذين الوجهين في القلب. وبناءً على ذلك، فلا الإيمان بالله تعالى وحده كاف، ولا الإيمان برسوله ﷺ وحده، لذلك على الإنسان الابتعاد عن الغفلة، وإدراك أهمية الإيمان بنبوة رسول الله ﷺ إلى جانب الإيمان بالله ﷻ.

ونورد فيما يأتي آية من عدة آيات تتحدث عن هذا الأمر، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿... **وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [١٧٨]

فالحقيقة المحمدية تُعد مرآة ظهور مملكة المحبة، ونور المحبة الذي خيَّم بظله على الوجود كله صار وسيلة لتكوين السماء والأرض. فقد قال عنه الحق سبحانه وتعالى: «حبيبي»، وبذلك

١٧٨ الأحزاب: ٧١.



فقد احتل أعلى منزلة فوق سائر المخلوقات. هذه المنزلة الرفيعة نالها منذ الأزل، حيث ذكر الحق سبحانه وتعالى اسمه الشريف في الأزل، وقرن ذكره بذكر اسمه، ونقشه في اللوح المحفوظ، بعبارة:

«لا إله إلا الله محمد رسول الله»

حتى إن سيدنا آدم عليه السلام بعد أن هبط إلى الدنيا بسبب الزلة التي اقترفها في الجنة رأى هذه العبارة مكتوبة في السماء، وقد غُفرت له زلته لطلبه العفو من الله تعالى متوسلاً بسيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقال له المولى عز وجل:

«يا آدم! إنه لأحب الخلق إلي ادعني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك». [179]

إن الحق سبحانه وتعالى الذي منح هذا الشرف السامي لحبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام يؤكد هذا الشأن العظيم والمنزلة العالية التي نالها في القرآن الكريم، إذ يقول:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [180]

ويفسر بعض علماء التفسير هذه الآية بقولهم:

«يا أيها الرسول! عندما أُذكَر في كلمة التوحيد فإنك تُذكر معي أيضاً!»

---

١٧٩ الحاكم: المستدرك، ٢، ٦٧٢/ ٤٢٢٨؛ البيهقي: الدلائل، ٥، ٤٨٨ – ٤٨٩.

١٨٠ الشرح: ٤.

إن ذكر كلمة التوحيد يبدأ بلفظ «لا إله»، أي يبدأ بإخراج الآلهة من القلب...

وإن ذكر هذه الحالة في الآية الكريمة بأسلوب:

﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا**﴾[181] فيه وقاية للقلب من الخطر والهلاك.

وبعد هذا، أي بعد تطهير القلب من الهوى والآلهة المجازية، يأتي لفظ «إلا الله». وهذا تعبيرٌ عن ملء قصر القلب الذي نُقِّي من كل الأغيار بنور وحدانية الحق سبحانه وتعالى.

وترديد القسم الثاني من كلمة التوحيد المتمثلة بـ «محمد رسول الله» تعبيرٌ عن وضع محبة النبي عليه الصلاة والسلام في مكانها في القلب، وكل قلب مخلص يُوفَّق إلى هذه الأسرار الجليلة يصبح عاشقاً له، ويعيش حياةً قائمةً على المحبة والاستقامة في ظلال أنوار إرشاد النبي على قدر قوة العشق لديه ، لينضم إلى قافلة الذي بلغوا السعادة الأبدية.

ولأجل ذلك فإن كلمة الشهادة؛ أي الجملة التي تعبر عن وحدانية الله تعالى وأن النبي ﷺ عبده ورسوله، إنما هي الجملة الأولى التي يمكن أن تجعل العبد من أهل الإيمان إن صدَّقَ بها بقلبه، وأقرَّ بها بلسانه، وهي أيضاً الركن الأول في الإسلام.

---

١٨١ الفرقان: ٤٣.

لقد خلق ربنا سبحانه وتعالى الكون والقرآن والإنسان وفق مقتضيات أسمائه وصفاته القدسية، ووضع فيها تجليات قدرته ونظامه. إن عالم الوجود هذا المخلوق في ترتيب دقيق ونظام رائع، قد صار مدرسةً للتوحيد عظيمة، وثمة لوحة معلقة في المدخل الرئيسي لهذه المدرسة ونراها في كل ذرة في الأرض والسماوات، مكتوب عليها:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾

وثمة رابطة أُلفة بين الخالق والمخلوقات، لذلك فإن كل ذرة من المخلوقات قد تشربت بنور الحق، وأخذت نصيباً من معرفة الله تعالى، ومن المحبة الإلهية بقدر استعدادها وقدرتها، والنصيب الأكبر في هذا المجال ميسَّر للإنسان، لأن الإنسان مرشح لمرتبة الكمال في الوجود.

إن الإنسان مجهز بالمعلومات الإلهية العظيمة، وبالحقائق اللاهوتية الكثيرة. وهو مجبول على الملذات الدينية، لذلك فإن الاعتقاد بالله تعالى قد بدأ مع بداية خلق الإنسان وسيستمر إلى يوم القيامة. وأما الإلحاد فسيبقى في الحضيض، فبها فسد بعض الناس بعد أن تخبطوا في الأوهام والخيالات، كما أنهم فقدوا توازنهم العقلي والعاطفي في خضم الشهوات والأهواء.

يقول الله تبارك وتعالى:



﴿... وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١٨٢]

وإذا تجلى جوهر الذكر في القلب فعندها تصبح العبودية لله تعالى، ويتحقق المعنى الذي ذكره الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إذ قال:

﴿...إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[١٨٣] فيتشكل عندئذ الإيمان الحقيقي. وبناءً على أهمية هذا الأمر، يقول رسول الله ﷺ:

«**جددوا إيمانكم فإن الإيمان يبلى كما يبلى الثوب**». فقالوا: ما نقول يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا: لا إله إلا الله**»

وأما إن لم يتجلَّ جوهر الذكر في القلب وبقي فقط على اللسان، فإن العبودية تصبح للأهواء والشهوات، أي للميول النفسية، ويقول الله تبارك وتعالى في مَن وقعوا في هذه الحال:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾[١٨٤]

إذاً؛ ينبغي أن ترفعنا كلمة الشهادة من مستنقع الأهواء والشهوات، وأن تكون وسيلة لتخلقنا بأخلاق النبي ﷺ الكريمة، وإلا لتعذر نيل فيوضاتها ومكافآتها.



١٨٢ التوبة: ٣٢.

١٨٣ الأنفال: ٢.

١٨٤ الفرقان: ٤٣.

يروى أن رجلاً ممن لم يتحلَّ بأخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام قد رأى في منامه ذات يوم سيد العالمين عليه الصلاة والسلام لا يلتفت إليه، ولا يظهر له وداً، فسأله الرجل بحزن:

- يا رسول الله، أمستاءٌ مني أنت؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- لا.

فقال الرجل:

إذاً؛ لِمَ لا تلفت إلي؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

- أنا لا أعرفك حتى ألتفت إليك!

فقال الرجل:

- وكيف ذلك يا رسول الله؟ فأنا واحد من أمتك.

[يقول العلماء: إن النبي عليه الصلاة والسلام يعرف الفرد من أمته أكثر من معرفة أمه له]

فقال له رسول الله ﷺ:

- أجل! ولكني لا أرى فيك شيئاً من الأخلاق الحسنة. ولم تصلني منك صلاة وسلام أبداً، واعلم بأني أعرف المرء من أمتي بتخلقه بأخلاقي»



فلما استيقظ الرجل المؤمن من منامه فزع فزعاً شديداً، وسارع إلى التوبة إلى الله تعالى، وتمسك بأخلاق النبي ﷺ الحميدة، وصار يشغل نفسه كثيراً بالصلاة عليه. وبعد مدة من الزمن رأى الرسول ﷺ في منامه مرة أخرى، فقال له رسول الله ﷺ في هذه المرة:

«الآن أعرفك، وسوف أشفع لك...»

إنه المخلوق العزيز الأجدر بالمحبة بين كافة الخلق بكل صفاته، إنه خير مَن في الورى، وهو أرحم بالإنسانية مِن سائر مَن يتباكون ويذرفون الدموع عليها، وهو المرشد ودليل الهداية الوحيد. هو الذي أخرج مَن سقطوا في ظلمات سجون الوحشية مِن الذين كانوا يئدون بناتهم إلى نور الإيمان، فحوَّلهم إلى أحباب له، وعلمهم الكتاب والحكمة، والأسرار الإلهية في الكون. إن تفضيله على كل شيءٍ في الكون، ومحبته بعشق ووله وحب لا نظير له لهوَ من كمال الإيمان، وإن قمة هذه المحبة تتبين في الحديث الشريف، حيث يقول رسول الله ﷺ:

«**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»[١٨٥]

إن هذا الحديث الشريف فيه إشارة إلى الأهمية الكبيرة لمحبة النبي ﷺ من أجل الوصول إلى مرحلة كمال الإيمان، فأبواب

١٨٥ البخاري: الإيمان، ٨/ ١٥.

الفيوضات والكشوفات الربانية مغلقة في وجه من هم بعيدون عن هذه المحبة، إذ إن بذور العشق لا تنبت وتنمو إلا في تربة المحبة، فهو عليه الصلاة والسلام منبع البركة والفيوضات التي تتدفق إلى القلب. وما أكثر القلوب القاسية والمتحجرة التي حولتها محبته إلى صفاء ونقاء الجواهر اللامعة البراقة، ورفعتها إلى أعلى عليين.

فكما أن القمر الذي يقتبس نوره من الشمس يُعد دليلاً على وجودها، فكذلك الأنبياء والأولياء الذين أُنيروا بالنور المحمدي هم شهداء له، فما أجمل القلب الذي ينبض بقول:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

فيتردد صداه في الوجدان، مثل المرآة التي يسلط عليها ضوء ساطع، فيعيش صاحب هذا القلب في طمأنينة وسعادة.

إن حال بلال رضي الله عنه الذي عاش هذه اللذة مليئة بالعبر:

إذ لم يكن لبلال رضي الله عنه في هذه الدنيا غصن شجرة يتمسك بها، ولا قريب يلجأ إليه، ولا رفيق يقاسمه آلامه ويبث إليه همومه. إنما كان مجرد عبد فقير وضعيف بلا حول ولا قوة، ولكن مرَّت الأيام حتى جاء يوم تشرف فيه بنور الإيمان، وصار بالإيمان الذي دخل قلبه والأحوال التي عاشها فيما بعد من أجل المحافظة عليه، أي الآلام والمآسي الكثيرة التي تحملها في سبيل كلمة التوحيد، مثالاً حياً في الكفاح والصراع في سبيل الإيمان لجميع المؤمنين الذين سوف يأتون من بعده إلى يوم القيامة.



لقد رأى وجه رسول الله ﷺ ونوره، فأُنير به ودخل رياض محبته، وكأنه صار بكل وجوده وكيانه جزءاً من النبي ﷺ. إلا أن المحرومين من النور الإلهي قد أضجعوه- لإيمانه- على الرمال الملتهبة بحرارة شمس الصحراء الحارقة، وأنزلوا به أشد أنواع العذاب دون شفقة ولا رحمة، حتى سالت الدماء القانية من جلده الأسود، وقال له الغافلون:

- أيها العبد الذميم، عد إلينا، تنج بنفسك من العذاب!

إلا أن بلالاً ؓ زأر مثل أسد جريح وهو ملقى على بحر الرمال الحارقة وصرخ في وجوههم بكلمة التوحيد بكل ما أوتي من قوة.

فداوم أولئك الطغاة الذين استشاطوا غضباً وغيظاً على ضربه وتعذيبه، وظلوا يضربونه، ويضربونه... إلا أن ذلك لم يشفِ غليلهم وحقدهم، فربطوا عنقه بالحبل وأخذوا يجرونه في أزقة مكة وأحيائها، لكنهم لم ينالوا من عزيمة بلال ؓ الذي تترس بدرع محبة الله تعالى ومحبة رسوله عليه الصلاة والسلام على الرغم من كل أنواع الأذى والألم والعذاب الذي أذاقوه. وكأنه لم يكن يشعر بما يفعلونه به، فروحه كانت تمتلئ وتشعر بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله الكريم ﷺ فحسب. وكان قلبه واسعاً فسيحاً بقدر سعة الدنيا، بينما كان في العالم المادي بحالة يُرثى لها إذ ليس هناك حتى كوخ صغير يضع فيه رأسه وجسمه الشاحب المنهك.

فهذه محبة بلال ؓ رفعته من العبودية ووضعته على عرش القلوب، فصار مؤذن رسول الله ﷺ، وقد كانت محبة رسول الله ﷺ

وعشقه في قلبه وعلى شفتيه حتى آخر نفس من حياته، إذ قال في اللحظات الأخيرة بابتسامة تعلو محياه:

ابشروا، ابشروا! فإني مسافر إلى رسول الله ﷺ ...

إذاً حتى يمكننا بلوغ سر الحديث الشريف القائل:

«**المرء مع من أحب**»[١٨٦]

ينبغي أن نطبق الحقيقة التي تشير إليها الآية الكريمة:

﴿... **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[١٨٧]

وأن تكون قاعدتنا على طريق السير نحو الخلود، وذلك لأن القسم الأول من كلمة التوحيد التي تُعد الركن الأول للإسلام يشير إلى ضرورة عبادة الله تعالى بكل إخلاص وخضوع، وأما القسم الثاني فيعني السير على نهج النبي وسنته في سبيل تحقيق العبودية الخالصة والصادقة.

ولا بد من مراعاة الأمور الآتية حتى تأخذ كلمة التوحيد مكانها في القلب:

١- أن يكون القلب مع الله سبحانه وتعالى.

---

١٨٦ البخاري: الأدب، ٩٦.

١٨٧ الحشر: ٧.



وهذا لا يمكن تحقيقه إلا بذكر الله تعالى، يقول المولى ﷻ في القرآن الكريم:

﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[188]

فالقلب ليس مادة فقط، أي ليس عبارة عن قطعة من اللحم في صدر الإنسان، وإنما هو مركز ملكة المشاعر والأحاسيس، والذكر الذي ورد في الآية الكريمة لا يعني تكرار اسم الله تعالى باللسان فقط، وإنما هو ذكره بمحبة المحب لمحبوبه، وحضور الله تعالى في القلب، إذ لا يطمئن القلب إلا بذلك، حيث يكتسب الرقة، ويمضي في طريق بلوغ مرضاة الله تعالى؛ فسعادة بلوغ مرضاته سبحانه وتعالى تظهر بهذه الصورة.

إن القلوب التي بلغت هذه الحال تكون دائماً مفتونة بالجمال الإلهي، وتشعر بأن كل مظاهر الجمال التي تتراءى أمام العين في الكون إنما هي ذرات منعكسة عن الجمال الإلهي، فيعيش أصحابها في حالة عشق عجيب لجماله.

٢- زيادة محبة رسول الله ﷺ في القلب، ثم محبة مَن يجب محبته وكره مَن يجب كرهه.

إن المحبة ضرورية للمرء حتى يصبح مؤمناً صالحاً، فالمحبة تتحول العبادات والأخلاق الحسنة إلى حال من اللذة والفيوضات،

---

١٨٨ الرعد: ٢٨.

وتتغير طبيعة نظرة الإنسان إلى الكون. وبالمحبة يميز الإنسان أسرار المشاهد والمناظر التي تُرتسم في الأفق أثناء شروق شمس الصباح وغروبها في المساء، فإذا كان الإنسان يُذهَل إذا ما وقف أمام لوحة فنية لرسام ماهر موهوب، فكيف لا يشعر بالمناظر والمشاهد الأخَّاذة المنتشرة في الكون التي لا تفارق عينيه طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم، والتي رُسمت بفرشاة القدرة الإلهية ولُوِّنَت بأبهى الألوان... وما له لا ينظر كيف خُلِقَت الزهور بألوانها البرَّاقة من التراب...؟

والخلاصة أن الإنسان إذا ما نظر إلى نفسه وإلى الكون بعين مليئة بالعشق والمحبة فإنه لن يجد مناصاً من الدهشة والحيرة أمام الخوارق والتجليات الإلهية الكامنة في كل من نفسه والكون من حوله.

والفوز الأعظم بعد نعمة عظيمة مثل نعمة الإيمان إنما هو إدخال الإنسان نفسه في تربية معنوية توصله إلى محبة الله تعالى وإلى محبة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام.

٣- محبة الصالحين والتشبه بهم، واتخاذ عباداتهم ومعاملاتهم مثلاً أعلى.

يقال في علم النفس: «تسري صفات الشخصيات القيادية إلى غيرهم»، أي إن أحوالهم تسري إلى الآخرين، فالصحابة الكرام الذين كانوا يعيشون في جاهلية صاروا من خير الناس في الدنيا



من خلال الطاقة والروحانيات التي سرت إليهم من النبي ﷺ، أي بالفيوضات النبوية التي نالوها من مجالستهم المستمرة للنبي ﷺ.

حتى إن كلب أصحاب الكهف قطمير قد نال منزلة متميزة بين المخلوقات لمصاحبته للصالحين من عباد الله تعالى. ويعرض القرآن الكريم هذه اللوحة أمام أعين البشر ليعتبروا ويتعظوا بها.

٤- معاملة المخلوقات بالرأفة والرحمة لوجه الله تعالى.

إن الله ﷻ يلقن عباده الرحمة من أجل أسمائه «الرحمن والرحيم». لذلك فإن العبد المحب لربه ﷻ يعامل مخلوقاته بمنتهى الرأفة والرحمة. حتى إنه إذا أراد أن يقتل حيواناً خطيراً على الإنسان مثل الأفعى فإنه مأمور بأن يحسن قتلتها دون أن يسبب لها الكثير من الألم.

فهذه هي مظاهر كلمة التوحيد التي تُعدُّ مفتاح الجنة، أي إنها الأسنان الدقيقة للمفتاح الذي يفتح القفل.

قيل لوهب بن منبه رضي الله عنه:

أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟

فقال:

«بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»[١٨٩]



١٨٩ البخاري: الجنائز، ١.

أثقل كلمة في الميزان

قال رسول الله ﷺ:

«إن الله سيُخلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول:

- أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول:
- لا يا رب!

فيقول الله تعالى:

- أَفلكَ عذر؟ فيقول الرجل:
- لا يا رب!

فيقول الله ﷻ:

- بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم.

فتُخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فيقول الله تعالى:

- احضر وزنك!

فيقول الرجل:

- يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فيقال له:

- إنك لا تُظلَم!



فوضعت السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، عندها طاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيءٌ» [190]

ولذلك فقد قال رسول الله ﷺ في حديث شريف آخر:

«**أفضل الذكر (لا إله إلا الله)، وأفضل الدعاء (الحمد لله)**». [191]

وذلك لأن كلمة التوحيد جذع الإيمان، فكلما زاد من تكرارها وذكرها، فإن الإيمان يزداد كمالاً واستقامة.

لقد جاء في الحديث الشريف:

«قال موسى عليه السلام:

- يا رب! علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به.

فقال الله تعالى:

- يا موسى قل: لا إله إلا الله!

قال موسى عليه السلام:

- يا رب كل عبادك، يقول هذا.

فقال تعالى:

- قل: لا إله إلا الله!

قال موسى عليه السلام:

- لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئاً تخصني به!

---

١٩٠ الترمذي: الإيمان، ١٧/ ٢٦٣٩.

١٩١ ابن ماجه: الأدب، ٥٥/ ٣٨٠٠.



فقال الله ﷻ:

- ياموسى لو كان السماوات السبع، وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله»[192]

ويُروَى أن سيدنا سليمان عليه السلام كان يمر ذات يوم في بعض من أراضي مملكته على رأس جيشه العظيم المؤلف من الجن والإنس، حتى إذا وصل إلى واد تسكنه النمل، رأى كبيرُ النمل ورئيسهم سليمانَ وجنوده قادمين نحو مسكنهم، نادى في النمل قائلاً:

- يا أيها النمل! ادخلوا مساكنكم؛ لئلا يحطمكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم! إن مملكة سليمان عليه السلام مملكة في غاية القوة والعظمة! فلسوف تُسحقون تحت أقدام جيشه، فأسرعوا إلى مأواكم!

فسمع سيدنا سليمان عليه السلام كلام كبير النمل، إذ كان الله تعالى قد أكرم سيدنا سليمان بمنطق الطير والعلم بلغة الحيوانات، ففهم قوله، وقال:

- لا، إن مملكتي مؤقتة وزائلة! وإن حياة النبوة محدودة، وأما السعادة التي تجلبها كلمة التوحيد فأبدية ولا نهاية لها!

وأما بخصوص الذكر الجماعي لكلمة التوحيد، فيروي الإمام أحمد حديثاً عن شداد بن أوس رضي الله عنه:

١٩٢ الحاكم: المستدرك، ١، ٧١٠/ ١٩٣٦.



«إنا لعند رسول الله ﷺ إذ قال:

- **هل فيكم غريب؟** [يعني أهل الكتاب من اليهود والنصارى]. قلنا:

- لا يا رسول الله!

فأمر رسول الله ﷺ بغلق الباب فقال:

- **ارفعوا أيديكم فقولوا: «لا إله إلا الله»**

يقول شداد بن أوس رضي الله عنه:

- فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده، ثم دعا بقوله:

- **«الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد!»**

ثم قال رسول الله ﷺ:

- **«أبشروا! فإن الله قد غفر لكم»**[١٩٣]

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

«لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقاً أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذباً حقنت دمه، وأحرزت ماله، ولقي الله عز وجل غداً يحاسبه»[١٩٤]

١٩٣ الحاكم: المستدرك، جـ١، ٦٧٩/ ١٨٤٤؛ أحمد: مسند، ٤، ١٢٤.

١٩٤ جمع الفوائد: ١، ٢٣.

وفي حديث شريف آخر يقول رسول الله ﷺ:

«أبشروا، وبشروا من وراءكم، أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً بها، دخل الجنة»[195]

فعلى مَن يقول «لا إله إلا الله» أن يبعد قلبه عن كل الآلهة، أي يبعده عن كل الميول والأهواء النفسية والسلبية التي يمكن أن تقوده إلى الغفلة والضلالة، حتى يمتلئ القلب بنور الله تعالى وحده، وينبغي أن يحيا القلب أمام تجليات النظام الإلهي، وأسراره، وحكمته، وقدرته السارية في الكون كله، وأن يفكر في عظمة الله سبحانه وتعالى، وفي ضعف وعجز نفسه، ومن المهم كثيراً التمسك بسر قول: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**.

إن نظر الله تبارك وتعالى موجه إلى القلب المليء بذكره، فقد جاء أحد الدراويش إلى أبي يزيد البسطامي، وقال له:

- أوصني بعمل يقربني إلى الله تعالى!

فقال له أبو يزيد رحمه الله:

- أَحِبَّ الأولياء من عباد الله، واسعَ لدخول قلوبهم! لأن الله تبارك وتعالى ينظر إلى قلوب أولئك العارفين في اليوم ثلاثمئة وستين مرة، فلتكن موجوداً في قلوبهم عندما ينظر الله تعالى إليها!



195 جمع الفوائد: ١، ١٨.



في الأنفاس الأخيرة

إن القدرة على نطق كلمة الشهادة لحظة خروج الأنفاس الأخيرة من الحياة لفوزٌ عظيمٌ. لذلك كان من الضروري بذل الجهد في كل وقت من أجل تثبيت هذه الكلمة في قلوبنا وأرواحنا، وكلمة التوحيد تتثبت في القلب من خلال العمل بموجباتها في الحياة، فإذا كان العبد مقصراً ومهملاً في تنفيذ أوامر الله تعالى ونواهيه، أو بعيداً عنها تماماً، تُفتح بينه وبين كلمة التوحيد فجوة عميقة. وإذا ما استمر العبد في غفلته ولم يتجنب التقصير والإهمال فإن تلك الفجوة تزداداً عمقاً واتساعاً، والعلاقة بينه وبين كلمة التوحيد- إن نطق بها- لن تتجاوز مجرد التلفظ بمفرداتها، أي إنها لن تُحدِثَ فيه أي تأثير إيجابي، وهذا هو الخسران العظيم. ولهذا يجب أن تكون حياتنا بكل صفحاتها وزواياها نحو كلمة التوحيد والالتزام بمقتضياتها، فذلك ضرورة كبيرة من أجل سعادتنا الأبدية، وخير مثال لنا عصر رسول الله ﷺ.

لقد كان من بين الصحابة الكرام شاب مجاهد ذو تقوى وهو علقمة رضي الله عنه. فكلما سمع هذا الشاب الورع عن حاجة للمسلمين أو خدمة، سارع إلى الإيفاء بها وقضاها لهم بحماس كبير. وقد لفت حاله هذه انتباه النبي عليه الصلاة والسلام. إلا أنه لما حضره الموت لم يكن هذا الشاب يستطيع من النطق بكلمة الشهادة، فأخبر الصحابةُ الكرام رسولَ الله ﷺ بحال هذا الشاب التقي، فذهب



رسول الله ﷺ إليه لحبه له، وسأله عن الأمر، فقال الشاب: يا رسول الله! أشعر وكأن قفلاً على قلبي يمنعني من النطق بالشهادة.

فتحرى النبي عليه الصلاة والسلام عن أحواله ممن حوله، وفيما إن كان له معصية أو تقصير في جنب الله يمنعه من التلفظ بكلمة الشهادة، وبحث الصحابة الكرام في أمره، فعلموا أن لهذا الشاب أماً قد سخطت عليه لإيذائه لها، وعقوقه بها، فأرسل رسول الله ﷺ في طلب تلك الأم الساخطة على ولدها لأرفته بحال الشاب، وللخدمات التي قدمها، وقال رسول الله ﷺ لها:

- **أرأيت لو أن ناراً أججت، فقيل لك: إن لم تشفعي له قذفناه في هذه النار، أترضين؟**

فقالت الأم:

- يا رسول الله ابني وثمرة فؤادي تحرقه بالنار بين يدي؟ فكيف يحتمل قلبي؟ لا أرضى.

فقال لها رسول الله ﷺ:

- **يا أم علقمة، فعذاب الله أشد وأبقى، فإن سرَّكِ أن يغفر الله له، فارضي عنه!** .[١٩٦]

وأمام هذه الرحمة والشفقة التي أبداها النبي عليه الصلاة والسلام تجاه ابن هذه المرأة المتألمة والحزينة التي يجري في قلبها

١٩٦ تنبيه الغافلين: ١٢٣ – ١٢٤.



نهر محبة ورحمة الأمومة، عفت عن ابنها وسامحته. وتجاوز علقمة بكل يسر السدَّ المنيع ونطق بكلمة الشهادة بسرور عظيم، ثم سلم الروح لبارئها بكل سكينة واطمئنان.

وما أكثر الحوادث المشابهة لهذه الحادثة من حولنا، إلا أننا نُلحِق الضررَ بديننا وبآخرتنا دون أن نلحظ هذه الحوادث الخطيرة، لأن الكتاب والسنة مكنوزان داخل كلمة الشهادة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يقينا جميعاً من الغفلة والضلال! وأن يجعل آخر أنفاسنا يتجلى عليها الحديث الشريف:

«**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**»[١٩٧]

آمين!



الشفاعة الكبرى

إن كلمة الشهادة لها عند الله تعالى شفاعة كبيرة، إذ إنها تنقلب إلى لسان مؤثر ومقبول ودائم الالتجاء إلى الله تعالى في سبيل الرحمة بالعبد والعفو عنه حتى يوصله إلى بر النجاة.

لقد ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف أنه قال:

١٩٧ جانان: مختصر الكتب الستة، ٢، ٢٠٤.



«إن لله تبارك وتعالى عموداً من نور بين يدي العرش فإذا قال العبد: (لا إله إلا الله) اهتز ذلك العمود فيقول الله تبارك وتعالى:

- **اسكُن!**

فيقول العمود:

- **كيف أسكن ولم تغفر لقائلها؟**

فيقول الله ﷻ:

- **إني قد غفرت له.**

فيسكن عند ذلك»[198]

ويقول رسول الله ﷺ:

«ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور، كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»[199]

إن أهل «لا إله إلا الله» يعني الذين ينشغلون بهذه الكلمة، ويتحلون بتجلياته في قلوبهم من خلال الذكر الدائم.

وكلمة الشهادة التي يُنطَق بها بصدق وإخلاص خير من سائر الأعمال الحسنة الأخرى. إذ إن دعوة جميع الأنبياء والرسل وتبليغاتهم إنما كانت مغلفة بالحقيقة التي تعبر عنها هذه الجملة،

١٩٨ البزار: مسند، ١٤، ٣٦١.

١٩٩ فضائل الأعمال: ٤٧٨.



وتهدف إلى بيانها ونشرها بين الناس. وسائر الأديان السماوية إنما كانت مبنية على أصل هذه الكلمة.

حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٢٠٠]

ولا يرتبط عفو الله تعالى- كما هو شأن سائر صفاته- بأي حد، فالله سبحانه وتعالى أشار في القرآن الكريم إلى أنه يغفر سائر الذنوب والمعاصي إلا الشرك به فلن يغفره. وورد أيضاً في الأحاديث النبوية الشريفة بأن الله تبارك وتعالى سوف يعاقب من أصروا على عصيانه ورفضوا النطق بكلمة التوحيد، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«من قال (لا إله إلا الله) ولم يقدِّم دنياه على دينه رفع الله عنه غضبه. ومن قال (لا إله إلا الله) وقدَّم دنياه على دينه قال الله تعالى له: لست مخلصاً في دعوتك»[٢٠١]

ويقول أبو هريرة ﵁، سألت رسول الله ﷺ:

قلت: يا رسول الله! من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال ﷺ:

٢٠٠ الأنبياء: ٢٥.

٢٠١ فضائل الأعمال: ٤٨١.

«لقد ظننت، يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث؛ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: (لا إله إلا الله)، خالصاً من قبل نفسه» [٢٠٢]

ويقول البراء رضي الله عنه:

جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام مغطى وجهه بدرع من الحديد، فقال:

- يا رسول الله! أقاتل وأسلم، أم أسلم ثم أقاتل؟

فقال رسول صلى الله عليه وسلم:

- **أسلم ثم قاتل!**

فنطق ذلك المقاتل الشجاع بكلمة الشهادة بشوق، ثم نزل إلى ساحة المعركة يقاتل إلى جنب المسلمين. وقد قاتل قتالاً شديداً، وبعد القتال البطولي سقط شهيداً في سبيل الله تعالى. وتبسم النبي عليه الصلاة والسلام عندما علم بأمر استشهاده، وقال عن هذا الصحابي الذي نال شرف الدخول في أهل كلمة الشهادة:

- **«عملَ قليلاً وأُجِرَ كثيراً»!** [٢٠٣]



٢٠٢ البخاري: الرقاق، ٥٢/ ٩٩/ ٦٥٧٠.

٢٠٣ محمود سامي رمضان أوغلو: غزوة أحد، ٣٥.



فضل كلمة الشهادة

يقول رسول الله ﷺ:

«ما من شيءٍ إلا بينه وبين الله حجاب، إلا قول: لا إله إلا الله، كما أن شفتيك لا تحجبها كذلك لا يحجبها شيءٌ حتى تنتهي إلى الله ﷻ» [٢٠٤]

وقد قيل أيضاً: «خمس ظلمات يقابلهن خمسة أنوار:

١ - حب الدنيا ظلمة، ونورها التقوى.

٢ - الذنب ظلمة، ونورها التوبة.

٣ - القبر ظلمة، ونورها لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

٤ - الشرك ظلمة، ونورها اليقين، والإيمان بالله ﷻ. وجاء أيضاً الصراط ظلمة، ونورها الإيمان القوي بالله تعالى.

٥ - الآخرة ظلمة، ونورها العمل الصالح.

فمن استطاع الدخول في هذه الأنوار نال السعادة الأبدية.

ويقول رسول الله ﷺ أيضاً:

«يقول الله ﷻ: أخرجوا من النار من قال: (لا إله إلا الله)، وفي قلبه مثقال ذرة من الإيمان، أخرجوا من النار من قال: (لا إله إلا الله) أو ذكرني أو خافني في مقام» [٢٠٥]

٢٠٤ ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل، ٣، ٧٩.

٢٠٥ الحاكم: المستدرك ١، ١٤١/ ٢٣٤.

ويقول أيضاً في حديث آخر:

«ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[٢٠٦]

إن كلمة التوحيد نور القلب، ونور وجه الإنسان.

إلا أن جعل كلمة التوحيد مسيطرة على الحياة أمر في غاية الأهمية، لأن خاتمة حياة الإنسان بـ (لا إله إلا الله) تتوقف على تطبيق مقتضيات هذه الكلمة خلال مسيرة حياته، حيث يُروى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام سأل عزرائيل عليه السلام ذات يوم، فقال:

«أرني كيف تبدو لما تقبض روح الكافر؟. فقال له عزرائيل عليه السلام: لا تطيق ذلك يا إبراهيم! فقال إبراهيم عليه السلام: بلى يا عزرائيل أطيق ذلك، فأرني. فقال عزرائيل عليه السلام: اصرف وجهك عني.

فصرف إبراهيم عليه السلام وجهه عنه، ثم نظر إليه فإذا صورة إنسان أسود رجلاه في الأرض ورأسه في السماء كأقبح ما يرى الرجل من الصور، تحت كل شعرة من جسده لهيب نار، فقال له:

والله لو لم يلقِ الكافر سوى نظرة إلى شخصك لكفاه!».[٢٠٧]

---

٢٠٦ مسلم: الطهارة، ١٧/ ٢٣٤.

٢٠٧ محمود سامي رمضان أوغلو: إبراهيم عليه السلام.



ولا شك أن الصالحين الذين يمضون أعمارهم في تقوى الله تعالى كاملو الإيمان، وأن صورة ملك الموت تتجلى لهم بشكل مغاير لتلك الصورة التي تتبدى للفسقة والكفرة.

إن الإيمان الكامل الذي سوف يُعمِّر دار الإنسان في الدنيا والآخرة يُخضِع العبدَ خلال مسيرة حياته لامتحانات وابتلاءات كثيرة، فإن تجاوزها العبد بنتيجة ناجحة وسالمة، فهو عبد مؤمن كامل الإيمان؛ أما إن لم يتجاوزها بنجاح فهو ليس بمؤمن كامل.

لذلك فإن الناس في مسألة الإيمان والفضيلة يمرون بمراحل كثيرة مليئة بالألم، والمعاناة، والحرمان، والاضطراب. وبذلك يميز الحق سبحانه وتعالى الصادقين في سعيهم على طريق الدعوة من الفاسقين والكاذبين، ومن أجل ذلك فإن مجرد الإيمان غير كاف، وإنما من الضروري رفع العبد إلى منزلة عالية تمكِّنه من النجاح في تجاوز الامتحانات الإلهية وذلك بالتجمل بالأعمال الصالحة.

حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٢٠٨]

---

٢٠٨ العنكبوت: ١ – ٣.



يبين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة ضرورة خضوع الإنسان للامتحانات والابتلاءات، وكأن الإيمان والامتحان متداخلين ومترابطين ببعضهما.

ووفقاً لذلك، فإن الإيمان لطف وإحسان إلهي، والامتحان معياره، وأما المحافظة على الإيمان المطلوبة من الإنسان تحقيقها من خلال التجمل بالصبر والتسليم فهي الثمن. أي إن الله تعالى بحمله عباده على إدراك مدى أهمية الإحسان الذي أكرمهم به من خلال الابتلاءات والامتحانات التي قدرها عليهم ـ كل حسب طاقته ـ كأنه يطلب منهم تقديم ثمن للإحسان، حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[209]

لذلك لا بد من أجل الفوز برضا الله تعالى من التضحية بالنفس والمال وسائر الأمور الأخرى ودفع الثمن الذي طلبه في سبيله، وهو وسيلة لبلوغ كمال الإيمان.

ومما لا شك فيه أن كل ما يتعرض له المؤمن في دار الامتحان هذه من الابتلاءات والمحن والمشقات إنما تُسجل وتحسب له ثمناً للفوز بالآخرة.

٢٠٩ التوبة: ١١١.



ومن جهة أخرى، فإن التجاوزات والاعتداءات التي يرتكبها عديمو الإيمان ممن اغتروا بالدنيا وزينتها الخداعة بحق الذين يسعون للاستقامة والعيش وفق القرآن الكريم وتعاليم الدين، تجعلهم يذوقون الألم الأبدي والعذاب المهين في جهنم الذي سوف يلقونه يوم القيامة. وذلك لأنهم مستحقون للعذاب من جهتين، فمن جهة لعدم إيمانهم، ومن جهة أخرى للظلم الذي مارسوه بحق المؤمنين.

والخلاصة أن ثمن الإيمان الحقيقي، أي بلوغ مرتبة المؤمن الكامل، مرتبط بتزكية القلب وتطهيره من كل الميول التي تبعد الإنسان عن الخضوع بالعبودية لله تعالى وحده. وهذا يعني بذل الجهد من أجل تجاوز الابتلاءات والامتحانات الإلهية التي هي من موجبات الإيمان بنجاح. لذلك فإنه من المهم الابتعاد عن كل الأفعال والتصرفات التي تمس كلمة الشهادة من أجل الوصول إلى كمال الإيمان. والتغافل عن هذه الضرورة يعني الغرق في المستقبل القريب في سراديب الندامة ثم الهلاك المحتوم.





الأفعال التي تضعف من تأثير كلمة الشهادة

١- الثقة والتوكل على غير الله تعالى.

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[٢١٠]

ولذلك ينبغي أن تكون حال العبد مصطبغة بقول الله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢١١]

٢- ترك أوامر الله تعالى ونواهيه، واتباع الرغبات والأهواء النفسية؛ أي عدم إطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

يقول الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ

٢١٠ الفاتحة: ٥.

٢١١ التوبة: ٢٥.



اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[٢١٢]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢١٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ

٢١٢ الأنعام: ١١٤ – ١١٧.

٢١٣ آل عمران: ١٠٠ – ١٠١.

فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢١٤]

إن هذه الآيات الكريمة المباركة وتلفت الأنظار إلى معركة أحد. إذ إن النبي ﷺ قبل بداية المعركة وضع مجموعة مؤلفة من خمسين رام على تلة مشرفة على وادٍ يقع خلف جيش المسلمين لحماية ظهرً المسلمين ومنع تسلل الأعداء منه والانقضاض عليهم من الخلف. وأمر هؤلاء بأن يثبتوا ولا يبرحوا مكانهم مهما كانت أحداث المعركة، سواء انتصر المسلمون أو هُزموا، إلا أن هؤلاء الذين عُيِّنوا لحماية هذا الثغر ما إن رأوا علامات النصر تميل إلى كفة المسلمين حتى تركوا مواقعهم ونزلوا إلى ميدان المعركة لمشاركة بقية المجاهدين في إصابة الغنائم. ولم يبقَ منهم في مكانه إلا قائد المجموعة مع عشرة مقاتلين آخرين، ولما علم العدو بأمر هذه المجموعة وخُلوِّ الوادي من رصد الرماة، استغل نقطة الضعف هذه والتفَّ بجناح من جيشه من خلف تلك التلة، فهاجم البقية الباقية من المجموعة وقتلهم جميعاً، وحاصر جيش المسلمين من الخلف. فلما وقع المسلمون بين جناحي جيش العدو تزعزعت صفوفهم فتفرقوا وهاموا على وجوههم. وصار النبي ﷺ يناديهم لكي يجتمعوا ويلتفوا حوله، وقد أُصيب عليه الصلاة والسلام بجروح في هذه المعركة. وفي نهاية الأمر استطاع النبي ﷺ لَمَّ شمل المسلمين

٢١٤ آل عمران: ١٤٩ – ١٥٣.



وجمعهم من حوله، ونجَّاهم من هزيمة منكرة. إلا أنهم أضاعوا المعركة، فلو أن الرماة أطاعوا أمر النبي ﷺ، ولم يغادروا الموقع الذي وضعهم فيه لما وقع المسلمون في هذه الحالة الخطيرة والمهلكة. وقد صارت هذه الحالة بكل ما جرى فيها درساً قاسياً لهم، ولم يعودوا إلى مثل هذا الفعل المخالف لقول النبي ﷺ مرة أخرى.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢١٥]

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾[٢١٦]

---

٢١٥ آل عمران: ١٥٤.

٢١٦ يس: ٦٠ – ٦٢.

٢- عدم الاهتمام ببعض المبادئ الإلهية التي جاء بها الإسلام أو كلها.

٣- ترجيح الحياة الدنيا على الحياة الآخرة وجعل هذا العالم الفاني الهدف الوحيد في الحياة.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[٢١٧]

٤- تحريم ما أحله الله تعالى ورسوله ﷺ، وتحليل ما حرَّمه.

يقول الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[٢١٨]

---

٢١٧ إبراهيم: ٣.

٢١٨ البقرة: ٨٥ - ٨٦.



ويقول رسول الله ﷺ:

«لا ألفينَّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري. عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله»[٢١٩]

«تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة نبيه» [٢٢٠]

٥- صحبة الكافرين والمنافقين؛ وعدم محبة المؤمنين وأهل التوحيد.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[٢٢١]

٢١٩ انظر: أبو داوود: السنة، ٥؛ ابن ماجه: جـ١، ٦/ ١٢؛ الترمذي: جـ٥، ٣٧/ ٢٦٦٣.

٢٢٠ الموطأ: القدر، ٣.

٢٢١ المائدة: ٥١ – ٥٢.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢٢٢]

٦- عدم التزام الأدب في حضرة النبي ﷺ، وعدم معرفته معرفة حقيقية؛ أي الاستخفاف بالصفات السامية التي أكرمه الله تعالى بها أو إنكارها، كذلك وصفه بطريقة لا تليق بأوصافه السامية، وعدم اتخاذه أسوة حسنة، وإنكار سنته الشريفة.

لذلك فإن الذين يستهزئون برسول الله ﷺ وينعتونه بأسماء مثل: الأعرابي، يقعون في الكفر والعياذ بالله.

٧- الارتياح للشرك، وعدم الحزم في موضوع التوحيد.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[٢٢٣]

---

٢٢٢ المائدة: ٥٥ – ٥٨.

٢٢٣ الزمر: ٤٥.



عندما تُسنَد أسباب الحوادث التي تجري في الكون وفي حياة الإنسان إلى إرادة الحق سبحانه وتعالى، فإن كل من لم يدخل في التوحيد يقطِّب جبينه، وتفسد حالته النفسية والروحية؛ وأما عندما يحدث العكس، أي عندما تُسنَد هذه الأسباب إلى الطبيعة، أو تُربط بالصدفة وما شابه ذلك، تنفرج أساريرهم وينتشون من البهجة والسرور، إلا أن النظام الإلهي في الكون ينقلب إلى تجليات من الغضب والعذاب بسبب أحوالهم تلك. يقول الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢٢٤]

لذلك عندما تقع مثل هذه الحالات والحوادث ينبغي اللجوء إلى الله تعالى والإكثار من الذكر والاستغفار أكثر من أي وقت آخر، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٢٢٥]

يقول الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي في الذين صموا آذانهم عن هذا البيان الإلهي، واستمروا في غيهم وغفلتهم، وضلالهم وشركهم، واقترافهم المعاصي:

---

٢٢٤ الروم: ٤١.

٢٢٥ الأنفال: ٣٣.

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[٢٢٦]



ذات يوم سأل النبي ﷺ أصحابه الكرام، فقال:

«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»

قالوا:

- بلى يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ:

«الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل» [٢٢٧]

إن الله ﷻ لا يريد ولا يقبل أن يُشرِكَ به أحد من الفانين في العبادات والمعاملات أبداً. حيث يقول في القرآن الكريم:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[٢٢٨]



٢٢٦ مسلم: الزهد، ٤٦/ ٢٩٨٥.

٢٢٧ ابن ماجه: الزهد، ٢١/ ٤٢٠٤.

٢٢٨ الماعون: ٤ – ٦.



يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه:

رجل استشهد، فأتي به إلى الله تعالى فعرفه نعمه، فعرفها، فقال الله تعالى:

- فما عملت فيها؟

قال الرجل:

- قاتلت فيك حتى استشهدت.

قال الله تعالى:

- كذبت! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به إلى الله تعالى، فعرفه نعمه، فعرفها.

قال الله تعالى:

- فما عملت فيها؟

قال الرجل:

- تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن.

قال الله عز وجل:

- كذبت! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل.



ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها.

قال الله تعالى:

- فما عملت فيها؟

قال الرجل:

- ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال الله ﷻ:

- كذبت! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار» [٢٢٩]

إن هذا الحديث النبوي يبين بوضوح أن شرط قبول الأعمال عند الله ﷻ هو الإخلاص، فالأعمال التي لا تكون طلباً لمرضاة الله تعالى- وإن كانت تبدو في الظاهر في سبيل الله- لا تنفع صاحبها بشيءٍ يوم القيامة، وحتى وإن كانت هذه الأعمال صالحة وحسنة في ذاتها، وذلك كالشهادة، وطلب العلم، والإنفاق والصدقات.

وبناء على ذلك يمكننا القول: إن الإيمان الحقيقي والصحيح ليس بأقوال رنانة تتردد على اللسان؛ والأعمال الصالحة أيضاً ليست مجموعة من حركات لا روح فيها، وإنما على صاحب القلب

٢٢٩ مسلم: الإمارة، ١٥٢/ ١٩٠٥.



السليم أن يؤمن بالخالق ﷻ ويرتبط به بمشاعر صادقة ومخلصة تنبع من الأعماق، وأن يتلقى أوامره ونواهيه بلذة وشوق، وعندما يقوم بالأعمال الصالحة متحلياً بهذه الحالة الإيمانية، ينبغي أن لا يقصد بها غير رضاه، ولا يلتفت ولا يكترث بأي غاية أخرى أبداً.

فلُبُّ المسألة أن يستطيع الإنسان أن يكون مخلصاً وصادقاً تجاه الله ﷻ. لذلك فحتى العلم يُعدُّ غير مقبول إن كان لا يتوافق مع أصل العقيدة، لأن مثل هذا العلم بعيد عن العلم الذي قصده القرآن الكريم، والعلم الذي يرفع من شأن أصحابه. وحتى العلوم التي تبحث في قوانين نظام الكون، ومبادئ الحياة، مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، والأحياء، والجيولوجيا وما شابهها، ينبغي أن يُنظر إليها من منظور القلب والروح، لأن تجليات الحكمة والقدرة التي تكمن في محتويات هذه العلوم إنما تشكل أرضية الإيمان، أي عندما لا تُستخدم هذه العلوم لرغبات مادية تُبعِد الإنسان عن الله تعالى، فإنها تقوده إلى ربه وإلى العبودية التي هي السبب الرئيسي لخلقه، وتحمله على النطق بكلمة الشهادة.

إن للعبادات أوقات محددة تؤدى فيها، أما الإيمان فليس له وقت. وإنما يتطلب الاستمرار والحيوية في كل آن. وإلا فإنه يُقتلع من القلب حتى بأبسط هوى نفساني. ويتعرض الإنسان إثر ذلك لعاقبة محزنة مثل تلك التي تعرض لها قارون والمذكورة في سورة القصص، وعاقبة بلعام بن باعوراء المذكورة في سورة الأعراف.



ويمكن تلخيص البيان الذي أوردناه حتى الآن حول كلمة الشهادة بالجمل الآتية:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ .إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ . أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢٣٠]

نفهم من هذه الآيات المباركة أن الأعمال إنما تكون لها قيمة عند الله سبحانه وتعالى إذا ما تم القيام بها بتحقيق شروط معينة مثل التصديق والإيمان الخالص، وطلب رضا الله تعالى من ورائها، إذ لا قيمة للأعمال من غير إيمان مهما بلغت من الأهمية والفائدة للبشرية. وقد قال الله تبارك وتعالى في هذا الأمر في آيات قرآنية أخرى:

---

٢٣٠ التوبة: ١٧ – ١٩.



﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[231]

وصفوة الكلام أن الأعمال لا تتحقق منها الفائدة المرجوة التي يهدف إليها صاحبها إلا من خلال الإيمان، أي بعد الدخول في نطاق التوحيد.

اللهم اجعلنا من أهل الإيمان والشهادة الحقة، وألحقنا بزمرة السعداء المفلحين الموحدين!

آمين!



231 آل عمران: ٩١.





الصلاة

الركن الأول للعبادات في الإسلام

عمود الدين، ونور الإيمان، ومعراج المؤمنين



الصلاة

الركن الأول للعبادات في الإسلام

عمود الدين، ونور الإيمان، ومعراج المؤمنين

إن حياة الإنسان مليئة بمظاهر البحث عن الحقيقة لكي يصل إلى خالق الكون، وهذه المظاهر نتيجة طبيعية لميلَي الإيمان والعبادة الموجودان في تكوين الإنسان الخَلقي الذي لا يتغير، وقد ضلَّ المحرومون من نور الهداية حتى وصلَ بهم الضلال إلى درجة عبادة المخلوقات الضعيفة والعاجزة في سبيل إشباع هذا الميل الفطري، وهذا ما نراه منذ القدم وإلى يومنا هذا، وما ذلك إلا دليل على وجود الإيمان في فطرة الإنسان. إذ من المعلوم حتى في وقتنا الحالي أن هناك الملايين من الناس قد انساقوا خلف عقائد كثيرة باطلة كعقيدة التجسيم، مثل إضفاء فريق منهم مظاهر القداسة



والتأليه على البقر وما شابهها من المخلوقات، أو محاولة البعض- كما فعل أتباع الديانات المحرفة- إعطاء الإله شكلاً وصفات بشرية من صنع خيالهم وتصوراتهم الباطلة.

وهذا يظهر بأن الإنسان بحاجة دائمة إلى أن يكون عبداً، ويعيش سر العبودية في حياته، لأنه ما هو إلا تجلٍ لقول الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[232]

لذلك فإنه عندما يستطيع توجيه هذا الميل الفطري لديه بشكل يليق بالشرف والكرامة الإنسانية، يصل إلى مرحلة السلامة والسعادة. ذلك لأن الإنسان قد خُلق ليكون على قمة الصنعة الإلهية في هذا العالم المزين بملايين الأشكال والمخلوقات التي تعبر عن القدرة الإلهية، وخُلق نتيجةً طبيعية لهذا التكوين والخلق، فقد كُلف بعبادة ربه. وكانت المنزلة السامية المعطاة للإنسان على قدر إيفائه بالتكاليف التي فُرضت عليه، فقال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾[233]

وانطلاقاً من ذلك فقد بيَّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة أن على الإنسان أن يُقبل بعد الإيمان على الأعمال الصالحة لكي ينجو من الخسران المبين يوم القيامة. لهذا فإن المؤمنين الذين جعلوا

---

٢٣٢ الذاريات: ٥٦.

٢٣٣ الفرقان: ٧٧.

غايتهم الوقوف في حضرة الإله بقلب سليم، يسلمون قلوبهم إلى العبادات التي تسمى بالأعمال الصالحة، ويسلكون مباشرة طريقهم نحو مرضاة الله تعالى. وما من شك ولا شبهة في أن عبادة الصلاة تعد أهم ينابيع هذه العبادات التي تأخذ العبد إلى بحر الوصال بالمولى ﷻ، لأن الصلاة تشكل لب سائر العبادات من ناحية الشمول، والمضمون، والمرتبة.

إن جميع المخلوقات التي في الكون بحالة ذكر دائم لله تعالى. وأسراب الطيور المحلقة في السماء، والجبال، والحجارة، والأشجار، كلها تتعبد الله تبارك وتعالى وتسبحه بماهية نجهلها نحن البشر. إن عبادة النباتات بقيامها، والحيوانات بركوعها، والموجودات المادية التي لا روح فيها بسجودها على الأرض، وأحوال أهل السماء على هذا المنوال أيضاً، إذ إن قسماً من الملائكة في حالة قيام، وقسم منها في حالة ركوع، وقسم آخر في حالة سجود، وقسم آخر منها في حالة تسبيح وتهليل لله تعالى، وأما عبادة الصلاة التي أكرم الله ﷻ عباده المؤمنين بها معراجاً لهم فإنها تجمع كل هذه العبادات والأحوال، لذلك فإن المصلين الحقيقين ينالون مكافآت وتجليات في قلوبهم إذ يؤدون عبادة شاملة لجملة العبادات التي تؤديها الكائنات التي في الأرض والسماء.

يعبر الشاعر سليمان شلبي عن خصوصية الصلاة بشكل جميل في قوله:



ينال كل ناسك يقيم هذه الصلاة،
ثواب جميع أهل السماء..

لأن كل أنواع العبادات مجتمعة فيها،
ونيل الوصل والقرب إلى الحق ﷻ يكون بهذه العبادة..

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«الصلاة مرضاة للرب تبارك وتعالى، وحب الملائكة، وسنة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وإجابة الدعاء، وقبول الأعمال، وبركة في الرزق، وراحة للأبدان، وسلاح على الأعداء، وكراهية للشيطان، وشفيع بين صاحبها وبين ملك الموت، وسراج في قبره، وفراش تحت جنبه، وجواب مع منكر ونكير، ومؤنس في قبره إلى يوم القيامة، فإذا كانت القيامة، صارت الصلاة ظلاً فوقه وتاجاً على رأسه، ولباساً على بدنه، ونوراً يسعى بين يديه، وستراً بينه وبين النار، وحجة للمؤمنين بين يدي الرب تبارك وتعالى وثقلاً في الموازين، وجوازاً على الصراط، ومفتاحاً للجنة، لأن الصلاة تسبيح وتحميد، وتقديس وتعظيم وقراءة ودعاء، وإن أفضل الأعمال كلها الصلاة لوقتها» [٢٣٤]

لأجل ذلك كانت الصلاة نقطة لقاء العبد مع الله ﷻ، والمعراج الأصغر الذي أُكرمت به الأمة، ونفهم من قول الله ﷻ:

---

٢٣٤ تنبيه الغافلين: ٢٩٣.



﴿... وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[235]

أن نعمة الوقوف بين يديه الله ﷻ تكون أيضاً بالصلاة.

فخلال الصلاة الحقيقية يخرج كل الأغيار من بين المصلي وربه، ويختفي كل أمر دنيوي، ويكون العبد في جلسة لقاء مع خالقه، ويصبح في أقرب مسافة إلى أعماق الأسرار الإلهية، لأن الصلاة قد فرضت عند اللقاء القريب في معراج الرسول ﷺ مباشرة دون وساطة جبريل عليه السلام، وهكذا فقد كُرست على الدوام لإمكانية الخلوة مع الله تعالى مباشرة دون أي واسطة، وقد قال رسول الله ﷺ الذي عاش دائماً في خلوة كتلك التي عاشها في حالة المعراج، أي حالة القرب من الله تعالى «قاب قوسين»:

«...وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة»[236]

إن حالة الكمال، والسكينة، والطمأنينة، والأمان، والقرب التي ينالها العبد بالصلاة، لا يمكن أن ينالها بأي من العبادات الأخرى مطلقاً، فمرتبة الصلاة في الحياة الدنيا كمرتبة رؤية الحق سبحانه وتعالى في الآخرة، لأن الأوقات التي يكون فيها العبد أقرب إلى الله تعالى في هذه الحياة، هي لحظات وقوفه بين يديه في الصلاة، وإن أرفع اللذات التي يشعر بها العبد والتجليات الروحية التي يعيشها

٢٣٥ العلق: ١٩.

٢٣٦ النسائي، عشرة النساء، ١/ ٣٩٤٠.



تكون في الصلاة. ويمكننا القول بأن سائر العبادات الأخرى هي بمثابة درجات السلم التي ترفع العبد إلى الصلاة، لذلك فقد وصف رسول الله ﷺ الصلاة في أحاديث كثيرة بأنها:

«عمود الدين، ونور الإيمان والقلب، ومفتاح السعادة، ومعراج المؤمن»

إن الصلاة بكل ماهيتها السامية عبادة فريدة قد قُسِّمَت بين الله تعالى والعبد، فهي مثل سورة الفاتحة تماماً، فسورة الفاتحة من البسملة حتى قول الله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ مخصوصة لله تعالى، والآية ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ من جهة عائدة إلى الله تعالى، ومن جهة أخرى عائدة إلى العبد، وهذا يجمع بين عبادة العبد للحق ﷻ، وبين معبودية الحق سبحانه وتعالى للعبد. أي ينبغي أن يكرس العبد عبادته لله تعالى وحده، ضمن إطار حقيقة أن الله تعالى هو المعبود الوحيد، وأما الآيات التي تأتي بعدها فإنها مخصوصة بالعبد، إذ يقول الله ﷻ في الحديث القدسي:

«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي» [٢٣٧]

لذلك فإن الصلاة هي مناجاة العبد لربه، ونوع من الذكر، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

٢٣٧ مسلم: الصلاة، ٣٨ – ٤٠/ ٣٩٥.



﴿... **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [238]

وإن سر قول الله تعالى:

﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**...﴾[239]

يتحقق في الصلاة أكثر من العبادات الأخرى.

وهكذا فإن مضمون الحديث القدسي القائل:

«...**وأنا معه ـ** أي عبدي ـ **إذا ذكرني** ...» [240] إنما يتحقق أثناء ذكر الصلاة.

ولكن لكي يستفيد العبد من هذه المعية بالشكل الأمثل، لا بد أن يكون في حالة «**الإحسان**»، وهي الحالة التي وصفه بها رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف «**الإحسان**» بقوله:

«**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» [241]

إذاً فالصلاة التي تُقام على هذه الصورة تصبح قرة العين ونورها.

وإن من يقيمون الصلاة على هذه الصورة يُحصِّلون تجلياً من مرتبة الرسول، وهذه الحالة هي نيابة عن الله تعالى.

---

٢٣٨ طه: ١٤.

٢٣٩ البقرة: ١٥٢.

٢٤٠ البخاري: التوحيد، ١٥/ ٧٤٠٥.

٢٤١ مسلم: الإيمان، ١/ ٨.



ولأجل ذلك كانت الصلاة بالنسبة إلى موسى عليه السلام مثل الشجرة النورانية التي تدله على الطريق. والصلاة مواساة للقلوب المقهورة والمنكسرة، وراحة للقلوب المتعبة من صخب الدنيا، وشفاء الأبدان ولسان العارفين، ولما كانت المشاغل الدنيوية ترخي بظلالها على قلب النبي عليه الصلاة والسلام وثقل قلبه، كان يقول:

«أقم الصلاة يا بلال أرحنا بها»

لأنه لا توجد أي عبادة تشبه الصلاة أبداً، فالذي يقيم الصلاة، لا يمكن أن ينشغل خلالها بأي شيءٍ من أمور الدنيا، إذ إن الصلاة تقطع صلته عن مختلف الشؤون والأمور، وتجعله في حالة وصال مع الحق سبحانه وتعالى لا يمكن وصفها، وليست الحال في العبادات الأخرى على هذا النحو، فمثلاً؛ الإنسان الصائم يمكنه أن يبيع ويشتري في الأسواق... وكذلك الحال لمن يذهب إلى الحج، أما المصلي فلا يمكنه لا أن يكون بائعاً ولا مشترياً وقت الصلاة، وإنما هو فقط مصلي. أي إنه في حضرة الله جسماً وروحاً.

إن المؤمن الكامل إلى جانب مجاهدته وبذله لجهده من أجل القيام بالصلوات الخمس المكتوبة في اليوم طيلة أيام عمره، والتي فرضها الله عليه بقوله في القرآن الكريم:

﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[٢٤٢]

---

٢٤٢ النساء: ١٠٣.



يتزود ويكثر من النوافل حتى يأتي أمر ﴿**ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ...**﴾[243] فيستجيب له وينتقل إلى رحماته وألطافه اللامتناهية، ويلتحق بعباده الأخيار فيدخل بينهم، ثم ينال وينعم بدار السلام، أي دار السعادة الأبدية.

إن أولئك المؤمنين ينالون المقام المذكور في قول الله تعالى:

﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ...**﴾[244]

ويقتبسون نصيباً من قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿**...وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾[245]

وهذه الآية تشير بأن ذكر الله- أي الصلاة- من أعظم الأعمال، وهي في الوقت ذاته تشير إلى أن ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد لربه، ولذلك فإن النصيب الأكبر في القرب إلى الله تعالى يكون في الصلاة.



٢٤٣ الفجر: ٢٨.

٢٤٤ البقرة: ١٥٢.

٢٤٥ العنكبوت: ٤٥.



الاستعداد للصلاة

مما لا شك فيه أنه من أجل الإيفاء بعبادة عظيمة مثل عبادة الصلاة بالشكل الأمثل، لا بد من الاستعداد لها على أكمل وجه. فمثلاً، عندما يتحدث النبي عليه الصلاة عن والسلام عن كيفية الصلاة حتى تكون مقبولة عند الله تعالى، يقول أولاً:

«**ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ...**»[٢٤٦]

لأن الصلاة وثيقة الصلة مع الجماليات الحياتية والفطرية، ولكي نبين لمن فهم هذه الصلة مدى فائدة الوضوء وأهميته، نورد الرواية التالية عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمه الله تعالى والتي تدور حول إحساسه بتقاطر الذنوب مع تقاطر ماء الوضوء، هذه الرواية التي تعبر بشكل جميل عن الإعداد للصلاة، والإمام الأعظم مشهور بفراسته وبصيرته النافذة في هذا المجال، حيث قال ذات مرة لشاب يتوضأ من أجل الصلاة:

- يا بني! اترك هذا الذنب، وذاك الذنب...

فسأله الشاب بدهشة:

- يا إمام! من أين علمت بارتكابي هذه الذنوب؟

فقال الإمام الأعظم:

- يا بني! علمت ذلك من ماء الوضوء الذي توضأته قبل قليل...

٢٤٦ مسلم: الطهارة، ١٧/ ٢٣٤.



ومن جهة أخرى، فإنه من المهم الاعتناء باستعمال السواك الذي يُعد أحد السنن النبوية المهملة في هذه الأيام، يقول النبي ﷺ:

«فضل الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفاً»[٢٤٧]

«السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[٢٤٨]

من المعلوم أن عبادة الصلاة من أولها إلى آخرها عبارة عن تكبير، وتهليل، وتسبيح، وقراءة، وكلها تُؤدى من خلال اللسان. وبناء على ذلك، فإن استعمال السواك للفم يعد وسيلة لطمأنينة القلب من خلال تأمين سهولة خروج الألفاظ في الصلاة.

وقد ثبت اليوم أن استعمال السواك إلى جانب المعجون والفرشاة المستخدمة في تنظيف الفم والأسنان فيه فوائد صحية جمَّة. ومن المؤكد أن للسواك فوائد كثيرة مثل فائدته للمعدة، ومنعه من تسوس الأسنان.

ويتحدث أحد المرضى الذي عانى كثيراً من نخر وآلام شديدة في أسنانه، كيف أنه بعد معاناة طويلة مع الألم توصل إلى علاج لأسنانه، وشُفي من تلك الآلام، فيقول:

«لما رأيت بداية نخر وتسوس في أسناني أخذت بالتنقل من طبيب إلى طبيب بحثاً عن علاج، ولم أدع دواء ولا معجوناً إلا

٢٤٧ أحمد بن حنبل: مسند، ٦، ٢٧٢/ ٢٦٣٨٣.

٢٤٨ البخاري: الصوم، ٢٨.



واستعملته، ولكن بدون فائدة، وفي نهاية المطاف أوصاني صديق لي باستعمال السواك، وأخبرني بأن فيه قدرة فريدة على العلاج، ولم أكن قبل ذلك قد استخدمت سواكاً قط، ولأني كنت يائساً من كل الأدوية، فقد انتابني بعض الأمل من الوصفة الجديدة، فأسرعت في الحال إلى شراء سواك وبدأت باستعماله، ولم يمضِ وقت طويل حتى توقف نخر أسناني بلطف الله تعالى وإحسانه، ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن لم أترك استخدام السواك.»



مما لا شك فيه أن أحد أهم الأمور الخاصة بالاستعداد للصلاة:

العلم بفرائض الوضوء وسننه، والعلم بفرائض الصلاة وواجباتها وسننها، لقول رسول الله ﷺ:

«عمل قليل في علم، خير من كثير في جهل»[٢٤٩]

وكما ننظف ونطهر أعضاءنا الخارجية عن طريق الوضوء من أجل الصلاة، ينبغي أيضاً أن نبذل غاية جهدنا في تطهير قلوبنا من الحقد، والحسد، وسائر الأدران المعنوية الأخرى، والتطهر من الذنوب والمعاصي قدر المستطاع استعداداً للدخول في الصلاة، وينبغي أن نكون حذرين ومتيقظين من حيل شياطين الجن والإنس الذين يحاولون من خلالها منعنا من القيام بالتطهر المعنوي قبل المادي.

٢٤٩ فضائل الأعمال: ٢٩٩.



ويفسر العارفون قول الله تعالى:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[٢٥٠]

أن «طهِّرْ ظاهرك وباطنك من أجل الدخول في الصلاة التي هي وقوف في حضرة الله تعالى وتخلق بالأخلاق الحسنة». وقد طبقوا هذه الآية وتفسيرها بهذا المعنى على أنفسهم قبل مطالبة غيرهم به.

وإن مراعاة ما ورد في الحديث الشريف الآتي الذي يصب في هذا الاتجاه:

«**خففوا بطونكم وظهوركم لقيام الصلاة**». [٢٥١] إنما يعد وسيلة لسعة القلب، والاشتياق للصلاة.

فالأمر الأول المقصود في الحديث الشريف تجنبُ ارتكاب الحرام، والأمر الثاني عدمُ ملء البطن بالطعام حتى التخمة، والإقلال من تناول الطعام.



٢٥٠ المدثر: ٤.

٢٥١ السيوطي: الجامع الصغير، ٤١٧.



الخشوع

الشرط الأول لقبول الصلاة

إن ما ينظم الجانب الظاهري من الصلاة هو «الفقه»، فالصلاة لا تكون من دون فقه. إلا أن الصلاة لا يمكن أن يكون لها قيمة أيضاً بقلب متشتت لاهٍ بأمور الدنيا، وبعيد عن الخشوع. لذلك لا يمكن أداء صلاة مقبولةً إلا إذا اجتمعت القواعد الفقهية المنظِّمة للصلاة من الظاهر مع القواعد المعنوية والروحية المزيِّنة لعالم القلب، وإن تزيين عالم القلب يمكن تحقيقه بسر التزكية التي أخبر بها القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [252]

إن هذه التربية المعنوية أو الروحية أمر في غاية الأهمية من أجل الصلاة. لأن الله ﷻ لم يتوقف في القرآن الكريم على مسائل فرائض الصلاة وواجباتها، وعدد ركعاتها، في حين أنه شدد كثيراً وبصورة متكررة على أهمية الخشوع، والإخلاص، وحالة السكينة والطمأنينة، وأهمية شمولها لسائر مجالات الحياة. وعلى ذلك فإنه من المهم للغاية مراعاة المصلي للأركان، والآداب، والمشاعر المتعلقة بالجانب المعنوي للصلاة، وذلك لأن الله تبارك وتعالى يقول في القرآن الكريم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [253]

---

٢٥٢ الأعلى: ١٤.

٢٥٣ المؤمنون: ١ – ٢.

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

«من صلى الصلاة لوقتها، وأسبغ لها وضوءها، وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة، تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومن صلى الصلاة لغير وقتها فلم يسبغ لها وضوءها، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها ولا سجودها خرجت وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق، ثم ضرب بها وجهه» [٢٥٤]



سألوا ذات يوم بهاء الدين النقشبندي رحمه الله:

كيف يصل العبد إلى الخشوع في الصلاة؟ فقال في جوابه: بأربعة أشياء:

١- اللقمة الحلال.

٢- الابتعاد عن الغفلة أثناء الوضوء.

٣- السكينة عند التكبيرة الأولى.

٤- عدم نسيان الحق سبحانه وتعالى خارج الصلاة، أي الاستمرار بحالة السكينة والوقار والطمأنينة، والبعد عن المعاصي التي يلتزم بها في الصلاة إلى ما بعد الصلاة.



٢٥٤ الطبراني: المعجم الأوسط، ٣، ٢٦٣/ ٣٠٩٥.



إن الخشوع في الصلاة أمر عظيم، إذ يُعامَل العبد على قدر خشوعه في صلاته، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**» [٢٥٥]

أي إن العبد لا يعطى ثواب الصلاة إلا بقدر ما صلاها بخشوع وحضور قلب.

إن المصلين الحقيقيين عندما يقومون إلى صلاتهم يؤدونها على وجهها الصحيح، إذ يربطون قلوبهم بربهم سبحانه وتعالى لنيل رضاه، ولا ينشغلون بشيءٍ خارج الصلاة أبداً، ويقطعون صلتهم بكل العالم الخارجي، فيقيمون صلاتهم بمشاعر روحانية سامية، وفي الصلاة يركزون أعينهم في مكان سجودهم، ويشعرون من أعماق قلبهم بأنهم تحت المراقبة الإلهية، فيتلذذون بمتعة نسيان أنفسهم.

ومما لا شك فيه أن هذه الحالة إنما هي حالة العباد المخلصين الذي بلغوا مرحلة القلب السليم، أي إن الخشوع ثمرة الإخلاص، لأن الإخلاص يجعل العبد صادقاً وخاشعاً، وإلى جانب أنه يوصله إلى درجات عالية عند الله تعالى، فإنه يكون وسيلة لنيله الحفظ والرعاية الإلهية. حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

٢٥٥ أبو داوود: الصلاة، ١٢٤/ ٧٩٦.

«طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء»[256]



ولا بد من مراعاة أمور لكي يسري الإخلاص والخشوع إلى القلب وتتحقق الفائدة المعنوية والروحية من الصلاة، وهذه الأمور هي:

١- **حضور القلب**: إحاطة القلب بروحانية الأدعية والتسبيح وقراءة القرآن التي تتم في الصلاة، وإبعاده بشكل تام عن الانشغال بكل ما سوى الله تعالى، لأن القلب الذي لا ينقطع عن الأفكار والمشاغل التي تكون خارج الصلاة، يعجز عن التركيز في الصلاة، وبالتالي يغفل عن حالة الحضور والوقوف بين يدي الله تعالى. إذاً، إنْ تمكن العبد من الابتعاد عن الغفلة، واستطاع الإحساس بالحضور بين يدي الله ﷻ، وتذوق معاني الآيات والتسابيح التي يتلفظ بها بلسانه، فعند ذلك يكون قد حقق حضور القلب، لذلك فإن أهل الله لم يكونوا يعيدون صلاتهم إن أخلُّوا بأحد أركانها فحسب، وإنما كانوا يعيدونها أيضاً إن لم يتمكنوا من أدائها بحضور القلب. فمع أن هذه الحالة، أي حالة إعادة الصلاة لعدم الخشوع وحضور القلب، ليست واجبة على كل الناس، إلا أنها تبين مدى أهمية حضور القلب في الصلاة.

٢٥٦ فضائل الأعمال: ٢٨٥ – ٢٨٦.



وسبب حضور القلب إنما هو الرغبة في الارتقاء المعنوي، وتتحقق هذه الرغبة نتيجة إدراك أن القرب من الله ﷻ لا يتم إلا بالصلاة.

٢- **الفهم**: أي وجود حال من الإدراك والإحساس والتمعن والتدبر بما يقرؤه المصلي في صلاته بالقدر المستطاع. وهذه النقطة تُعد من أهم الأمور بعد حضور القلب، ويمكن أن يلعب دور الجسر في نقل الحالة التي تكون في الصلاة إلى الأوقات والمواقف الأخرى خارجها.

٣- **التعظيم**: ملازمة الشعور بأنك في حضرة الله تعالى، وبالتالي المحافظة على الخشوع بالجسد والقلب، أي مراعاة الآداب التي في الصلاة بعد تزيينها بحضور القلب والفهم. وحالة الأدب والتبجيل التي في الصلاة تضاعف من قيمتها لتصير شفيعة للمصلي عند الله تعالى، أي إن العبد في مقام التعظيم يصغي السمع إلى الموعظة الآتية:

«إن كنت تريد أن تكون صلاتك معراجاً؛ فعدَّ على الدوام عبادتَك ناقصة أمام عظمة الله تعالى والنعم الكثيرة التي لا تحصى والتي أكرمك بها! واحذر من الظن أنك شكرت الله تعالى حق شكره بالنظر إلى ما تقوم به من العبادات! إذ حتى رسول الله ﷺ كان يقول: (يا رب! ما عبدتك حق عبادتك) ويستغفر الله كثيراً».

ثم يصطبغ بها ما أمكنه ليستفيد من الصلاة التي يؤديها إلى أقصى الدرجات.

٤- **الهيبة**: وهي الدخول في حالة الخشية والخوف من الله تعالى والتي تتولد من التعظيم، وهذا الخوف يصبح وسيلة لمعرفة العبد حجمه ومكانته، وأيضاً وسيلة لإدراكه عظمة الله ﷻ، ونتيجة لذلك يحصل التقوى في الصلاة، فالتقوى تعني الخشية من الله تعالى وحماية القلب من الغفلة، وهو المؤثر الوحيد الذي يرفع منزلة العبد عند الله تبارك وتعالى القائل في القرآن الكريم:

﴿...**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**...﴾[٢٥٧]

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج زمن الشتاء، والورق يتهافت، فأخذ بغصنين من شجرة، فجعل ذلك الورق يتهافت، فقال :

«**يا أبا ذر!**» قلت:

- لبيك يا رسول الله!

فقال:

- «**إن العبد المسلم ليصلي الصلاة يريد بها وجه الله** [أي بإخلاص وتقوى] **فتتهافت عنه ذنوبه، كما تهافت هذا الورق عن هذه الشجرة**»[٢٥٨]

٥- **الرجاء**: أي التمسك بالأمل والتفاؤل، إن الأمل برضا الله تعالى ورحمته إلى جانب تعظيمه في الصلاة، ثم اللجوء إلى الدعاء

٢٥٧ الحجرات: ١٣.

٢٥٨ أحمد: مسند، ٥، ١٧٩/٢١٥٩٦.



بعد انتهاء الصلاة من شعائر العبودية الحقة، لأن الخوف والخشية وحدها تدمي القلب، ومع مرور الزمن ينقلب التوازن المعنوي والروحي رأساً على عقب، لذلك فإن الأمل يقوم بمهمة القضاء على هذا الخطر، ويعمل على تأمين التوازن في القلب.

٦- **الحياء**: وهذه ميزة مكملة ومتممة للميزات الأخرى، إذ إن العبد الذي يستحي من الحق سبحانه وتعالى، يتجنب كل الأفعال والحركات التي تعبر عن اللامبالاة، وبهذه الوسيلة ينتبه ويلاحظ التقصير والغفلة والخطأ الذي يقع في الصلاة، فلا يركن إلى الوثوق بأعماله، وينال سر الحديث الشريف الذي يخبر فيه النبي عليه الصلاة والسلام أنه على المؤمن ألا يترك نفسه ظناً منه أن صلاته ستكفر ذنوبه.

إذاً إن الحل الوحيد لعدم الوقوع في الغفلة التي تقود إلى الاعتقاد والقول بأن الذنوب والمعاصي إنما تسقط ويُعفى عنها بالصلاة، هو التزام الحياء والمحافظة في كل لحظة على الأدب في الصلاة، لأن العفو هو معاملة الله تعالى عباده بالإحسان، والكرم، والرحمة، وهو من مقتضيات رحمته. ومن المعلوم أن الجوانب الداخلية للعبادات التي نؤديها ليست في معناها الحقيقي بالعبادات اللائقة بالله ﷻ، إلا أن أداء هذه العبادات بحياء وخنوع لله تعالى مع إدراك هذه الحقيقة يكون وسيلة لنيل العبد رحمة الرحمن ورضاه ببركة إحسانه.



وصفوة الكلام أن العبد الذي لا يوجد في صلاته خشوع القلب مع إيقاع الجسم، لا يمكن أن يصل إلى حقيقة الصلاة، فيجب أن يتحضر العبد لحقيقة الصلاة روحاً وجسماً. لقد أخذ النبي ﷺ في معرض تنبيهه عن كل الأمور التي يمكن أن تفسد الجمع بين خشوع القلب ووقار الجسم، الصفات البشرية للإنسان بعين الاعتبار، لحمايته من الغفلة وشرود الذهن أثناء الصلاة فقال:

«إذا حضر العشاء، وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء» [٢٥٩]

لقد أبدى العلماء حرصاً واهتماماً شديداً بموضوع الخشوع المطلوب في الصلاة والذي يحدث بتوحد القلب مع الجسم، ولما تناولوا النقاط التي يجب الانتباه إليها، وضعوا ثلاثة أصناف من المصلين حسبما لاحظوه من أحوالهم في الصلاة، وعدُّوا صلاتهم غير مقبولة، وهذه الأصناف هي:

١. الصياد.

٢. الحمال.

٣. التاجر.

والمقصود بالصياد هنا هو: الشخص الذي يجول بنظره أثناء الصلاة، ويأتي بحركات كثيرة بأعضائه خارج تلك الحركات الضرورية للصلاة. والمقصود بالحمال هو: الشخص الذي يعاني

٢٥٩ مسلم: الصلاة، ٦٤/ ٥٥٧.



من تدافع أحد الأخبثين البول أو الغائط فيصلي دون أن يجدد وضوءه. وأما المقصود بالتاجر فهو: الشخص الذي يبقى مشغولاً بتجارات الدنيا بقلبه وذهنه. فهؤلاء الأصناف الثلاثة لا يستطيعون بلوغ حالة الخشوع والطمأنينة المطلوبة في الصلاة، لذلك لا يتمكنون من إفراغ أنفسهم للعبادة التي هم فيها، فيصبحون وكأنهم يصلون صلاة من غير اهتمام. وهذه الحالة غير مقبولة عند الله تعالى على الإطلاق، لأن استعداد الجسم وأعضائه ودخولها إلى الصلاة من الشروط الضرورية للصلاة، لذلك فإن قول رسول الله ﷺ عن رجل رآه يعبث بلحيته في الصلاة:

«**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»[٢٦٠] فيه دلالة على ضرورة اشتراك كل من القلب والجسم بالخشوع في الصلاة.

وقال رسول الله ﷺ:

«**سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان: الرعاف، والنعاس، والوسوسة، والتثاؤب، والحكاك، والالتفات، والعبث بالشيء**»[٢٦١]

فهذه الحالات تذهب الجانب المعنوي والروحي للصلاة.

ومن جهة أخرى، يُطلَق وصف «**خشوع المنافق**» إذا بدا الخشوع على المصلي من حيث المظهر الخارجي، وكان عالم

٢٦٠ ابن أبي شيبة: مصنف، ٢، ٨٦.

٢٦١ إحياء علوم الدين، ١، ١٥٧.

القلب في الداخل بعيداً عن الخشوع، لذلك ينبغي على العبد حفظ القلب من الوقوع في مثل هذه الحالة الخطيرة.

والكلمة الأخيرة التي يمكن قولها في بحث الخشوع هي دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ذكره الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لكي يكون لنا مثالاً جميلاً، وهذ الدعاء هو:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾[٢٦٢]

كيفية تحقيق الخشوع في الصلاة:

يقول الشيخ حاتم الأصم عن أداء الصلاة كما ينبغي:

«أن تقوم بالأمر، وتمشي بالاحتساب، وتجعل الكعبة بين حاجبيك، والميزان نصب عينيك، والصراط تحت قدميك، والجنة عن يمينك والنار عن شمالك، وملك الموت خلفك يطلبك. وتدخل بالنية، وتكبر بالتعظيم، وتقرأ بالترتيل، وتركع بالخشوع، وتسجد بالخضوع، وتتشهد بالإخلاص، وتسلم بالرحمة، ولا تدري بعد ذلك أقبلت صلاتك أم ردت عليك!»

ويقدم الإمام الغزالي التحيات التي تقرأ في الصلاة مثالاً رائعاً عن أهمية محبة رسول الله ﷺ، وذلك في بيانه ضرورة حضور القلب واعتباره شرطاً في الصلاة، فيقول:

---

٢٦٢ إبراهيم: ٤٠.



«عندما تقول في التشهد الأول والأخير للصلاة (أيها النبي ورحمة الله)، فينبغي تخيل النبي عليه الصلاة والسلام قائماً أمام عيون القلب».

لأن الحق سبحانه وتعالى قد كرم نبيه وحبيبه عليه الصلاة والسلام وأحسن إليه ورفعه إلى أعلى المقامات، عندما أوصله في المعراج إلى مسافة قريبة منه والتي وصفها بقوله: (قاب قوسين أو أدنى)، وخصه بسلام منه، إذ قال له:

«أيها النبي! السلام عليك ورحمة الله في الدنيا والآخرة».

إن الصلاة التي هي معراج المؤمن إنما هي في الوقت ذاته للتفكر بمشهد الإحسان الإلهي ونيل نصيب من الفيض منه.

ولهذا ينبغي عند إقامة الصلاة بذل كل جهد ممكن من أجل اقتباس شيءٍ من روحانية التحيات، فالتحيات بالنسبة لنا ذكرى باقية من المعراج. والمعراج مشهد التجلي الأكثر سرية لمحبة الحق سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلام والسلام وتقريبه من ذاته العلية. إن كلمة الشهادة التي تتردد في التحيات إلى جانب كونها تبين مدى رفعة مقام التوحيد والعبودية، فإنها في الوقت ذاته تعبر عن ضرورة الصلاة والسلام على النبي في المكان الذي ذكر فيه اسمه الشريف ﷺ. إذاً، إن هذا المحتوى الذي في الصلاة كأنه نافذة إلهية مفتوحة لتطل منها الحقيقة المحمدية على قلوبنا. والمحبُّون يتقربون من هذه النافذة إلى ربهم بالإيمان والعرفان، فيشاهدون



الأسرار الإلهية، وينظرون إلى الحقائق والتجليات السامية الجليلة. لذلك لا يمكن بلوغ كمال الإيمان دون إدراك السر الكامن في ذكر رسول الله ﷺ، هذا الذكر الذي يتم مع ذكر اسم الله تعالى عند النطق بكلمة الشهادة في كل جلسة تشهُّدٍ أثناء الصلاة التي هي انقطاع عن كل أمر دنيوي وتوجه خالص إلى الله تعالى.

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أمر المؤمنين جميعاً بالصلاة والتسليم على النبي ﷺ بوجد وشوق إيماني مظهراً من مظاهر محبتهم له، وجعل من صلاته وصلاة الملائكة عليه قدوة لهم، فقال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [٢٦٣]

إذاً؛ إن الذين يتوجهون إلى عبادة الله تعالى وإقامة الصلاة كما ينبغي يتجاوزون كل شيءٍ في الدنيا حتى أنفسهم، ويصبحون في حال من الصفاء والارتقاء الروحي بحيث ينسون الدنيا وما فيها.

يعبر حضرة مولانا عن العباد القادرين على أداء مثل هذه الصلاة بقوله:

«إنهم إن قاموا بالتكبير وبدؤوا الصلاة، غادروا هذه الدنيا مثل الأضاحي».

٢٦٣ الأحزاب: ٥٦.



ثم ينادي المصلي فيقول:

«وأنت أيها المصلي إن كنت تريد أن تسير على خطاهم فقم وأدِّ الصلاة مثل الشمعة التي في المحراب! واعلم أنه عندما تبدأ الصلاة فإن معنى قول الله أكبر هو: يا إلهي! لقد صرنا في حضرتك فداءً لك! وإننا برفعنا أيدينا إلى آذاننا من أجل التكبير قد تركنا كل شيءٍ خلفنا، وتوجهنا إليك وحدك!»

«فكما أنك تقول (الله أكبر) عند ذبح الأضحية، فإن هذا القول يُردَّد أيضاً عندما يُضحَّى بالنفس المستحقة للقتل»

«فالجسم في تلك الأثناء كإسماعيل، والروح كإبراهيم الخليل. والروح حينما تكبر من أجل قطع أهواء الجسم ونزواته، فإن الجسم يتحرر من الشهوات والأطماع، وبقول (بسم الله الرحمن الرحيم) في الصلاة يصبح أضحية وينتهي»

«إن الذين يقيمون الصلاة يقفون في صفوف في حضرة الله تعالى كما يقفون أمامه يوم القيامة، ويبدؤون بالتضرع والتوسل من أجل الحساب»

«إن الوقوف في الصلاة والدموع منهمرة يشبه الوقوف في حضرة الله تعالى في أرض المحشر عندما يُبعث الناس ويخرجون من قبورهم، والله تعالى سوف يقول: (ماذا فعلت في العمر الذي منحتك إياه؟ وماذا كسبت وماذا أحضرت إلي؟)».



«وفي حضرة الله تعالى ترد مئات آلاف الأسئلة والأخبار مثل هذه الأسئلة والتي تراكم الهموم فوق الهموم»

«والعبد عندما يكون في حال القيام في الصلاة فإنه يستحي من الخطاب الإلهي، ومن شدة حيائه ينثني جسده، فيميل نحو الركوع، لأنه لم يعد يمتلك طاقة تعينه على البقاء واقفاً من هذا الحياء، فيسبح الله تعالى في الركوع ويعظمه وينزهه عن كل نقص بقوله: (سبحان ربي العظيم)»

«وبعدها يأتي القرار من الحق سبحانه وتعالى إلى ذلك العبد الراكع أن: (ارفع رأسك، فقد أُجِبتَ)»

«فيرفع العبد رأسه من الركوع وقد أطبق عليه الخجل والحياء، إلا أنه لا يتحمل، فيلقي بنفسه على الأرض ساجداً لمولاه من شدة حيائه»

«فيأتيه القرار هذه المرة أن: (ارفع رأسك من السجود، وأخبرنا عما فعلت)»

«فيستحي مجدداً ويرفع رأسه، إلا أنه لا يحتمل الأمر، فيخر بوجهه على الأرض ساجداً»

فيقول الحق ﷻ: «ارفع رأسك، وإني سائلك عن دقائق ما فعلت»

«ونتيجة للتأثير الشديد الذي تركه عليه الخطاب الإلهي المهيب، تفرغ طاقته ويعجز عن الوقوف على قدميه، ويضطر إلى



القعدة بسبب هذا الحمل الثقيل على كاهله، فيجثو على ركبتيه، فيقول الحق سبحانه وتعالى: هيا يا عبدي تكلم! ألم أعطك نعمي؟ ما صنعت بها؟ هل أديت شكرها؟ لقد أعطيتك رزقاً مادياً ومعنوياً، فما كسبت بها؟»

«فيدير العبد وجهه نحو اليمين، ويسلم على أرواح الأنبياء وعلى الملائكة. ويقول لهم: يا سلاطين القلوب! اشفعوا لهذا الرجل المسيء، فقد انغمست قدماه وعباءته في الأوحال»

«فيقول الأنبياء للعبد الذي ألقى عليهم السلام: لقد مضى يوم الحلول والعون وانقضى، فالحل كان ممكناً في الدنيا، وإنك لم تعمل الخير فيها، ولم تقم بالعبادات، وقتلت وقتك باللهو واللعب!»

«فيدير العبد وجهه هذه المرة نحو الشمال، ويطلب العون من أقربائه، إلا أنهم يقولون: اصمت! فمن نحن حتى نعينك؟ لا تأمل منا شيئاً؛ وإنما أجب بنفسك أمام ربك!»

«فيتفطر قلب العبد الذي لا يعثر على حل لحاله لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، فيرفع يديه إلى السماء وقد قطع أمله من كل ما حوله، ويبدأ بالتضرع والالتجاء بحال من الانكسار والعجز والخنوع، فيقول: يا رب! إني قد قطعت أملي ورجائي من كل مخلوقاتك، يا رب! أنت الملجأ الأول والأخير الذي يلوذ به عبادك، وها أنا ألتجئ إلى واسع رحمتك ومغفرتك».



ويتابع مولانا الذي منحه هذا التفكر، فيقول: اصغِ السمع إلى البيان الآتي:

«انظر إلى هذه الإشارات الرائعة التي في الصلاة، وافهم بأن هذا ما سوف يحدث في النهاية لا محالة! ضع عقلك في رأسك، واحرص على صلاتك، واعمل على الاستفادة منها ليس فقط ظاهرياً، وإنما روحياً أيضاً! ولا تكن مثل الطائر الذي يجمع الطعام من الأرض بنقره، تضع رأسك على الأرض وترفعه غافلاً عن الله ﷻ!»

واصغ السمع إلى بيان النبي ﷺ القائل:

«إن أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته»[٢٦٤]

«إن صلاة المصلي الذي يؤديها بإخلاص قلب، ويصعد خلالها إلى عالم مغاير تماماً للعالم المادي الذي حوله، حيث يدخل في حالة مشاهدة المحبوب، ويبكي بحرقة ولوعة شوقاً وسروراً به، إن هذه الصلاة هي التي تكون مقبولة وذات قيمة عند الله تعالى لدرجة أن الحق سبحانه وتعالى ينادي لهذا المصلي: «لبيك يا عبدي».

ورد حديث عن النبي ﷺ حول حال العبد الذي يخشع في صلاته، والعبد الذي لا يستطيع الخشوع فيها، إذ يقول النبي ﷺ:

«إن الرجلين ليكونان في الصف الواحد والفرق بينهما في صلاتهما كما بين السماء والأرض»[٢٦٥]

---

٢٦٤ الحاكم: المستدرك، ١، ٣٥٣/ ٨٣٦.

٢٦٥ ابن رجب الحنبلي: مجموع رسائل، ١، ٣٥٢.



ولهذا فإن المؤمنين الحقيقيين الذين يحافظون على صلاتهم وعلى تحقيق الخشوع الذي أشارت إليه الآيات القرآنية، يُعدون ممن أدوا وراعوا حق الصلاة على أحسن وجه، والذين وصفهم القرآن الكريم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢٦٦]

وأيضاً جاء في السورة نفسها:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٢٦٧]

قال العارفون:

«إن المراد من هذه الآية الكريمة إنما هو روح الصلاة، لأن صورة الصلاة التي يؤديها العبد لا تعني الدوام والاستمرار. فهناك ركوع وسجود للروح؛ والركوع والسجود الذي في الصلاة بالشكل المعروف هو من الناحية الظاهرية للصلاة، وأما الصلاة الدائمة فهي عدم الابتعاد عن ذكر الله تعالى في سائر الأحوال والظروف».

يعطي مولانا جلال الدين الرومي لهذه الآية معنى مجازياً، فيقول:

«إن العبد يحافظ على الحالة التي يكون عليها في الصلاة حتى بعد انقضاء صلاته، وبذلك فإنه يمضي كل سنوات عمره

٢٦٦ المعارج: ٣٤.

٢٦٧ المعارج: ٢٣.

محافظاً على الأدب والخشوع، ومحافظاً أيضاً على قلبه ولسانه من الانحراف، وهذه الومضات الحقيقية هي حال أهل الحق»

ويتابع قوله:

«إن الصلاة التي ترينا الطريق الصحيح، وتمنعنا عن ارتكاب المعاصي والذنوب إنما هي الصلاة التي تقام في خمسة أوقات، في حين أن العاشقين دائماً في حالة الصلاة، لأن العشق والمحبة الإلهية التي في قلوب العاشقين لا تخمد ولا تنتهي لا بالأوقات الخمسة، ولا بآلاف الأوقات!»

«إن صلاة العاشق تشبه حالة السمك في الماء، فكما أن روح السمكة لا تعيش من غير ماء، فإن روح العاشق أيضاً لا تفرح ولا تذوق طعم الطمأنينة والسكون إن لم تكن في الصلاة كل حين، لذلك فإن قول: (خفف من زيارتي) لا يتوافق مع العاشقين، فأرواحهم شديدة التعطش إلى لقاء المحبوب»

«فلو فارق العاشق محبوبه ولو طرفة عين، فكأنه فارقه آلاف السنين، وإن وُجِد المحبوب بجانبه لآلاف السنين يُعد في نظره لحظة عابرة، ولهذا فإن العاشق في حالة صلاة على الدوام رغبةً منه في الوقوف في حضرة الحق ﷻ، لأن الصلاة هي الوسيلة الوحيد لبقاء قلبه مع ربه، فآلاف الركعات التي يصليها العاشق تُعد في نظره ركعة واحدة، إلا أنه إذا فارق الصلاة بقدر ركعة واحدة فإن قلبه يكتوي ويتفطر حزناً وكأنه لم يصل آلاف الركعات»



«فيا أيها العاقل! إن فهم المعية التي في الصلاة ليس مما يقرره عقلك، وإنما فهم هذا الأمر مرتبط بتقديم العقل قرباناً للمحبوب، وإحياء القلب والروح»

وأما إحياء القلب فمتعلق بالقبلة التي يتوجه إليها العبد، وهذا ما يبينه أحد الأولياء بقوله:

«إن التاج والقلادة قبلة السلاطين، والذهب والفضة قبلة طلاب الدنيا، وقبلة المفتونين بالصور الأجسامُ والأشكال التي تتكون من الماء والطين؛ وقبلة العالمين بالروحانيات الروحُ والقلب، وقبلة الزهاد المحراب، وقبلة الغافلين أعمال اللهو واللعب، وقبلة الكسالى النوم والطعام، وقبلة الإنسان التزود بالعلم والعرفان، وقبلة العاشق الوصال الأبدي، وقبلة العارفين جمال ذي الجلال، وقبلة أهل الدنيا المال والجاه، وقبلة أهل المسالك لوازمُ الطريقة، وقبلة الجشعين الهوى، وقبلة أهل القناعة التوكل على الله تعالى.

واعلم أن القبلة التي نتوجه إليها ليست بناء الكعبة، وإنما المكان الذي فيه البناء، وذلك لأنه لو نقلت الكعبة من مكانها إلى مكان آخر فلا تعد في ذلك المكان قبلة لنا».

لذلك عندما تتوجه بجسمك نحو الكعبة من أجل الصلاة فيجب أن يكون اتجاه القلب إلى الله تعالى، لأن قبلة القلب الله سبحانه وتعالى.



ولكي يحقق الإنسان الخشوع ويحافظ عليه، لا بد أن تكون لديه نية كاملة تناسب الصلاة انطلاقاً من الحديث الشريف القائل:

«**إنما الأعمال بالنيات،...**»[٢٦٨]

وهذا الأمر يتطلب أن يكون الإنسان واعياً ومنتبهاً لنوع الصلاة التي يؤديها ووقتها، وبين يدي من يقف، وكذلك التحكم بكل ما يرد في القلب من خواطر، والابتعاد عن الغايات التي تكون منافية لتحقيق رضا الله تعالى.

فبالتكبير ينبغي أن يشعر المصلي في قلبه بعظمة الله تعالى وقدرته، إلى جانب التلفظ به بالشكل الصحيح. وحينما يرفع اليدين عالياً إلى محيط الأذنين ينبغي أن يرمي كل أمور الدنيا وراء ظهره، ويجد في قلبه لذة الحضور بين يدي الحق سبحانه وتعالى، ويبدأ صلاته بحالة روحانية تجعله يخرج من هذا العالم الفاني لينتقل إلى عالم الآخرة.

وفي القيام ينبغي أن يحصر بصره بالنظر إلى مكان السجود، وأن يبذل غاية جهده لأن يبلغ قمة العبودية ويكون من زمرة الصالحين الذين يباهي الله تعالى بهم ملائكته، وذلك من خلال إظهار عجزه، واحتياجه، واستسلامه المطلق للحق سبحانه وتعالى دون أن يفارق قلبَه شعورُ وجوده في حضرة الله تعالى ولو لحظة واحدة.

---

٢٦٨ البخاري: بدء الوحي، ١.



وفي القراءة ينبغي أن يحسِن قراءة الآيات القرآنية المباركة بتمهل وإخراج حروفها من مخارجها، وأن يعمل على التفكر والتدبر بمعانيها على قدر فهمه وعلمه، وأن يعكس هذه المعاني على مناحي حياته، وأن يكون خلال تلاوة الآيات باللسان بحالة من السكينة والوقار، ويقظة القلب، يقول الحسن البصري:

«**مَن أراد أن يكلمه الله فعليه بالقرآن**».

وأما التسبيح في الركوع فينبغي أن يقرأه بمشاعر من الوقار والتعظيم، وبتفكر معانيه.

وكذلك التسبيح في السجود ينبغي أن يردده متفكراً بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، وينبغي أن نسجد بروحنا إلى جانب سجودنا بأجسامنا في شعور وإدراك تام بأن لحظات السجود هي اللحظات التي يكون فيها العبد أكثر قرباً من ربه، وننهل من سر الآية القرآنية القائلة: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾وبذلك ينبغي للإنسان أن يشعر بالسعادة والمتعة الروحية لبلوغ مرضاة الله، ويعيش عمره في سبيل إتمام الانضمام إلى قافلة محبي الله ﷻ.

وفي جلسة التشهد على العبد أن يدخل في آفاق معاني التحيات التي بيناها سابقاً، ويجلس في الحضرة الإلهية بكل تعظيم وتبجيل، ثم يدعو بحال من التضرع والانكسار والافتقار، والتذلل على أعتاب خالقه كالغريب الذي انقطع في أرض بعيدة عن جميع أهله وخلّانه.



وحينما يصل إلى السلام والخروج من الصلاة ينبغي أن يكون العبد بحال من الفرحة والسرور وكأنه يشارك الملائكة الذين عن يمينه وعن شماله لذة العبودية ولذة الوصال التي تذوقها بالصلاة التي تنقل العبد إلى دار السلام؛ أي إلى جنة الخلد.

وإن كانت الصلاة قد أقيمت بالشكل الذي يرضي الله تعالى ويجعلها مقبولةً عنده، فإن رد الملائكة على السلام الذي يلقيه العبد عن يمينه وشماله يكون في الدنيا والآخرة كما يلي:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [269]



إن حال الخشوع والأدب التي تحدثنا عنها بشأن الصلاة ليست بذاك الأمر الشاق الذي يستحيل الوصول إليه أو فوق الطاقة البشرية، ولا ينبغي أن نعتقد بأن اللذة السامية التي في الصلاة هي عبارة عن تخيل أو تزيين للألفاظ، لأن صلاة رسول الله ﷺ الذي علمنا الصلاة كانت مثلما ذكرنا، وصلاة الصحابة الكرام الذين نالوا من تربيته الروحية، وصلاة أولياء الله الذين ساروا على درب الصحابة الكرام، إنما هي مشاعل نستضيء بها.

---

٢٦٩ الرعد: ٢٤.



صلاة رسول الله ﷺ

تذكر الروايات عن صلاة الرسول ﷺ أنه لما كان يقف في الصلاة بين يدي ربه ﷻ كان يصدر من صدره نشيج بكاء مثل صوت الرحى. يتحدث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عما شاهده من حالة النبي ﷺ في صلاته، فيقول:

«ولقد رأيتنا يوم بدر وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح». [٢٧٠]

وإلى جانب حال البكاء التي كان يصطبغ بها سيد العالمين سيدنا محمد المصطفى ﷺ، فقد كان بين الحين والآخر يخرج صوت من صدره أثناء الصلاة كأزيز المرجل الذي يغلي فوق النار.

يقول الله بن الشخير رضي الله عنه:

«أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء». [٢٧١]

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها واصفة حال النبي ﷺ مع الصلاة:

«كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». [٢٧٢]

٢٧٠ فضائل الأعمال: ٢٩٩.

٢٧١ النسائي: السهو، ١٨.

٢٧٢ فضائل الأعمال: ٣٠٣.

إذاً؛ ينبغي أن تكون غاية القلب العظمى الشعورُ بهذه الحالة الروحانية السامية في الصلاة، وإن لم يستطع العبد تحقيق هذه الحالة بتمامها فينبغي على الأقل أن يفرد جناحيه محاولاً التحليق نحوها ما أمكنه ذلك، أي إن أحوال النبي عليه الصلاة والسلام في صلواته كالنجوم في السماء، فكلما اقتربنا منها، نلنا مزيداً من فيوضاتها.

وكما أنه لا يمكن أن نصل الكمال بقفزة واحدة في أي عمل أو حركة، فكذلك الأمر في العبادات، إذ إنها تبدأ في مراحلها الأولى على شكل تقليد سطحي، تماماً مثل الفنان الذي يمر بمراحل وتجارب كثيرة حتى يصل إلى مرحلة الاتقان والكمال في مهنته، فإن ترقي العبد في عباداته أيضاً يحتاج إلى الوقت والمثابرة. لذلك لا بد من أن يدرك المصلون الذين لا يستطيعون بلوغ الكمال في صلاتهم هذه الحقيقة، ويكملوا مسيرة صلاتهم دون أن يصيبهم إحباط أو يأس. وكما أن الوصول إلى غرام من الذهب بحاجة إلى تصفية أطنان من التراب، فينبغي أن يبذل العبد جهده بصبر وثبات ويتابع مسيره ولو بتقليد وحركات سطحية من أجل الوصول إلى الطمأنينة والخشوع في الصلاة.

لذلك من الضروري أن يعيش المصلي سر هذا الحديث النبوي الشريف:



«إذا قمت في صلاتك، فصلِّ صلاة مودع،...» [٢٧٣]

أي تجعلها آخر صلاة في حياتك.

وقد كانت أحوال الصحابة الكرام الذين رُبوا في مجالس النبي عليه الصلاة والسلام، وأحوال أهل الله الذين ساروا على آثارهم ونهجهم تجسيداً حقيقياً لمحتوى هذا الحديث النبوي الشريف.

صلاة عظماء المسلمين

عمر بن الخطاب ﵁: لقد أُصيب عمر بن الخطاب ﵁ بجراح بليغة بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وأخذ الدمِ ينزف من جسمه المبارك، حتى إنه بعد مرور لحظات من الإصابة، أُغشيَ عليه ودخل في غيبوبة لكثرة الدم الذي فقده، إلا أن عمر ﵁ كان عند دخول كل صلاة، ينادي الصحابةُ في أذنه:

الصلاة يا عمر! الصلاة! وذلك لعلم الصحابة الكرام بشدة تعلقه بالصلاة.

فكان يصحو من غيبوبته وينهض بإرادة تدعو إلى الحيرة والعجب، ثم يؤدي صلاته، ويردد قوله:

«لا إسلام لمن ترك الصلاة!» ثم يغشى عليه مرة أخرى ويغيب عن الوعي.

---

٢٧٣ ابن ماجه: الزهد، ١٥/ ٤١٧١.

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لقد كان الإمام علي ﵁ إذا وقف في الصلاة يصفر لونه، ويغيب عن نفسه. وأصيب ﵁ في أحد المعارك بسهم في كعب قدمه، وأراد الصحابة الكرام إخراج السهم ومعالجته، فقام إلى الصلاة وقال لهم: إن دخلت في الصلاة أخرجوا السهم. ففعل الصحابة ذلك، ولم يشعر علي ﵁ بألم ولا بالسهم كيف أُخرِج، وقد سأله بعض الصحابة، فقالوا:

- يا أمير المؤمنين! ما بالك إذا قمت إلى الصلاة يتغير لون وجهك، ويرتجف جسمك؟

فقال:

- لأنه يكون قد جاء وقت أداء الأمانة التي عجزت السموات والأرضين والجبال عن حملها، وإني لا أعلم إن كنت سوف أؤديها حقها أم لا.

وكان جميع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم إذا ما وقفوا في الصلاة، تُطبِق على قلوبهم عظمة الله تعالى وخشيته.

الحسن بن علي ﵁: لقد كان الحسن ﵁ إذا ما أخذ يتوضأ للصلاة يتغير لونه، فسأله أحد الصحابة الذي رأى حالته هذه:

- لمَ يصفر لون وجهك حينما تتوضأ للصلاة؟

فقال الحسن ﵁:

- لأنه قد حان وقت الوقوف بين يدي الله العزيز الجبار.



وكان الحسن ﵁ إذا دخل المسجد يدعو بقوله:

«يا رب! إن عبدك ببابك، اللهم يا لطيف ويا محسن! قد جاءك عبدك المذنب، وإنك يا عفو ويا كريم أمرت عبادك الصالحين بالعفو والصفح عن عبادك المسيئين، اللهم فبكرمك وعفوك تجاوز عن سيئاتي وارحمني برحمتك!»

وكان زين العابدين رحمه الله إذا ما قام إلى الوضوء يصفر لون وجهه ويذبل، وإذا ما بدأ بالصلاة ترتعد قدماه، وقال لمن سأله عن سبب ذلك:

ألا تعلم بين يدي من أقف؟

وذات مرة بينما كان يقف في الصلاة اندلعت النيران في بيته، إلا أنه لم يشعر بالحريق من حوله، ولما سلم وخرج من الصلاة أخبروه بأمر الحريق، وقالوا له:

- ما الذي حال دون شعورك بالنار التي كانت تلتهب في بيتك؟

فقال زين العابدين:

- إن النار التي بانتظارنا في الآخرة منعتني من الإحساس بنار الدنيا الضعيفة.

وكانت صلاة مسلم بن يسار رحمه الله تعالى كهذه الصلاة، فقد كان ذات يوم يصلي في أحد المساجد في البصرة، وأثناء الصلاة تهدم جزء كبير من المسجد وحدثت ضوضاء عظيمة، إلا أن مسلم



بن يسار تابع صلاته دون أن يشعر بما حدث حوله، ولما سلَّم، قال له الحاضرون:

- لقد تهدم المسجد وأنت لم تهتز لك شعرة، فما هذه الحال؟

فاستغرب مسلم من كلامهم، وقال:

- أتهدم المسجد؟

فبيَّن لهم أنه لم يشعر بشيءٍ من ذلك أثناء الصلاة.

ومكث سفيان الثوري رحمه الله مرة في بيته سبعة أيام متتالية، لم يذق خلالها طعاماً ولا شراباً، فذهب الناس إلى شيخه وأخبروه بحاله، فسألهم الشيخ:

- هل يعي دخول أوقات الصلاة؟

فقالوا:

- إنه يعي ذلك ويؤدي صلواته على أكمل وجه.

فلما سمع الشيخ جوابهم، قال:

- الحمد لله الذي لم يسلط عليه الشيطان.

يقول واحد من أهل الله:

«كنت أصلي ذات يوم خلف ذي النون المصري صلاة العصر، فلما قال ذلك الولي المبارك عند التكبير «الله» تأثرَ بذكر لفظ الجلالة تأثراً عظيماً، حتى كأنه لم يبقَ في جسده روح أبداً، ولما استعاد وعيه، وقال: «أكبر» تفطر قلبي من هيبة التكبيرة التي كبرها».



وكان عامر بن عبد الله رحمه الله عندما يقف في الصلاة تنقطع صلته عن كل شيءٍ في العالم الخارجي المحيط به، ولم يكن هناك أمر من الأمور يمكن أن يفسد عليه خشوعه في الصلاة، وكان يقول:

«إني لأفضل أن تصيب السهام جسمي على أن أشعر في الصلاة بكلام الناس من حولي أو أفعالهم».

إن الذين لم يدخلوا اليوم في أجواء الصلوات التي كان يؤديها الصحابة والتابعون، ولم يستطيعوا الولوج إلى روحانيتها، وقفوا مستغربين من الكلام عن تلك اللذة التي يشعر بها المصلي في صلاته، وبلغ الأمر ببعضهم إلى حد إثارة الشكوك حول حقيقة تلك الأحوال الروحانية السامية. ولا يتبادر إلى ذهن هؤلاء المشككين بأنه إذا كان حتى الناس الغافلون يسكرون بنشوة الملذات والمتع المادية الفانية حتى أوقات السحر، أفليس من الأولى أن تتلذذ القلوب الصالحة باللذة الروحانية التي تفوق بفضلها وقيمتها تلك المتع المادية والفانية بأضعاف مضاعفة؟ لكن مما لا شك فيه أنه من العسير إفهام هذا الأمر للذين حرموا من تذوق هذه اللذة الروحية. ويصدِّق الذين اُبتلوا بالغفلة بل ويجزمون بأن لذة اللقاء مع الأحباب الفانين تنسي المحب كل شيءٍ في الدنيا، بينما يعجزون عن إدراك لذة الصلاة التي هي لقاء المحب بمحبوبه الحق سبحانه وتعالى؛ وما هذه الحالة إلا أكبر حالات الغفلة والحرمان التي يُبتلى بها الإنسان.



وعلى أي حال، إن الصلاة الحقيقية ترفع العبد إلى مرتبة معرفة الله، وإلى مرحلة كمال الشكر والعبودية، لهذا فإن أداء الصلاة يكون هيناً على الذين امتلأت قلوبهم بمحبة الله تعالى وبلغوا مرحلة الإيمان الراسخ، وتوصلهم الصلاة إلى حال من اللذة الاستثنائية التي يصعب فهمها أو وصفها لمن حُرِمَ منها، وبهذا فإنهم لا يفارقون الصلاة ولو للحظة واحدة لا ظاهراً ولا باطناً. كان أويس القرني رحمه الله تعالى إذا وقف في الصلاة لا يريد تركها أبداً، ولا يغادرها إلا لقضاء حاجة بشرية ضرورية. ذات يوم جاء رجل لزيارة أويس القرني فوجده في الصلاة، فانتظر الرجل حتى يفرغ أويس من صلاته، وطال انتظاره كثيراً حتى سلَّم، إلا أنه ما إن سلَّم حتى بدأ بالصلاة مرة أخرى، فقال الرجل مخاطباً لنفسه:

- أيها القلب! لقد جئتَ إلى الشيخ كي تنتفع من علمه. فها هي حاله المتألقة قد تحولت إلى لسان يقدم لك أجمل النصائح! ولم تعد هناك حاجة إلى الكلام الظاهري! فإن استطعت أن تستخلص لك درساً من حاله هذه، فلسوف يغنيك عن الدروس مدى الحياة!

لقد صارت هذه الحال صحبة فياضة لذلك الرجل ضمن هالة من الصمت دون أي حديث أو قول. فغادر الرجل المكان مكتفياً بالسكينة والطمأنينة التي ملأت قلبه والتي انعكست إليه من حال الشيخ.

أما المحرومون من هذه الحالة فيصف الله تبارك وتعالى وضعهم في القرآن الكريم، فيقول:



﴿... وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[274]

ولا بد أن نشير هنا إلى حقيقة أنه وإن لم يكن بإمكاننا الوصول إلى المراتب والمستويات العالية والرفيعة التي وصلَ إليها في الصلاة أهل الله والصالحون من عباده، إلا أنه ما ينبغي أن نركن إلى الاستسلام والشعور بالعجز، وإنما يجب أن نبذل جهوداً ونُخلص بقدر ما تملكه قلوبنا من طاقة، ونحاول التشبه بأولئك الأولياء. فالشيطان يأتي الإنسان بوساوس كثيرة عن يمينه وعن شماله ليجره من تهلكة إلى تهلكة أعظم، ومن هذه الوساوس همسه للإنسان: «عدم أداء الصلاة أفضل من أدائها بشرود وغفلة قلب»، وذلك في محاولة منه للإيقاع به في مصيدته، لذلك فإن مثل هذه الأفكار الشيطانية سبب كبير للهلاك. فينبغي أن يكون تفكير الإنسان على عكس هذه الوسوسة الشيطانية، وهو أداء الصلاة ولو بشرود ذهن خير من عدم أدائها على الإطلاق، فالفرق كبير بين هذا التفكير والتفكير الشيطاني. إذ إن الذي لا يصلي أبداً يضر بنفسه، أما من يقيم الصلاة- ولو كانت ناقصة- قد يأتي يوم فيشمله الله تعالى بلطفه وإحسانه، ويوفقه إلى أداء الصلاة بالصورة التي تكون جديرة بقبوله وتقديره. فلو أننا تمكنا- ولو في العمر مرة واحدة- من أداء الصلاة بخشوع وانقطاع تام عن الدنيا وما فيها، لأمكننا أن نقف بين يدي ربنا عَزَّ وَجَلَّ.

٢٧٤ البقرة: ٤٥.



الصلوات الخمس المفروضة

لقد أُوحيَ للنبي عليه الصلاة والسلام بالفرائض بواسطة جبريل ﷺ، إلا أن الصلوات الخمس المفروضة قد فُرضت بصورة مختلفة عن الفرائض الأخرى، إذ كانت هديةً لسيد العالمين سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم في ليلة المعراج من الحق سبحانه وتعالى.

وقد فُرضت الصلاة في البدء خمسون صلاة، قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«فرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى آتي على موسى، فقال موسى: ماذا افترض ربك على أمتك؟ قلت: فرض علي خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت ربي، فوضع عني شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعت ربي،فقال: هي خمس وهي خمسون،[٢٧٥] لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال: ارجع إلى ربك، فقلت: قد استحييت من ربي»[٢٧٦]

٢٧٥ أي خمسة أوقات بأجر صلاة خمسين وقتاً.

٢٧٦ انظر: ابن ماجه: إقامة الصلاة، ١٩٤/ ١٣٩٩.



ويقول النبي عليه الصلاة والسلام عن هذه الصلوات الخمسة المفروضة على أمته:

«قال الله ﷻ افترضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندي عهداً أنه من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندي»[٢٧٧]

ويقول رسول الله ﷺ في حديث نبوي آخر:

«خمس صلوات افترضهن الله على عباده، فمن جاء بهن لم ينتقص منهن شيئاً استخفافاً بحقهن فإن الله جاعل له يوم القيامة عهداً أن يدخله الجنة، ومن جاء بهن قد انتقص منهن شيئاً استخفافاً بحقهن لم يكن له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[٢٧٨]

ولكي يبين رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام أهمية الصلوات الخمسة، ويوضح لهم محتواها، سألهم ذات مرة:

- **«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول: ذلك يبقي من درنه؟»**

فقال الصحابة:

- لا يبقي من درنه شيئا.

٢٧٧ ابن ماجه: إقامة الصلاة، ١٩٤/ ١٤٠٣.

٢٧٨ ابن ماجه: إقامة الصلاة، ١٩٤/ ١٤٠١.

فقال رسول الله ﷺ:

- «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا**» [279]

وفي أحاديث شريفة أخرى يقدم النبي عليه الصلاة والسلام البشارات الآتية لأصحابه ولأمته جمعاء، إذ يقول:

«**الصلاة الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن. ما لم تغشَ الكبائر**» [280]

«**ما من امرئٍ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها. إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله**»[281]

وينبغي أن نشير هنا أن لكل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة أهمية وقيمة خاصة تتميز بها عن غيرها من الصلوات. وإن في توزيعها على أوقات معينة من اليوم الكثير من الفوائد والحكم للإنسان سواء من الناحية الروحية أو من الناحية الجسدية.

وبناءً على ذلك ينبغي أن لا تظهر غفلة في أمر أداء كل صلاة من هذه الصلوات بعناية واهتمام خاص بها بالقلب. حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

---

٢٧٩ البخاري: المواقيت، ٦/ ٥٢٨؛ مسلم: الصلاة، ٢٨٣/ ٦٦٧.

٢٨٠ مسلم: الطهارة، ١٤/ ٢٣٣.

٢٨١ مسلم: الطهارة، ٧/ ٢٢٨.



﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [٢٨٢]

يبين عبد الله بن عباس ﵄ بأن هاتين الآيتين تتضمنان أوقات الصلاة الخمسة، فيقول:

قول الله تعالى: **﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾** إشارة إلى صلاة الفجر.

وقوله: **﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾** إشارة إلى صلاة الظهر.

وقوله: **﴿وَعَشِيًّا﴾** إشارة إلى صلاة العصر.

وقوله: **﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾** إشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء.

وإضافة إلى هذه الآية، هناك آيات كثيرة فيها مختلف الإشارات والأوامر التي تتعلق بصلوات الفرض.

يقول الشيخ السفيري في أهمية الصلوات الخمس:

«تقول الملائكة لتارك صلاة الفجر: يا فاجر!

ولتارك صلاة الظهر: يا خاسر!

ولتارك العصر: يا عاصي!

ولتارك المغرب: يا كافر!

ولتارك صلاة العشاء: يا مضيع ضيعك الله ...»

---

٢٨٢ الروم: ١٧ – ١٨.

ومن جهة أخرى ينبغي الحرص على صلوات السنن التي تسبق الفرائض الخمس أو تأتي بعدها، وعدم إهمال أدائها. وهذه السنن عباداتٌ بيَّنها النبي ﷺ وطبقها بنفسه، وتبدو كأنها متممات للصلوات الموقوتة. ونورد فيما يأتي بعضاً من الأحاديث النبوية التي تتحدث عن هذه السنن: يقول رسول الله ﷺ:

«**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»[٢٨٣]

«**رحم الله امرءاً صلّى قبل العصر أربعاً**» [٢٨٤]

«**من ثابر على اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة دخل الجنة، أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر**»[٢٨٥]

عن علي رضي الله عنه، قال:

«كان النبي ﷺ يصلي قبل العصر أربع ركعات يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة المقربين،...»[٢٨٦]

إن أحد أهم الأمور التي تتعلق بالصلاة هو أداؤها في وقتها. فالنبي عليه الصلاة والسلام كان كلما سئل:

٢٨٣ مسلم: صلاة المسافرين، ٩٦/ ٧٢٥.

٢٨٤ الترمذي: الصلاة، ٢٠١/ ٤٣٠.

٢٨٥ النسائي، قيام الليل، ١٧٩٤.

٢٨٦ الترمذي: الجمعة، ٦٦/ ٤٢٩.



- أي العمل أحب إلى الله، أو أي العمل أفضل؟

كان أول رده:

- **الصلاة على وقتها.**[287]

والمقصود بوقت الصلاة هو الفترة الممتدة من إحدى الصلوات إلى حين دخول وقت الصلاة التي تليها. إلا أنه من الأفضل أداء الصلاة في بداية دخول وقتها، إذ جاء في الحديث الشريف:

«الوقت الأول من الصلاة رضوان الله، والوقت الآخِر عفو الله»[288]



وتوجد صلاة فرض أخرى ما عدا الصلوات الخمس الموقوتة، ألا وهي صلاة الجمعة. ومع أن البحث بشأن هذه الصلاة طويل وله ذيول وتفرعات كثيرة، إلا أن الآية الكريمة الآتية كافية لبيان مدى أهميتها وعظيم شأنها عند الله تعالى، حيث يقول المولى عَزَّ وَجَلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[289]

٢٨٧ البخاري: مواقيت الصلاة، ٥.

٢٨٨ جمع الفوائد: ١، ١٦٣.

٢٨٩ الجمعة: ٩.



الصلوات النافلة

يقول الحق سبحانه وتعالى في الحديث القدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» [٢٩٠]

ولهذا فإن المؤمنين الصالحين يتبعون السنة النبوية السنية ويحرصون على الصلوات التي كان النبي ﷺ يصليها خارج أوقات الصلوات المفروضة، أي النوافل، فيصلون عند الخروج في سفر، وفي أوقات الخوف، وعند الحاجة، وفي الليل وساعات السحر. فهم من الزمرة الذين وصفهم الحق ﷻ في القرآن الكريم:

﴿...سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾ [٢٩١]

فالصلاة بالنسبة إلى هؤلاء لذة غير قابلة لا يُشبَع منها، فالنوافل استمرار لهذه الحالة التواقة إلى اللذة الروحية، لا سيما رسول الله ﷺ إذ على الرغم من أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقد كان

٢٩٠ البخاري: الرقاق، ٣٨/ ٦٥٠٢.

٢٩١ الفتح: ٢٩.



يقوم الليل ويطيل الصلاة حتى تتورم قدماه، وكان يقرأ القرآن حتى يأخذه التعب والإرهاق. لذلك لا صلوات الفريضة تمنع النافلة، ولا النوافل تشكل مانعاً من الفريضة. بل على العكس، إذ النوافل تقوم بوظيفة تقوية الفرائض. والمؤمن الصادق والملتزم يبذل غاية جهده من أجل أداء الفرائض والنوافل معاً.

وقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح. وإن فسدت فقد خاب وخسر. فإن انتقص من فريضته شيءٌ قال الرب ﷻ:

- انظروا هل لعبدي من تطوع! فيُكَمَّلَ بها ما انتقص من الفريضة؟

ثم يكون سائر عمله على ذلك»[٢٩٢]

فإن كان الأمر كذلك يوم القيامة، فإن قول:

«الفرائض وحدها كافية. ولنعمل على القيام بها على أكمل وجه!» لهوَ وقوع في غفلة عظيمة.

ذلك أنه لا يستطيع الإنسان- مهما حاول- الوفاء بالصلوات المفروضة على أكمل وجه دون عيوب أو نقص، ولا يمكن الجزم باعتبارها كلها قد أُديت بالشكل المقبول عند الله تعالى. فمهما بذلنا

٢٩٢ الترمذي: الصلاة، ١٨٨/ ٤١٣.

من جهدنا ومهما حرصنا على الصلاة وأدائها بالشكل الأمثل لا بد أن يقع بين الحين والآخر تقصير، أو نقص، أو موانع تبعد صلاتنا عن الشكل المقبول لطبيعتنا البشرية المتصفة بالعجز والنقص. ولذلك لا خيار أمامنا من أجل جبر هذا التقصير والنقص سوى أداء النوافل من الصلوات. وخاصة إذا علمنا أن الصلاة الفريضة المؤداة غير قابلة للتكرار، فهنا تظهر الحاجة الماسة إلى النوافل من أجل إكمال النقص الذي يحدث فيها. إلا أنه لا ينبغي أن يُفهم من هذا الكلام ترك الفرائض والانشغال بالنوافل. ونقول هنا؛ ليس من الصواب الانشغال على الدوام بالفرائض وإهمال النوافل، ولا الانشغال بالنوافل على الدوام وإهمال الفرائض. وإنما الصواب هو بذل الجهد لأداء النوافل قدر الإمكان إلى جانب أداء الفرائض. والتطبيقات العملية التي كانت تتم في حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه الكرام هي الخط الموجه الوحيد في هذا الشأن. ومن جهة أخرى نقول: إنه ليس من الصواب لمن لديه قضاء الفرائض الانشغال بشكل مستمر بقضاء ما عليه من الفرائض، وترك النوافل. وذلك لأن القضاء يمكن أداؤه في سائر ساعات اليوم ما عدا أوقات الكراهة. بينما هناك بعض الصلوات النافلة مرتبطة بأوقات معينة مثل صلاة التهجد، والإشراق، والضحى، والأوابين وغيرها، لذلك ينبغي أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.





يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه:

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته.

فقال لي: «**سلْ**»!

فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «**أو غير ذلك؟**».

قلت: هو ذاك.

فقال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**»[٢٩٣]

وورد في حديث نبوي آخر:

«**ما تقرب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجود خفي**»[٢٩٤]

أي إن أكثر ما يقرب العبد إلى ربه هي الصلوات النافلة التي يصليها في بيته. يقول شقيق البلخي:

«طلبنا خمساً فوجدناها في خمس:

١. طلبنا بركة القوت فوجدناها في صلاة الفجر.
٢. طلبنا ضياء القبور فوجدناه في صلاة الليل.
٣. طلبنا جواب منكر ونكير فوجدناه في قراءة القرآن الكريم.
٤. طلبنا عبور الصراط فوجدناه في الصوم والصدقة.
٥. طلبنا ظل العرش فوجدناه في الخلوة.

---

٢٩٣ مسلم: الصلاة، ٢٢٦/ ٤٨٩.

٢٩٤ إحياء علوم الدين، ١، ١٤٩.

ثمة نوافل مختلفة يمكن أن يصليها المسلم، وقد أخذت هذه النوافل مكاناً واسعاً لها في كتب الفقهاء لبيان أنواعها والأحكام المتعلقة بها. وإذا أردنا أن نتناول بعضاً من أهم هذه النوافل فإننا نورد الأمثلة الآتية:

- **صلاة الضحى**

يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«يصبح على كل سُلَامَى من أحدكم صدقة. فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة. ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[295]

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«ما سبح رسول الله ﷺ سُبحَة [أي صلاة] الضحى قط، وإني لأسَبِّحها [أي لأصليها]».[296]

- **صلاة الأوابين**

ورد في الحديث النبوي الشريف:

«من صلى ما بين المغرب والعشاء فإنها صلاة الأوابين»[297]

٢٩٥ مسلم: صلاة المسافرين، ٨٤/ ٧٢٠.

٢٩٦ البخاري: التهجد، ٥؛ مسلم: صلاة المسافرين، ٧٧.

٢٩٧ ابن المبارك: الزهد، ٤٤٥.



- **صلاة تحية المسجد**

يقول رسول الله ﷺ:

«**إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس**»[298]

- **صلاة التراويح**

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وكان يجتهد في العشر الأواخر من رمضان ما لا يجتهد في غيره»[299]

ولذلك يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«**من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه**» [300]

ولا شك أن صلاة التراويح تأتي في مقدمة الصلوات التي يتم بها هذا الإحياء. ومن المعروف أن العدد الأفضل لصلاة التراويح هو عشرون ركعة، وعلى الرغم من عدد الركعات الذي يفوق كل الصلوات الأخرى إلا أنه ينبغي عدم الاستعجال بها، وعدم إهمال مراعاة ما يعرف بتعديل الأركان الذي يكون مطلوباً عند أداء الصلوات الأخرى أيضاً. إذ من الضروري أداء هذه الصلاة مثل الصلوات الأخرى بمراعاة كافة آداب الصلاة، والابتعاد عن الغفلة المادية والمعنوية.

---

٢٩٨ البخاري: الصلاة، ٦٠/ ٤٤٤.

٢٩٩ مسلم: الاعتكاف، ٨٣٢.

٣٠٠ البخاري: الإيمان، ٢٧.

- **صلاة الاستخارة**

يقول جابر بن عبد الله ﵁:

«كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن...»[٣٠١]

- **صلاة الحاجة**

لقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في معرض بيانه ضرورة التجاء العبد إلى الله تعالى بالصلاة من أجل نيل حاجته سواء كانت الحاجة دنيوية أو أخروية:

«**من كانت له إلى الله حاجة، أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله، وليصل على النبي – ﷺ – ثم ليقل:**

لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين »[٣٠٢]

٣٠١ البخاري: التهجد، ٢٨.

٣٠٢ الترمذي: الوتر، ١٧/ ٤٧٩.



- **صلاة التهجد وقيام الليل**

إن لكل وقت خصوصية مميزة عن غيرها عند الله ﷻ. ولأن بعض الأوقات تحتوي على قيمة وفضل أكثر من غيرها كان من المهم استثمار هذه اللحظات على أكمل وجه وكما يليق بها. ومن أحد هذه الأوقات المباركة والقيمة هي ساعات الليل كما أخبر بذلك الحق ﷻ في القرآن الكريم والنبي ﷺ في الأحاديث الشريفة.

إن البركات والقيم التي خص الله تعالى بها الليل والأسرار التي أودعها فيه لا تعد ولا تحصى. والسر الكامن في قَسم ربنا سبحانه وتعالى بالليل الذي تجلى في آيات كثيرة مثل:

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾[٣٠٣]

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[٣٠٤]

ما هو إلا نافذة إلهية مفتوحة من أجل حمل عقولنا وقلوبنا على مشاهدة الحقائق الإلهية الكثيرة في الكون.

فالليل هو الوقت الذي يتخلى فيه العبد عن دفء الفراش وحلاوة النوم بدافع محبة الوقوف بين يدي الله تعالى من أجل نيل رضاه. ولذلك فإن الصلاة التي تقام في الليل على الرغم من عدم فرضيتها تحمل أهمية وقيمة كبيرة من ناحية مساهمتها في

---

٣٠٣ الإنشقاق: ١٧.

٣٠٤ الضحى: ٢.

القرب من الله تعالى. فكلما كانت محبة الله شديدة في القلوب، كانت الرغبة والهمة في أداء الصلاة بالليل قوية. ويمكننا القول بأن صلاة الليل تحمل طبيعة اللقاء والصحبة مع المعشوق، فهي تعني الاستيقاظ من النوم بينما الكل هاجع في فراشه، والدخول في أجواء رحمة المولى ﷻ، والحضور في مجلس المحبة الإلهية.

لقد كان رسول الله ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، ولما سئل:

- لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك؟ كما جاء في سورة الفتح.

قال رسول الله ﷺ:

- «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٣٠٥]

وقال رسول الله ﷺ أيضاً:

«**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة الصلاة في جوف الليل**»[٣٠٦]

«**ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها. ولولا أشق على أمتي لفرضتهما عليهم**»[٣٠٧]

«**إن من الليل ساعة، لا يوافقها عبد مسلم، يسأل الله خيرا، إلا أعطاه إياه**»[٣٠٨]

---

٣٠٥ البخاري: التهجد، ٦.

٣٠٦ مسلم: الصيام، ٢٠٢ – ٢٠٣/ ١١٦٣.

٣٠٧ فضائل الأعمال: ٢٥٧.

٣٠٨ مسلم: التهجد، ١٦٧/ ٧٥٧.



«من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعاً، كُتِبَا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[309]

«عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»[310]

«رحم الله رجلا قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت، نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى، نضحت في وجهه الماء» [311]

سأل النبي عليه الصلاة والسلام أبا ذر ﵁، فقال:

- **«يا أبا ذر، لو أردت سفراً أعددت له عدة؟»**

فقال أبو ذر ﵁:

- نعم يا رسول الله!

قال رسول الله ﷺ:

- **«فكيف سفر طريق القيامة؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم؟»**

قال أبو ذر ﵁:

٣٠٩ أبو داوود: التطوع، ١٨/ ١٤٥١.

٣١٠ الترمذي: الدعوات، ٣٥٤٩.

٣١١ أبو داوود: الوتر، ١٣/ ١٣٠٨/ ١٤٥٠.

- بلى بأبي أنت وأمي يا رسول!

فقال رسول الله ﷺ:

- **«صمْ يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصلِّ ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تسكت عنها»**[٣١٢]

وفي حديث آخر قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه:

«يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً، وميتاً، ومقبوراً، ومبعوثاً؟ قم من الليل فصلِّ وأنت تريد رضا ربك. يا أبا هريرة صلِّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا»[٣١٣]

ويقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا، فأقصها على النبي ﷺ، وكنت غلاماً شاباً، وكنت أنام في المسجد على عهد النبي ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. فلقينا ملك آخر، قال لي: لم ترعْ!

٣١٢ إحياء علوم الدين، ١، ٣٥٤..

٣١٣ إحياء علوم الدين، ١، ١٠٢٣.



فقصصتها على حفصة ﵂، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

- «نِعْمَ الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل»

فكان عبد الله ﵁ بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.[٣١٤]

وورد في الحديث النبوي أيضاً أن جبريل ﵇ قال للنبي ﷺ:

«يا محمد! ... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل»[٣١٥]

وروى ابن مسعود ﵁:

«إن الله ليضحك إلى رجلين: رجل قام في ليلة باردة من فراشه، ولحافه، ودثاره فتوضأ، ثم قام إلى الصلاة، فيقول الله ﷻ لملائكته: ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟ فتقول الملائكة: ربنا ! رجاء ما عندك، وشفقة مما عندك. فيقول الله ﷻ: فإني قد أعطيته ما رجا ، وأمَّنته مما يخاف...»[٣١٦]

وقد وردت آيات قرآنية كثيرة تحث العبد على ذكر الله تعالى والابتعاد عن الغفلة، وعلى الصلاة في الليل. ومن هذه الآيات:

﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾[٣١٧]

٣١٤ البخاري: التهجد، ٢/ ١١٢٢/ ١١٥٧؛ مسلم: فضائل الصحابة، ١٤٠/ ٢٤٧٩

٣١٥ الحاكم: المستدرك، ٤، ٣٦٠.

٣١٦ فضائل الأعمال: ٢٩٩.

٣١٧ ق: ٤٠.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[318]

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[319]

ولما عدَّد الله ﷻ في القرآن الكريم صفات الذين سوف ينجون من العذاب الإلهي يوم القيامة، ويدخلون الجنة، ذكر من تلك الصفات:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[320]

وعلاوة على ذلك فإن الله ﷻ في معرض مقارنته بين المؤمنين والمنكرين وبيانه فضل المؤمنين على المنكرين، قدَّم القائمين في الليل مثالاً للمؤمنين، ثم صنَّفَ الجميع في فريقين: الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إذ قال:

﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[321]

وقد حذَّرَ الله تبارك وتعالى الذين لا يرغبون بصلاة الليل ويغفلون عنها على الرغم من الوصف الآنف الذي ذكره للمؤمنين

---

٣١٨ الطور: ٤٩.

٣١٩ الفرقان: ٦٤.

٣٢٠ الذاريات: ١٧ – ١٨.

٣٢١ الزمر: ٩.



القائمين في الليل، وعلى الرغم من الآيات الكثيرة التي تحث على صلاة الليل وذكر الله تعالى، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا . إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلا﴾[٣٢٢]

إن أفضل ساعات الليل للعبادة هي النصف الثاني منه. ولأنه ليس من السهل إحياء الليل فينبغي مراعاة بعض الأمور حتى يتمكن العبد من إحيائه. فإلى جانب ضرورة توفر التشوق لدى العبد تجاه هذه العبادة هناك أمور أخرى لها أهمية كبيرة مثل التخفيف من طعام العشاء قدر الإمكان، والنوم مبكراً. ووفقاً لما جاء في الأحاديث النبوية:

«أن النبي ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء، والحديث بعدها»[٣٢٣]

والاستثناء من هذا الأمر- أي السهر بعد العشاء- لا يكون إلا لأسباب مشروعة مثل الأعمال التي تكون في سبيل الله ولا تشكل مانعاً من إحياء الليل. حيث يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إن النبي ﷺ كان يسمر هو وأبو بكر في الأمر من أمور المسلمين وأنا معهما»[٣٢٤]

---

٣٢٢ الإنسان: ٢٦ – ٢٧.

٣٢٣ انظر البخاري: مواقيت الصلاة، ٢٣.

٣٢٤ الترمذي: الصلاة، ١٢.

إن هذا الحرص على النوم المبكر هو من أجل التغلب على الصعوبة الكامنة في الاستيقاظ لصلاة الليل، وكذلك من أجل اكتساب العزيمة والقدرة لحل العقد التي يعقدها الشيطان على رأس الإنسان حين يستسلم للنوم. حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[٣٢٥]

يتبيَّن من كل ما ذكرناه أن صلاة الليل من أفضل العبادات ومن بعض الفرائض. إلا أننا نشير هنا بأنه من الضروري على من يقيم الليل تجنب الإعجاب بالنفس بعد أداء هذه العبادة الجميلة، لكي لا تذهب جهودهم وعبادتهم هباءً منثوراً، وينبغي لهؤلاء دائماً أن يضعوا في قلبهم ونصب أعينهم حديث رسول الله ﷺ القائل:

«...ربَّ قائم حظه من قيامه السهر» [٣٢٦]

---

٣٢٥ البخاري: التهجد، ١٢/ ١١٤٢/ ٣٢٦٩.

٣٢٦ أحمد بن حنبل: مسند، ٢، ٣٧٣/ ٨٨٤٣.



الصلاة في جماعة

إن أحد أهم الأمور المتعلقة بموضوع الصلاة هو أداء صلوات الفرض في جماعة.

فالصلاة في جماعة سنة مؤكدة بحكم الواجب. والجماعة شعار الأمة، فالنبي ﷺ لم يتخلف عن صلاة الجماعة أبداً ما عدا الأيام الأخيرة التي سبقت وفاته.

والحادثة التي نوردها فيما يأتي تبين مدى ضرورة صلاة الجماعة، وجديرة بالنظر والتوقف عندها ملياً:

لقد جاء الصحابي ابن أم مكتوم رضي الله عنه وهو أعمى إلى النبي ﷺ يسأله أن يعفيه من المجيء إلى صلاة الجماعة، فقال:

- يا رسول الله! إنك تعلم حالي، وإن بيني وبين المسجد نخلاً وشجراً، ولا أقدر على قائد كل ساعة، أيسعني أن أصلي في بيتي؟

فقال له رسول الله ﷺ:

- «**أتسمع الأذان؟**»

قال:

- نعم.

فقال رسول الله ﷺ:

- «**فأتها!**»[327]

---

٣٢٧ جانان: الكتب الستة، ٨، ٢٥٦.



وقد ورد في الحديث الشريف أن المعلَّق قلبه بالمساجد مِنَ الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله.[٣٢٨]

ونورد فيما يأتي بعضاً من الأحاديث النبوية الكثيرة التي لا حصر لها والتي تتعلق بالصلاة في جماعة:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[٣٢٩]

«...إن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحب إلى الله تعالى»[٣٣٠]

«من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»[٣٣١]

«إن من حافظ على هؤلاء الصلوات الخمس المكتوبات في جماعة كان أول من يجوز على الصراط كالبرق اللامع، وحشره الله في أول زمرة من التابعين، وكان له في كل يوم وليلة حافظ عليهن كأجر ألف شهيد قُتِلوا في سبيل الله»[٣٣٢]

«سووا صفوفكم ، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»[٣٣٣]

٣٢٨ انظر: البخاري: الحدود، ٢٠.

٣٢٩ البخاري: الأذان، ٣٠/ ٦٤٥.

٣٣٠ أبو داوود: صلاة الجماعة، ٥٥٤؛ النسائي: الإمامة، ٤٥.

٣٣١ مسلم: المساجد، ٢٦٠/ ٦٥٦.

٣٣٢ جمع الفوائد: ١، ٢٤٦.

٣٣٣ مسلم: الصلاة، ١٢٤/ ٤٣٣؛ أبو داوود: تفريع أبواب الصفوف، ١/ ٦٦٨.



إن أداء المؤمن صلاته في جماعة يزيد من إيمانه. وصلاة الجماعة مرآة المجتمع الإسلامي، وبالمداومة على الجماعة يحافظ المرء على رابطة الإيمان.

يقول رسول الله ﷺ:

«**من توضأ في بيته ثم أتى المسجد ليصلي في جماعة كمن لبس الإحرام وخرج إلى الحج**»[٣٣٤] أو كما قال رسول الله ﷺ.

وكلما خطا العبد في طريق ذهابه إلى المسجد خطوة يُعطى بها حسنة، وتُمحى بها عنه سيئة.

«**من صلى لله أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كُتبت له براءتان: براءة من النار ، وبراءة من النفاق**»[٣٣٥]

«**إن الله تعالى ينادي يوم القيامة أين جيراني؟ فتقول الملائكة: ربنا ومن ينبغي أن يجاوره؟ فيقول** ﷻ: **أين عمار المساجد** [أي المداومون على الصلاة في المساجد]؟»[٣٣٦]



٣٣٤ فضائل الأعمال: ٢٧٥.

٣٣٥ الترمذي: الصلاة، ٢٤١.

٣٣٦ أبو نعيم: كنز العمال، جـ ٧، ٥٧٨/ ٢٠٣٣٨.



ويقول رسول الله ﷺ:

«**المسجد بيت كل تقي، وقد ضمن الله ﷻ لمن كان المساجد بيوته الروح، والرحمة، والجواز على الصراط**»[٣٣٧]

إن المثابرة على حضور الجماعة أمر في غاية الأهمية، وقد وردت أحاديث كثيرة تحذر المسلمين من التهاون في هذا الشأن، وتبيِّن أن في ترك الجماعة ضرر وأذى محقق. ومن هذه الأحاديث التي حذرت من ترك الجماعة قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**من سمع المنادي فلم يمنعه من اتباعه عذر**».

قيل وما العذر يا رسول الله؟

فقال رسول الله ﷺ:

- «**خوف أو مرض...**»[٣٣٨]

وقال في حديث شريف آخر:

«**الجفاء كل الجفاء، الكفر والنفاق من سمع منادي الله ينادي إلى الصلاة يدعو إلى الفلاح ولا يجيبه**»[٣٣٩]

إذا اجتمع قوم في مكان ما ولم يتمكنوا من الذهاب إلى المسجد عند دخول وقت الصلاة لظروف معينة، فعليهم إقامة صلاة

٣٣٧ الطبراني: المعجم الكبير، ٦، ٢٥٤/ ٦١٤٣.

٣٣٨ أبو داوود: الصلاة، ١، ١٥١/ ٥٥١.

٣٣٩ أحمد بن حنبل، مسند، ٣، ٤٣٩/ ١٥٦٦٥.



الجماعة فيما بينهم مهما كان عددهم قليلاً، إذ إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول عن ذلك:

«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» [٣٤٠]

وأما أداء صلاة العشاء والفجر في جماعة فإنه يحمل خصوصية مختلفة، إذ يقول رسول الله ﷺ:

«من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله» [٣٤١]

«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا لاستهموا عليه. ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبواً» [٣٤٢]

إذاً حتى يستطيع المؤمن من الغوص في أسرار الصلاة لا بد أن يكون قلبه في الصلاة، وأذنه مفتوحة على الأذان. ولأن الصلاة تبدأ مع نداء الأذان، فالاشتراك بالجماعة يبدأ بالاشتراك في الأذان. إذ إن الصحابة الكرام كانوا إذا رفع الأذان يتخلون عن كل المشاغل

٣٤٠ أبو داوود: الصلاة، ١، ١٤٤/ ٥٢٣/ ٥٤٧؛ أحمد: مسند، ٣،٩٠.

٣٤١ مسلم: المساجد، ٢٦٠/ ٦٥٦.

٣٤٢ البخاري: الشهادات، ٣٠؛ مسلم: الصلاة، ١٢٩/ ٤٣٧.

الدنيوية ويدخلون في الحال إلى أجواء الصلاة. حيث كانت الأيدي التي تضرب بالفؤوس تتوقف، والألسنة المتحدثة تصمت، وكنتَ ترى الطرقات المزدحمة بالناس ذات اتجاه واحد حيث السير إلى المسجد. وكانت القلوب المفعمة بمحبة لقاء الله تصطبغ بمضمون الحديث النبوي الشريف والقائل:

«**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً. ثم سلوا الله لي الوسيلة. فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو. فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**» [٣٤٣]

ودعاء الأذان المطلوب الدعاء به بمقتضى هذا الحديث النبوي الشريف هو:

«من قال حين يسمع النداء: **اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته**، حلت له شفاعتي يوم القيامة» [٣٤٤]

والذهاب إلى المسجد دون مشاعر نابعة من الأسرار السامية الكامنة في غايات هذا الحديث الشريف لا يوصل العبد إلى المقصد الأساسي.

٣٤٣ مسلم: الصلاة، ١١/ ٣٨٤.

٣٤٤ البخاري: الدعاء، ٦١٤/ ٤٧١٩.



ومن جهة أخرى فإن الجماعة تضبط إيقاع الحياة المليئة بشتى أنواع العمل والمهن والأنشطة المتشابكة والمعقدة والمتفرقة، وتمنح العبد نظاماً يسير عليه، لتجعله في حال من التوازن في حياته. ولذلك فإن الحديث النبوي الشريف الوارد في هذا المجال:

«**أما يخشى أحدكم - أو: لا يخشى أحدكم - إذا رفع رأسه قبل الإمام، أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار** »[٣٤٥]

يُخضِع حتى أكثر الناس فوضوية وبعداً عن الانضباط إلى تربية جدية حازمة دقيقة، ويسوقهم إلى عبادةٍ سويَّة بشكل يليق بالوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى. وإلا فلا يمكن التوصل إلى الانتظام والتوازن في الصلاة مع الجماعة.

إن الكلمة الأخيرة التي يمكن أن تُقال في موضوع الصلاة في جماعة هي أنه من الضروري أن يكون قلب كل مؤمن في حالة تعلق تام بالمساجد. وذلك لأن أحد السبعة الذين يظلهم الله تعالى يوم القيامة «**رجل قلبه معلق بالمساجد.**»

٣٤٥ البخاري: الأذان، ٥٣/ ٦٩١؛ مسلم: الصلاة، ١١٥/ ٤٢٧.
قال العلماء أن مسألة تحول رأس المصلي الذي يتحرك في صلاة الجماعة قبل الإسلام إلى رأس حمار، أو حسب ما جاء في رواية أخرى إلى رأس كلب إنما هي مسألة مجازية، فيكون بذلك تشبيهاً له بالحمار من حيث البلادة والغباء، لقلة فقهه في الدين. ويمكن حمل الأمر على الظاهر أيضاً.

الصلاة هي الملجأ الوحيد

إن الصلاة التي لها مكانة مميزة بين العبادات هي مميزة أيضاً في الالتجاء إلى الله تعالى. ولهذا فإنْ تعرضَ العبد لأي من تجليات القهر، أو الضيق النفسي، أو المحن والمصائب، أو الألم والحرمان، فعليه أن يلوذ في الحال إلى الصلاة. وهذه المسألة تُعتبر سنة نبوية طبقها رسول الله ﷺ كثيراً خلال مسيرة حياته.

يقول الصحابي الجليل حذيفة رضي الله عنه:

«كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَه أمرٌ صلى» [٣٤٦]

ويقول أبو الدرداء رضي الله عنه:

«كان النبي ﷺ إذا اشتدت الريح دخل المسجد، ولا يخرج منها حتى تهدأ. وإذا كسفت الشمس أو خسف القمر بدأ بالصلاة».

وهنا ينبغي أن نستبين جيداً مسألة كسوف الشمس وخسوف القمر. إذ لما توفي إبراهيم ولد رسول الله ﷺ انكسفت الشمس في ذلك اليوم. فقال بعض الصحابة:

- لقد كُسفت الشمس لوفاة إبراهيم بن النبي ﷺ.

فلما بلغ كلام هؤلاء الصحابة إلى النبي عليه الصلاة والسلام أنكر عليهم قولهم، وقال:

٣٤٦ أبو داوود: قيام الليل، ٧؛ أحمد: مسند، ٥، ٣٨٨.



«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى تنكشف» [٣٤٧]

ومن جهة أخرى فقد سألت السيدة أسماء بنت أبي بكر ﵄ أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂، وقد حدث كسوف للشمس:

- أهذا علامة من علامات العذاب أو يوم القيامة؟

فقالت السيدة عائشة ﵂:

- نعم.

ويروي عمرو بن العاص ﵁ الرواية الآتية، فيقول:

انكسفت الشمس على عهد النبي ﷺ فقام النبي ﷺ إلى الصلاة وقام الذين معه، فقام قياماً فأطال القيام حتى ظننا أنه لن يركع، ثم ركع فأطال الركوع حتى ظننا أنه لن يقوم، ثم رفع رأسه وسجد فأطال السجود حتى ظننا أنه لن يرفع رأسه، ثم رفع رأسه وجلس فأطال الجلوس حتى ظننا أنه لن يسجد ثانية، ثم سجد فأطال السجود حتى ظننا أنه لن يرفع رأسه، ثم رفع رأسه وقام فصنع في الركعة الثانية مثل ما صنع في الركعة الأولى من القيام والركوع والسجود والجلوس فجعل ينفخ في آخر سجوده من الركعة الثانية ويبكي ويقول:

- **«يا رب! لم تعدني بالعذاب وأنا فيهم، لم تعدني بالعذاب ونحن نستغفرك!»**

---

٣٤٧ مسلم: الكسوف، ٢٩/ ٩١٥.



ثم لما رفع رأسه وفرغ من الصلاة حتى كانت الشمس قد انجلت وأضاءت على أطراف الدنيا مرة أخرى. [٣٤٨]

إن هذه الأحاديث النبوية تبين بأن كسوف الشمس ليس بحادثة طبيعية تحدث بشكل دوري. وإنما هذه الحادثة تذكرة للناس بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وجبروته، وفي الوقت ذاته تحذير إلهي وعلامة من علامات قرب يوم القيامة. وذلك لأن تخييم الظلام على الدنيا في وضح النهار يظهر كيف أن الشمس والقمر يخضعان للأوامر والقدرة الإلهية، ويشكل أيضاً مرآة تعكس الأحوال التي سوف تحدث يوم القيامة. وذلك حتى يعتبر الناس من هذه الحوادث القاهرة لهم ويكونوا في حالة من اليقظة التامة وإدراك حقيقة أنفسهم، فلا ينخدعوا بهذه الدنيا الفانية، وليعلموا بأن كل شيءٍ فيها عابر لا دوام له، وليتداركوا أمرهم ويعدوا العدة للعالم الأبدي، لأن الشمس المنكسفة قد لا تنجلي ذلك اليوم.

يمكن رؤية هذا النوع من التجليات التحذيرية للحق سبحانه وتعالى في ميادين أخرى، مثل خطوط الصدع أو التشقق في الكتل الصخرية أو الجبلية، فالله سبحانه وتعالى قادر على إنهاء الكتل الصخرية والجبال دون إحداث خطوط الصدع هذه. إلا أنه لا يفعل ذلك لحكم باهرة، إذ إن الحق ﷻ يقدر أولاً إحداث هذه الخطوط أو التشققات كنوع من الإحسان الإلهي ويعرضها على الدوام أمام

٣٤٨ النسائي: الكسوف، ٣، ١٣٧/ ١٤٨٢.



أعين عباده حتى يعتبروا بها فينتبهوا في كل لحظة إلى الحقيقة المطلقة التي سوف يواجهونها يوماً ما وجهاً لوجه وبالتالي كيلا يغفلوا عن القيام بتحضير أنفسهم للانتقال إلى الحياة الأخروية.

ولا شك أن التحذيرات الإلهية لا تتوقف على هذه الحوادث التي ذكرناها، وإنما هناك الكثير منها في الكون وفي أنفسنا، مثل السيول، والعواصف، والأمراض المستعصية على العلاج وغيرها. وقد قيل:

إن جاء الأجل،

فإن ألم الرأس ذريعة!

إلا أننا ينبغي أن نقول مجدداً أنه لو لم تكن هذه الذرائع والأسباب والمقدمات، لوقعَ ابن آدم بشكل مفاجئ فريسةً بين يدي الموت دون تنبيه أو تحذير، ودون تحضير نفسه لهذه اللحظة المصيرية، ولتسبب هذا الأمر بهلاكه وخسرانه المبين. ولهذا فإن الله تبارك وتعالى المتصف بالرحمة المطلقة قد وضع أمام ناظري الإنسان مختلف التجليات والمظاهر الدالة على هذه الحقائق الحتمية المقبلة عليها بهدف تنبيه الإنسان وإيقاظه من غفلته، وحتى يتدارك تقصيره في حق ربه ونفسه قبل فوات الأوان. يقول النضر:

- ذات يوم خيم ظلام شديد على الدنيا في النهار، فأسرعت إلى أنس رضي الله عنه، وسألته:

- هل كانت تقع مثل هذه الحادثة في زمن النبي ﷺ؟

فقال أنس:

- نسأل الله النجاة! كنا في عهد رسول الله ﷺ إذا هاجت الريح نحسب أن القيامة قد قامت ونجري إلى المسجد.

وذلك لأن الصلاة وقاية من كثير من الحوادث والمصائب في الدنيا، ومن نار جهنم في الآخرة. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ [٣٤٩]

مما لا يخفى على أحد أن آل فرعون الذين كانوا يحكمون مصر كانوا مشهورين، وحكّام هذه الأسرة كانوا من أكثر حكام الأرض ظلماً وتكبراً وتجبراً عبر تاريخ البشرية. وفي عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام كانت تحكم مصر هذه الأسرة نفسها، وكانت هذه الأسرة وعلى رأسهم فرعون كلما مرت أو دخلت امرأة ذات حسن وجمال إلى حدود بلادهم أسرعوا إلى الإمساك بها وأخذها، وإن كانت المرأة متزوجة قتلوا زوجها، وأما إن كان معها أخ لها أخذوها منه دون أن يقتلوه.

بعد هلاك نمرود خرج سيدنا إبراهيم عليه السلام من أورفة واصطحب معه امرأته السيدة سارة ثم توجه ناحية بلاد مصر، ولما مر بحدود مصر وصل خبره إلى فرعون، فأرسل إليه رجاله ليروا في أمره ويسألوه عن المرأة التي بصحبته. فلجأ إبراهيم عليه السلام إلى حيلة شرعية وقال لهم بأن المرأة هي شقيقته من حيث الأخوة الدينية.

٣٤٩ البقرة: ١٥٣.



ولما قال لهم ذلك لم يمسوه بسوء، وإنما أخذوا السيدة سارة واتجهوا بها إلى قصر فرعون. ووفقاً لما جاء في رواية البخاري أن:

«السيدة سارة لما دخلت إلى القصر توضأت في الحال ثم صلت ركعتين، والتجأت إلى الله ﷻ، فرعاها الله تعالى بحفظه».

وكلما اقترب منها فرعون انقطع عنه نفسه وأصيب بما يشبه الشلل التام، لأن الله ﷻ هو من كان يحمي السيدة سارة من شره...

فأصيب فرعون جراء هذه الحادثة بهلع وخوف شديد، وأطلق سراح السيدة سارة على الفور. وفوق ذلك كله قدَّمَ لها جاريةً هديةً منه وهي السيدة هاجر. وقال لرجال القصر الذين أخذوا ينظرون إليه بذهول وحيرة:

- إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، ولو بقيتْ معي أكثر من ذلك لهلكت، فأخدمها هاجر اتقاءً من شرها!

فهذا هو التجلي المعنوي في الدنيا لصلاة ركعتين بإخلاص لوجه الله تعالى.

ولهذا فإن النبي ﷺ كلما اشتد عليه أمر، أو مر بضيق كان يأمر في الحال أهل بيته بالصلاة، ويقرأ قول الله تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [٣٥٠]

٣٥٠ طه: ١٣٢.

وقد بين النبي ﷺ الذي أمر أهله وأمته بالصلاة في أحوال الخوف والمصائب والمحن، أن الأنبياء والرسل السابقون أيضاً كانوا يلجؤون إلى الصلاة كلما وقعوا في الشدائد، فقال:

«**كان الأنبياء قبلي يتوجهون عند الشدائد إلى الصلاة**» [351] أو كما قال رسول الله ﷺ.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض الأحيان:

«**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**» [352]

يقول العلامة الشعراني:

ينبغي أن نعلم كما أن تاركي الصلاة سبب في نزول البلايا والمصائب على بلدانهم، فإن المصلين سبب في حفظ بلدانهم من هذه البلايا والمصائب. فلا يقولن أحد أبداً: (إنما أنا أصلي صلواتي، فما علاقتي بغيري؟). [353] لأن المصائب إن حلت ببلد فإنها تعم على الجميع. إذ لما سئل النبي عليه الصلاة والسلام:

---

٣٥١ فضائل الأعمال: ٢٤٩.

٣٥٢ النسائي: الجهاد، ٤٣/ ٣١٧٨.

٣٥٣ يقال في سورة الفاتحة: (إياك نعبد وإياك نستعين) بصيغة الجمع، فعلى الناس الاشتراك جميعاً في العبودية، وفيه إشارة بأن العون يأتي بشكل مشترك أيضاً. فمن الضروري اجتماع الناس والسير على الصراط المستقيم بشكل جماعي، أي الالتزام الجماعي بشرع الله تعالى. ولهذا لا بد من توحد المسلمين في جسد واحد...



- يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟

فقال رسول الله ﷺ:

- «**نعم. إذا كثر الخبث**» [٣٥٤]

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية عامة تقع على كاهل جميع المسلمين، كلٌّ على قدر طاقته وموقعه.

فالتحصن بالصلاة هو السبيل الوحيد الذي يخفِّف من المصاعب على كتف الإنسان التي تسوقه إلى الأعمال المستوجبة لمصيبة أو إنذار إلهي.

والصلاة تمكِّن الإنسان من نيل الرعاية والحفظ الإلهي، مع التطهر من الذنوب وإعلان التوبة الصادقة. إذ إن النبي عليه الصلاة والسلام قال لرجل مذنب جاء إلى مجلسه وقد أعلن توبته وندامته بصدق، وأقام معه الصلاة:

«غفر الله ذنبك».

---

٣٥٤ مسلم: الفتن، ١/ ٢٨٨٠.



أداء الصلاة باستقامة

إن الأوامر الواردة في القرآن الكريم بشأن الصلاة لم توجه إلى المسلمين بصيغة: «صلوا»، وإنما كانت هذه الأوامر بعبارة: «أقيموا الصلاة»، أي صلوها باستقامة وبشكل حسن صحيح.

إن الصلاة التي تُؤدَّى باستقامة وعلى وجهها الكامل عبادة ذات فضل عظيم، فهي تحمي المؤمن من الانجرار نحو سراديب الميول والأهواء النفسية، وتوصله إلى مرضاة الله ﷻ. حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[355]

إن نهي الصلاة العبدَ عن الفحشاء والمنكر يكون قبل الصلاة، وأثناءها، وبعدها. فإن لم يظهر النهي عن الفحشاء بهذا الشكل في المصلي فهذا دليل بأنه ليس بمصلٍّ بالمعنى الحقيقي للصلاة.

يقول رسول الله ﷺ عن صلاة مثل هؤلاء الناس:

«**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً**»[356]

ولهذا فإن الأمر الأهم الذي ينبغي توفره في أداء الصلاة بحقها هو حال الخشوع.

٣٥٥ العنكبوت: ٤٥.

٣٥٦ جمع الفوائد: ١، ٣٣٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١١، ٥٤/ ١١٠٢٥



الصلاة بسهو

إن الصلاة بقلب بعيد عن آدابها وأركانها وواقع تحت تأثير وساوس الشيطان اللعين إنما هي كَسياطٍ من الذنوب يُضرب به وجه العبد، يقول الله ﷻ في القرآن الكريم:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[٣٥٧]

لقد بين المفسرون أن السهو في الصلاة على ثلاثة أشكال، وهي:

١- السهو عن وقت الصلاة الأصلي وتركها للقضاء.

٢- البقاء خارج الصلاة بالروح على الرغم من الدخول إليها بالجسم، أي عدم الشعور والإحساس بالصلاة أثناء أدائها.

٣- عدم مراعاة القواعد والأحكام الفقهية المتعلقة بالصلاة.

يقول أحد الأولياء الصالحين:

«سألت عقلي: ما الإيمان؟ فمالَ قلبي نحو أذن عقلي، وهمس: «الإيمان إنما هو الأدب»».

إن أكبر الآداب إظهار التعظيم للحق ﷻ، وأقوى وأجمل مظهر لهذا الأدب ينبغي أن يكون في العبادات، وبشكل خاص في الصلاة.

إن السهو عن مضمون الصلاة، أو آدابها، أو أركانها إنما هي شيءٌ اقتلعه الشيطان من صلاة العبد. وسهو المصلي في الصلاة

---

٣٥٧ الماعون: ٤ - ٧.

كإعطاءه للشيطان فرصة ثمينة من أجل أن يتسلط عليه، ولا شك أن الصلاة التي أصابها الشيطان بالضعف لا تُقبَل.

هناك بعض الناس يمتطون منابر الدفاع عن الإسلام بحماسة كبيرة، إلا أنهم لا يدركون أهمية عبادة الصلاة كما يليق بها، ويظهرون غفلة ولامبالاة كبيرة بحقها، وتجد سلوكهم بعيداً كل البعد عن الأوامر القرآنية والسنة النبوية وكأنهم يستهينون بها. فإلى جانب إهمالهم الخشوع في صلاتهم تراهم لا يكادون يراعون شروطها وأركانها الأساسية، فكأن صلاتهم رفع للعتب لا أكثر. نسأل المولى ﷻ أن يتعهدنا جميعاً بحفظه من مثل هذا السهو!

إن مَثل الذين انزلقوا إلى وادي السهو مثل المفلسين الذين أضاعوا ثروة عظيمة كالجبال من بين أيديهم. ولم يبقَ في أيديهم سوى التعب والحسرة. فقد جاء في الأحاديث النبوية الشريفة:

«**كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب**»[٣٥٨]

«**من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيءٍ من حسناته**»[٣٥٩]

وقد وصف رسول الله ﷺ مَن يخل بآداب الصلاة وينقص منها شيئاً بالسارق إذ قال:

«**...أسوأ السرقة الذي يسرق صلاته...**»[٣٦٠]

٣٥٨ إحياء علوم الدين، ١، ١٥٩.

٣٥٩ إحياء علوم الدين، ١، ١٤٧.

٣٦٠ مالك: موطأ، ١، ١٦٧/ ٧٢.



ولأن هذه السرقة كانت كعمل من أعمال الشيطان، فلا يبقى للإنسان الذي صلى بهذه الصورة سوى التعب والنصب كما مر في الأحاديث التي ذكرناها آنفاً. ولهذا ينبغي لهؤلاء الذين يسرقون صلاتهم أن يتذكروا تهديد الله تعالى بالويل، إذ يقول:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٣٦١]

تبين هذه الآية الكريمة بأن الكسالى من الناس يتغاضون عن أداء الصلاة، بينما من لم يتغلبوا على أهوائهم النفسية يؤدون صلاتهم بصورة شكلية، ولا يستفيدون شيئاً من روحانيتها. أي إن من لا يؤدي الصلاة وفقاً لماهيتها الحقيقية، ويغفل عن وقوفه بين يدي الحق ﷻ، وينشغل فكره بالتجارة والأعراض الدنيوية، فهو ليس بمصلٍّ أبداً، وصلاته التي أداها تبقى في الدنيا.

إن الصلاة التي توصل الإيمان في القلب إلى مرتبة الكمال تنتهي لدى هؤلاء الغافلين بالحرمان؛ بل إن هذه الصلاة تصبح عذاباً لهؤلاء وحلقة تخنق أعناقهم، أو مرآة تعكس وجههم الخفي، إذ يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلا﴾[٣٦٢]

٣٦١ الماعون: ٤-٥.

٣٦٢ النساء: ١٤٢.

تاركو الصلاة

يقول أهل القلوب محذِّرين الغافلين البعيدين عن الصلاة:

«من امتنع عن الصلاة وشغلته عنها الرياسة والملك شابَهَ فرعون فيحشر معه يوم القيامة؛ ومن شغلته عنها الوزارة والمراتب شابَهَ هامان فيحشر معه يوم القيامة، ومن شغلته أمواله وشهواته وثرواته شابَهَ قارون الذي خسف الله به وبداره الأرض فيحشر معه يوم القيامة، ومن شغلته تجارته شابَهَ عدو رسول الله ﷺ أُبَي بن خلف فيحشر معه يوم القيامة».

فتاركو الصلاة يعيشون في الحياة الدنيا عمراً خالياً من الخير والبركة، ولا يبقى في سيماهم أثر لنور الجمال الإلهي، ولا يثابون على عمل خير يعملونه، ولا يقبل دعاؤهم، ويحرمون من محبة الصالحين. ويُعرَض في آخر آنفاسهم أمام أعينهم خطرُ الحقيقة المشاهدة عبر التاريخ والمتمثلة بمقولة: «كما تعيشون، تموتون» فتخرج أرواحهم من أبدانهم بألم وعذاب، وندم شديد. وتضيق عليهم قبورهم وتتحول إلى حفرة من حفر النار، ويلقون الله ﷻ يوم القيام وهو غاضب عليهم، ويحاسبون حساباً عسيراً ثم يُلقى بهم في نار جهنم.

وقد وردَ في صحيح البخاري أن النبي ﷺ كان من عادته أن يسأل الصحابة الكرام بعد صلاة الفجر إن كان أحد منهم قد رأى



رؤيا في منامه أم لا. فيقص عليه من رأى مناماً منامَه ثم يفسره النبي ﷺ. وذات يوم وكما هي عادته سأل الصحابة عن الرؤيا، ثم بعد ذلك قال: «**لكني رأيت الليلة رجلَين أتياني فأخذا بيدي...**»

وروى للصحابة رؤيا طويلة تحدث لهم فيها عن الجنة والنار، وأنواع العذاب التي تنزل بأهل النار بتفاصيل كثيرة. ومن هؤلاء المعذبين رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر، أو صخرة، فيشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا، حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه.فسأل النبي ﷺ الرجلَين اللذين أخذاه:من هذا؟ فقالا له: فرجل علمه الله القرآن، فتركه ولم يقرأه، ولم يصلِّ الفرض فنام عنها بالليل.

إن أكثر العبادات التي يحاول الشيطان إبعاد ابن آدم عنها هي الصلاة، حيث يسعى لكي يبعده عنها حتى ينطبق عليه الحديث الشريف القائل:

«**...لا دين لمن لا صلاة له...**»[٣٦٣]

وبذلك فإنه يؤمن إبعاده عن الرحمة الإلهية كما هي حاله هو.

ولذلك فإن المؤمن الحذق الذي يتمتع بالبصيرة النافذة يحمي نفسه من حبال الشيطان، ويسارع إلى قضاء ما فاته من صلوات الفريضة، ولا يدَّخر جهداً في سبيل المحافظة على فرائضه.

٣٦٣ الطبراني: المعجم الصغير، جـ ١، ١١٣/ ١٦٢.

لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الشريف:

«**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**»[٣٦٤]

فإن لم يفعل، فإن ديون الصلاة سوف تتراكم عليه كالجبال، ويأتي يوم القيامة وهو من الخاسرين.

الصلاة علامة فارقة

يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام المسلمَ فيقول:

«**عَلَمُ الإسلام الصلاة، فمن فرَّغ لها قلبه بحدودها وسننها فهو مؤمن**»[٣٦٥]

فيشير النبي ﷺ إلى أن الصلاة هي أول ما ينبغي أن يتعلمه المسلم في الإسلام ويدوام عليه، وأن الصلاة عمود الدين، وهي العبادة التي تميز بين المؤمن والكافر.

ولم يكن صحابة النبي عليه الصلاة والسلام يرون ترك أي عمل من أعمال الإسلام كفراً ما عدا الصلاة. وكان أبو بكر الصديق ﵁ إذا ما دخل وقت الصلاة يقول لمن حوله:

- أيها الناس، قوموا، وأطفئوا النار التي أوقدتموها بالصلاة!

إن الصلاة ليست فرقاً بين المؤمن والكافر فحسب، بل إنها تحتوي على فارق كبير بين المؤمن والمؤمن من حيث الدرجة

٣٦٤ مسلم: المساجد، ٣١٤/ ٦٨٤.

٣٦٥ فضائل الأعمال: ٢٥٥ – ٢٥٦.



والمنزلة عند الله تعالى. إذ يروي لنا أبو هريرة ﷺ الرواية الآتية والتي تتعلق بهذا الأمر، فيقول:

«كان رجلان من بني حي من قضاعة أسلما مع النبي ﷺ فاستشهد أحدهما في إحدى المعارك، وأُخِّرَ الآخر سنةً حتى مات بأجله، قال طلحة بن عبيد الله فرأيت في المنام المؤخَّرَ منهما أُدخِل الجنة قبل الشهيد. فتعجبت لذلك، فأصبحت فذكرت للنبي ﷺ، فقال ﷺ:

«**أليس قد صام بعده رمضان وصلى ستة آلاف ركعة، وكَذا وكذا ركعة صلاة سَنَة**»[٣٦٦]

وفي حادثة أخرى مشابهة لهذه الحادثة، قال النبي ﷺ للصحابة:

«**أليس قد مكث هذا بعده سنة؟**» قالوا: بلى، قال: «**وأدرك رمضان فصام، وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟**» قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: «**فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض**»[٣٦٧]

وقد بيَّن النبي ﷺ أهمية الصلاة في أحاديث شريفة أخرى، حيث قال:

«**ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد**»[٣٦٨]

٣٦٦ أحمد: مسند، ٢، ٣٣٣/ ٨٣٨٠.

٣٦٧ ابن ماجه: جـ ٢، ١٢٩٣/ ٣٩٢٥.

٣٦٨ إحياء علوم الدين، ١، ١٤٧.

ولما سُئِل: أي العمل أفضل؟

قال: «**الصلاة في أول وقتها**»[٣٦٩]

وقال أيضاً:

«**إذا كان أحدكم يصلي، فلا يبصق قبل وجهه، فإن الله قِبَلَ وجهه إذا صلى**»[٣٧٠]

«**مفتاح الجنة الصلاة**»[٣٧١]

«**الصلاة قربان كل تقي**»[٣٧٢]

«**من فاتته صلاة العصر ، فكأنما وُتر أهله وماله**»[٣٧٣]

لقد حثَّ الإسلام المؤمنين على تربية أولادهم وتعويدهم على الصلاة في سن مبكرة للأهمية العظيمة التي تمتاز بها هذه العبادة. وقد حض النبي ﷺ على الحرص على المداومة على الصلاة، وعدم التهاون أو الاستهتار بها، فقال في الحديث الشريف:

«**مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[٣٧٤]

٣٦٩ الحاكم، المستدرك، ١، ٣٠٠.

٣٧٠ البخاري، الصلاة، ٣٤/ ٤٠٦.

٣٧١ الترمذي: الطهارة، ٣.

٣٧٢ القضاعي: مسند، ١، ١٨١.

٣٧٣ أحمد: مسند، ٢، ١٤٥/ ٦٣٢٤.

٣٧٤ أبو داوود: الصلاة، ١، ١٣٣/ ٤٩٥.



الخلاصة:

لا بد لنا أن نعلم أن الصلاة أساس كل شيء في حياتنا، ونستطيع أن نرى الحياة الآخرة عيداً سيُكافَأ به الذين كانوا من أهل الصلاة في الحياة الدنيا. لأن الصلاة وسيلة لإيصال العبد إلى مرحل الكمال بكل جوانبه، وإعداده لنيل رضا الله سبحانه وتعالى، ويمكننا القول باختصار:

- الصلاة من الناحية المادية:

إن حركات جسم الإنسان الداخلية والخارجية في الصلاة، وتحكمه بالأوقات هي تمرينات للعيش وفق نظام في هذه الحياة.

- الصلاة من الناحية المعنوية:

ملئية بالكثير من البركات والفيوضات، مثل الوقوف في حضرة الله، والتفكر، ومواساة القلب في أوقات الشدة والخوف، وتحقيق اللذة الروحية، وحماية الإيمان، وزيادة الأنس بالله تعالى.

- الصلاة من الناحية الاجتماعية:

وسيلة لتقوية الروابط الاجتماعية والإيمانية، وزيادة التعارف، والأنس، والألفة، والمحبة، وتحقيق الأخوة في الدين بين أفراد المجتمع.



- الصلاة من ناحية التجليات الروحية:

يحمل القلب والإخلاص والمشاعر التي تُكتسَب بالقدرة على الوقوف في الحضرة الإلهية، إلى آفاق الروحانية.

ينبغي لنا هنا أن نبيِّن أنه ليس هناك أي عذر يمكن أن يعفي الإنسان من الصلاة! فعلى الرجال حتى في الحرب أن يؤدوا صلاتهم، حيث يقوم المقاتلون بإقامة الصلاة بالتناوب. وأما النساء فلا معذرة لهن أيضاً في ترك الصلاة ما عدا حالات محددة عيَّنها الشرع.

وينبغي أن نبقي قلوبنا يقظة في موضوع الصلاة بشكل خاص، وأن نتذكر دائماً وصية النبي ﷺ بالصلاة والتي لم تفارق لسانه حتى في اللحظات الأخيرة من حياته، إذ ظل يكررها رغم ثقل خروج الروح على لسانه وكيانه، إذ كان يقول عليه الصلاة والسلام:

«**الصلاة، الصلاة...**»[٣٧٥]

فالقلوب التي تصغي السمع إلى هذه الوصية النبوية، تدرك حقيقة الصلاة وتجعلها قرة عينها ونورها. وحين تقف في الصلاة، تغادر هذا العالم الفاني، لتنال تجليات رضا الله سبحانه وتعالى.

والمصلي الحقيقي يحمل كل الصفات التي تحتويها الصلاة ويصطبغ بها. ونورد فيما يأتي صفات المصلين كما جاءت في سورة المعارج، إذ يقول الحق سبحانه وتعالى:

---

٣٧٥ أحمد: مسند، ٦، ٢٩٠/ ٢٦٥٢٦.



﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[٣٧٦]

اللهم اجعل صلواتنا من الصلوات التي أديت بحقها وحقيقتها، وجُعلت معراجاً لنيل مرضاتك! واجعل صلاتنا نور عيوننا، وسرور قلوبنا في الدنيا والآخرة!

آمين!..

٣٧٦ المعارج: ٢٣ – ٣٥.



الوضوء، والغسل، والتيمم، والصلاة

من منظور الفقه

- **الوضوء**

فرائض الوضوء:

١. غسل الوجه.

٢. غسل اليدين إلى المرفقين.

٣. مسح ربع الرأس.

٤. غسل الرجلين إلى الكعبين.

سنن الوضوء:

١. النية.

٢. البدء بالوضوء بالتعوذ والبسملة.

٣. غسل اليدين إلى المعصمين.

٤. تنظيف الأسنان بالسواك، أو الفرشاة، وإن لم يجد فبالأصابع.

٥. المولاة في غسل الأعضاء دون فاصل زمني.

٦. تدليك الأعضاء.

٧. المضمضة ثلاث مرات.



٨. الغرغرة لغير الصائم.

٩. الاستنشاق ثلاث مرات، وتنظيف الأنف باليد اليسرى.

١٠. غسل الأعضاء ثلاث مرات.

١١. التيامن؛ أي الابتداء بغسل العضو الأيمن ثم الأيسر.

١٢. الابتداء في غسل اليدين والرجلين من طرف الأصابع.

١٣. تخليل اللحية.

١٤. تحريك الخاتم في اليد، وإيصال الماء إلى ما تحته.

١٥. مسح الأذنين.

١٦. مسح الرقبة.

١٧. مسح كامل الرأس.

١٨. تخليل الأصابع.

- **الغسل**

الفرائض:

١. المضمضة بإيصال الماء إلى الحلق.

٢. الاستنثار.

٣. غسل كامل الجسم، أي إيصال الماء إلى كل أجزائه.



السنن:

١. نية الغسل.

٢. الابتداء بالبسملة.

٣. غسل مكان النجاسة إن كان على الجسم شيءٌ منها.

٤. غسل أماكن العورة.

٥. التوضؤ قبل البدء بالغسل.

٦. صب الماء ثلاث مرات على كامل الجسم، وإيصاله إلى كل أجزائه.

٧. البدء بصب الماء على الرأس، ثم على الشق الأيمن من الجسم، ثم على الشق الأيسر، وتدليك الجسم عند البدء بصب الماء وإيصاله إلى كامل أجزائه.

٨. إن كان مكان وضع الرجل يتجمع فيه الماء، فعند الوضوء يترك غسل الرجل إلى الأخير.

- **التيمم**

الفرائض:

١. النية.

٢. ضرب اليدين مرتين على التراب أو شيءٍ من جنس التراب ثم مسح الوجه في الضربة الأولى، ومسح الذراعين في الضربة الثانية.



السنن:

١. البدء بالتيمم بالتعوذ والبسملة.

٢. مراعاة الترتيب.

٣. المولاة دون ترك فاصل زمني بين مسح الأعضاء.

٤. تحريك اليد عند ضربها على التراب إلى الأمام ثم إلى الخلف.

٥. تفريق الأصابع عن بعضها.

٦. مسح الغبار عن اليدين بضربهما ببعضهما عند رفعهما عن التراب.

- **الصلاة**

للصلاة اثنا عشر فرضاً، فقسم منها يكون قبل الصلاة، وهذه الفرائض تحضير للصلاة، وتُسمى «شروط الصلاة». والقسم الآخر من هذه الفرائض يكون عند الوقوف للصلاة، وتسمى «أركان الصلاة».

شروط الصلاة:

١. الطهارة من الحدث: أي التطهر من النجاسات التي لا تُرى بالعين. ويكون بالوضوء، والغسل، وإن لم يجد المسلم ماءً من أجل الوضوء أو الغسل، يلجأ إلى التيمم.

٢. الطهارة من الخبث: أي التطهر من النجاسات المادية أو المرئية بالعين. وهذه النجاسات يمكن أن تكون على جسم الذي يريد الصلاة، أو على ثيابه، أو على مكان الصلاة.



٣. ستر العورة: أي تغطية الأماكن الواجب سترها. والعورة بالنسبة للرجال هي المكان الذي بين السرة والركبتين، وأما بالنسبة للمرأة فكامل بدنها ماعدا اليدين والرجلين والوجه. فإن انكشف عضو من أعضاء العورة الواجب سترها بمقدار الربع في مدة أداء ركن من أركان الصلاة تفسد الصلاة.

٤. استقبال القبلة: أي توجه المصلي نحو جهة الكعبة. فمن أدار صدره عن القبلة بطلت صلاته.

٥. الوقت: فهناك وقت محدد ومعروف لكل صلاة فرض وواجب. وأداء الصلاة في وقتها فرض، فلا تُصلى قبل دخول وقتها. ومن تركها إلى ما بعد وقتها من غير عذر شرعي فهو آثم.

٦. النية: وهي توجه الذهن أو الفكر إلى الصلاة المراد أداؤها. وعلى الإمام نية الإمامة، وعلى المصلي مع الجماعة نية الاقتداء بالإمام.

أركان الصلاة:

١. تكبيرة الافتتاح أو الإحرام: وهي تكبيرة البدء بالصلاة أو الدخول فيها. حيث يرفع المصلي بعد النية اليدين إلى الأعلى، ويُكبِّر بقول: «الله أكبر».

٢. القيام: الوقوف على القدمين. فمن يطيق الوقوف فعليه أداء الصلاة واقفاً، وأما من لا يطيق الوقوف فعليه أداء الصلاة بالشكل الذي يطيقه.



٣. القراءة: وتعني «قراءة القرآن في الصلاة». والقراءة تكون في القيام، ومقدارها على الأقل ثلاث آيات قصيرة.

٤. الركوع: وهو ثني الجسم نحو الأمام إلى الأسفل بحيث تصل اليدان إلى الركبتين. ويكون بعد القراءة.

٥. السجود: ويكون بعد الركوع، وهو وضع الركبة واليدين والرجلين مع الجبين والأنف على الأرض. ولا يكفي ملامسة الجبين والأنف للأرض ملامسة بسيطة، وإنما ينبغي أن يشعر الجبين بقساوة الأرض. وإن كان هناك ازدحام شديد ولا يسع المصلين السجود على الأرض فعندها يمكن للمصلين في كل صف السجود على ظهر المصلين في الصف الذي أمامهم.

٦. القعود الأخير: وهو الجلوس في نهاية الصلاة بمقدار المدة التي تستغرقها قراءة «التحيات».

واجبات الصلاة:

١. البدء بالصلاة بقول «الله أكبر».

٢. قراءة سورة الفاتحة في أول ركعتين من صلاة الفرض، وفي كل ركعة من صلاة الوتر والنوافل.

٣. قراءة الفاتحة قبل السورة أو الآيات الأخرى.

٤. قراءة سورة أو ثلاث آيات قصيرة بمقدار أقصر سورة في القرآن، أو قراءة آية طويلة وذلك في أول ركعتين من صلاة الفرض، وفي كل ركعة من صلاة الوتر والنوافل.



٥. وضع الجبين والأنف معاً على الأرض.

٦. الإتيان بالسجدتين بشكل متوالي.

٧. مراعاة تعديل الأركان، أي القيام بكل ركن وفق أصوله.

٨. القعود نهاية كل ركعتين في الصلوات الرباعية أو الثلاثية.

٩. قراءة التحيات في الجلوس الأول والجلوس الأخير.

١٠. القيام بعد قراءة التحيات في الجلوس الأول وذلك في صلوات الفرض الرباعية أو الثلاثية، وفي صلاة الوتر.

١١. جهر الإمام في صلوات الجماعة بقراءة الفاتحة والسورة أو الآيات التي تليها وذلك في ركعتي صلاة الفجر، والركعتين الأولى والثانية من صلاتَي المغرب والعشاء، وفي صلاة الجمعة والعيدين.

١٢. قراءة الإمام سراً بقدر ما يسمع نفسه في صلاة الظهر والعصر، وفي الركعات التي تلي القعود الأول من صلاة المغرب والعشاء.

١٣. قراءة الإمام للفاتحة والسورة أو الآيات بعدها جهراً في صلاة التراويح وفي صلاة الوتر التي تقام في رمضان جماعة بعد صلاة التراويح.

١٤. عدم قراءة المقتدي للفاتحة والسورة أو الآيات.

١٥. قراءة دعاء القنوت في صلاة الوتر.

١٦. الإتيان بالتكبيرات الزائدة في صلاتي العيدين.

١٧. التسليم نحو اليمين والشمال نهاية الصلاة.



١٨. سجود السهو في المواضع المطلوبة.

١٩. سجدة التلاوة إذا قُرِئت آية من آيات السجدة في الصلاة.

سنن الصلاة:

١. رفع اليدين بمحاذاة الأذنين عند البدء بالصلاة، وعند البدء بقراءة دعاء القنوت في صلاة الوتر، وفي تكبيرات صلاة العيدين، ثم عقدهما.

٢. قراءة دعاء الاستفتاح، والتعوذ والبسملة في الركعة الأولى.

٣. قول «آمين» بعد قراءة الفاتحة سواء في الصلاة الجماعية أو الفردية.

٤. كل التكبيرات في الصلاة ما عدا تكبيرة الإحرام التي تُعد فرضاً.

٥. قول «سمع الله لمن حمده» وعقبه «ربنا لك الحمد» عند الاعتدال من الركوع.

٦. قول «سبحان ربي العظيم» في كل ركعة، و«سبحان ربي الأعلى» في كل سجدة.

٧. وضع اليدين مع مباعدة الأصابع على الركبتين في الركوع، واستقامة الركبتين والمرافق، وموازنة الظهر مع الرأس.

٨. وعند النزول للسجود يتم أولاً وضع الركبتين على الأرض، ثم اليدين، ثم الوجه. وعند القيام من السجود يتم أولاً رفع الوجه



عن الأرض، ثم اليدين، وبعد ذلك الركبتين. وضع الوجه بين اليدين في السجود لمن لا عذر له.

٩. وضع اليدين على الركبتين أثناء القعود؛ وفي الجلسة الأخيرة يقرأ المصلي بعد التحيات «الصلوات الإبراهيمية»، ويدعو بما شاء من الأدعية.

١٠. وعند التسليم التوجه أولاً ناحية اليمين، ثم ناحية الشمال، وقول "السلام عليكم ورحمة الله».

آداب الصلاة:

فمن آداب الصلاة النظر إلى مكان السجود للقائم، والنظر إلى القدمين للراكع، والنظر إلى اليدين اللتين على الركبتين لمن يقرأ التحيات، والنظر إلى أعلى الكتف أثناء التسليم.

سجود السهو:

سجود السهو: السجود الذي يأتي به المصلي نتيجة خطأ أو نسيان في الصلاة. ويلزم سجود السهو إما في حالة تأخير أحد فرائض الصلاة، أو في حالة تأخير أو ترك أحد واجباتها.

مثال ذلك؛ نسيان دعاء القنوت في صلاة الوتر، والركوع دون قراءة سورة أو آيات في المواضع التي يلزم قراءتها بعد الفاتحة، ونسيان القعود الأول، وعدم الإتيان بسجدة التلاوة عند قراءة الآية



التي توجب السجدة في الصلاة. فهذه أمثلة على الحالات التي توجب سجود السهو بسبب ترك أحد واجبات الصلاة.

أما الحالات التي توجب سجود السهو بسبب تأخير أحد واجبات الصلاة، أي عدم القيام به في الموضع المطلوب، فمثالها؛ إذا لم يقم المصلي في الصلوات الرباعية والثلاثية وبما فيها صلاة الوتر بعد قراءة التحيات في نهاية الركعة الثانية مباشرة وإنما قام بعد قراءة الصلوات الإبراهيمية، أو إذا قرأ سورة أو آيات دون قراءة الفاتحة ثم تذكر عدم قراءته للفاتحة فقرأها بعد قراءة السورة أو الآيات.

وإذا نسي المصلي سجود السهو في المواضع التي يلزمه الإتيان به ثم سلم من صلاته، فلا يعيد الصلاة من جديد.







الزكاة والإنفاق

وسيلة الرحمة والبركة في الدَّارَين



الزكاة والإنفاق

وسيلة الرحمة والبركة في الدَّارَين

لقد خلق الله ﷻ بني آدم وجعله أكرم المخلوقات. وإذا ما لاحظ الإنسان فروقات بين أفراد المجتمع مثل القوة والضعف، والصحة والمرض، والعلم والجهل، والغنى والفقر، فإنما تكون من أجل تأسيس نظام اجتماعي وتحقيق انسجام وتناغم بين عناصر المجتمع.

إن الغنى والفقر اللذان يحتلان مكاناً مهماً في هذه المفاضلة المادية بين أفراد المجتمع يعرضان مظهرَين من مظاهر الفوارق الاقتصادية التي تناقض إحداها الأخرى. وجعلُ الناس أصحاب قدرات متباينة مثل الغنى والفقر امتحاناً لهم يحتوي على الكثير من الحكم الدقيقة والعميقة للتقدير الإلهي العظيم. فلا يعد الغنى عزاً وجاهاً للغني، ولا الفقر مسكنة ومذلة للفقير وإنما ذلك تقسيم إلهي؛ ومظهر من مظاهر الحكمة والمصلحة الكامنة في تقديره. حيث يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:



﴿... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[377]

فهذه الآية الكريمة تبين بأن قسمة الرزق والمعاش متباينة بين البشر، إلا أن الواجبات والتكاليف تنظم وتفرض بما يتوافق مع هذه التباينات، ليتم إقامة التوازن الاجتماعي على أكمل وجه.

أي إن الله سبحانه وتعالى فرض «**الزكاة**» في الأموال لكي يضع سداً أمام مظاهر الطغيان التي يمكن أن ينزلق إليها أصحاب الثروات نتيجة غرورهم بما بين أيديهم من قوة المال، ولكي يَحول دون بروز مشاعر الحقد والحسد وتناميها في قلوب الفقراء تجاه الأغنياء، ولحماية الحياة الاجتماعية من الاضطرابات والفساد، ولربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض بالمحبة والود. فالزكاة عبادة في غاية الأهمية في النظام الاجتماعي للإسلام، من أجل تحقيق التوازن، وخلق أواصر المحبة والأخوة بين الفقراء والأغنياء.

إن الأغنياء سوف يحاسبون عن الأموال التي بين أيديهم أمام الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة لا محالة، فسوف يُسأل الغني من أين اكتسب ماله، وفي أي شيءٍ أنفقه؛ أي هل كسبه من الحلال أم من الحرام، وهل أخرج زكاته، وأعطى الصدقات للفقراء، واستعمله

٣٧٧ الزخرف: ٣٢.



في وجوه الخير والنفع للناس أم لا. فالغني خاضع لامتحان إلهي كبير بالثروة التي بين يديه، وذلك من خلال تكليفه بدفع جزء معين من أمواله للفقراء والمساكين. إلا أن هذا الغني إن نجح في اجتياز هذا الامتحان مع الامتحانات الأخرى فإنه ينال بذلك رضا الله، ويدخل جنته التي لا حدود لنعمها.

وفي الجانب الآخر فإن الفقير أيضاً سوف يقف بين يدي الله تعالى يوم القيامة ويُحاسَب عما فعله في الدنيا، إذ سوف يُسأل عن عدم صبره على الفقر، وتذمره، وتواكله على الناس، وعن مشاعر الحقد والحسد، وعن عصيانه للأوامر الإلهية، وسوف يسأل أيضاً فيما إن كان قد حافظ على الأخلاق الحسنة والعفة أم فرَّط بها. فإذا كان تصرفه وعمله في الدنيا محققاً لرضا الله تعالى فإن معاناته وآلامه الدنيوية سوف تنقلب إلى سعادة أخروية أبدية.



لقد ورد ذكر **الزكاة** مع **الصلاة** في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، وهذا التكرار الكثير لذكر الزكاة يعكس الأهمية البالغة التي تتمتع بها. وورد ذكر الزكاة فقط لمرة واحدة دون اقترانها مع الصلاة، وذلك في سورة المؤمنين، وحتى في هذه المرة قد وردت كصفة للمصلين، بمعنى أن المصلين من صفاتهم دفع زكاة أموالهم. فعند تقسيم العبادات إلى مجموعتين «عبادات بدنية» و «عبادات مالية»، نجد أن هاتين العبادتين- أي الصلاة والزكاة-



تحتلان المرتبة الأولى على رأس مجموعتهما وتتمتعان بالقيمة نفسها. وعلى الرغم من أن الأعمال في الإسلام مستقلة عن بعضها البعض، أي إن عدم القيام بعمل ما لا يبطل الأعمال الأخرى التي يقوم بها الشخص، إلا أن النبي ﷺ للأهمية الكبيرة التي تتمتع بها الزكاة في ديننا الحنيف عدَّ في أحد أحاديثه الشريفة الصلاة من غير إخراج الزكاة بلا ثواب وأجر، إذ قال عليه الصلاة والسلام:

«لا صلاة لمن لا زكاة له»[٣٧٨]

ولهذا حارب الخليفة أبو بكر رضي الله عنه مانعي الزكاة إذ رأى في امتناعهم إنكاراً لحكم الزكاة وبالتالي مرتدين عن الإسلام على الرغم من إقامتهم للصلاة. لأن الزكاة دَين جعله الله تعالى في ذمة أصحاب المال للفقراء والمحتاجين. وفي ذلك يقول الله عز وجل:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [٣٧٩]

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك»[٣٨٠]

فالزكاة مثل ضريبة إلهية مفروضة من أجل الفقراء والمحتاجين على من يملكون أموالاً تبلغ مقدار النصاب، وتطهير لهذه الأموال

٣٧٨ المناوي: كنوز الحقائق، ص، ١٤٣.

٣٧٩ الذاريات: ١٩.

٣٨٠ الترمذي: الزكاة، ٢/ ٦١٨.

التي تبقى بعد إخراج الزكاة، وجعلها مالاً حلالاً. وهي أيضاً نقل تدريجي لملكية الأموال إلى المحرومين في المجتمع، وبذلك يتحقق في المجتمع التوازن والعدالة والانسجام والتماسك الاجتماعي، فتتطهر ثروة الغني، ويصبح ماله حلالاً بالتمام. وينبغي التمعن بالآية القرآنية الكريمة لفهم هذه الحكمة:

﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ..... وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾[381]

ويقول الحق ﷻ في آية أخرى مبيناً هذه الحكمة بصورة جلية:

﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[382]

إن المكاسب التي يجنيها مخرجو الزكاة التي تُفرِح قلوبَ المحرومين في المجتمع أكبر من مكاسب هؤلاء المحرومين. والزكاة التي تحمل معنى «**التطهير**» و«**التزكية**» تحتوي على فوائد ومنافع عظيمة مثل وقاية الإنسان من بعض أمراض القلب، وتطهير المال. وهذا التطهير الذي يكون بتنقية القلب وتزكية النفس إنما هو إحدى الحِكم والأهداف التي تقف وراء إرسال الأنبياء والرسل إلى البشرية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الزكاة سبب مهم في تثبيت رابطة المحبة والصداقة بين المعطي والآخذ. والزكاة هي الحد الأدنى

٣٨١ المؤمنون: ١، ٤.

٣٨٢ التوبة: ١٠٣.



للضريبة التي تُعطى للمحتاجين، إذ إن أصحاب الإيمان الكامل يزينون ثرواتهم بالصدقات والإنفاق والإيثار.

لقد كان في هذه الدنيا منذ القدم صراع دائم بين الفقراء والأغنياء، فأغلب الفقراء ينظرون إلى أصحاب المال والثروات نظرة حقد وحسد، وأما الأغنياء فيرون الفقراء أناساً سذَّجاً وأذلَّاء، فيستحقرونهم ويتكبرون عليهم. ولم يستطع الإنسان عبر التاريخ تجنب هذه المشاعر والعلاقات المتوترة والسيئة بين أفراد المجتمع إلا في الفترات التي تشبَّعَ فيها بإرشادات الدين الحق التي تحتوي مشاعر الإيثار، والرحمة، والشفقة، والأخوة، وعكسَها على الحياة الاجتماعية من خلال مختلف أشكال الإنفاق مثل الزكاة والصدقة وغيرها. ولو أُديت الزكاة في يومنا هذا فإن أعداد الفقراء والمحرومين والمحتاجين في المجتمع سوف تتناقص حتى تنعدم.

ففي عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز رحمه الله تعالى فاضت أموال الزكاة في البلاد، حتى أن الولاة أخبروه بأنه لم يبقَ في البلاد من يقبل الزكاة، لاكتفاء جميع رعايا الدولة؛ إذ إن جميع أصحاب الأموال كانوا يؤدون ما عليهم من الزكاة. ولذلك فقد عدَّ المؤرخون عهد عمر بن العزيز من أفضل العهود في التاريخ الإسلامي بعد عصر الخلفاء الراشدين، واعتبروه خامسَهم.

إن إنفاق المال والتضحية بالنفس في سبيل الله تعالى مظهرٌ من مظاهر الرحمة بين الناس. يقول أحد الأولياء الصالحين مبيناً الفائدة



المعنوية التي يحققها الإنسان باهتمامه بأحوال الفقراء والمحرومين في المجتمع:

«إن القلوب الغارقة في الفقر والحرمان كالبيت الذي يملأه الدخان. فافتح نافذة لذلك البيت بالاستماع إلى هموم هؤلاء ومداواة آلامهم ليخرج الدخان من البيت، ويتطهر قلبك!»

فالزكاة تعالج جراح البشرية الناتجة عن الهوة بين الغنى والفقر، ونجد أن الأنظمة الأخرى البعيدة عن الإسلام تتخبط في إيجاد الحلول لمشاكل الفقر والغنى ولم تنجح في ذلك بالمعنى الحقيقي للنجاح، إذ إنها إما جنحت نحو الإفراط أو التفريط. فمن الأنظمة من حظرت بشكل تام طلب أي شيءٍ من الآخرين، ومنها من شرَّعت التسول؛ أما الإسلام فقد تناول هذه المسألة بحكمة بالغة عن طريق الزكاة والإنفاق، وقدَّمَ الحل الأمثل لها.

والزكاة في الحقيقة إحدى القيم السامية التي قدمها الإسلام للإنسانية. فمن خلال الزكاة تُحلُّ- ولو بنسب محددة- مشاكل الفقراء والمحرومين، والذين تقطعت بهما السبل، واليتامى، والأرامل والمطلقات، وتُفرج كرباتهم. وإلى جانب ذلك أعتق الإسلام رقاب البشر من قيد العبودية التي كانت في وقت مضى من المسلمات الطبيعية في المجتمعات. ومما لا ريب فيه أن أحد أكثر الحلول تأثيراً والتي وضعها الإسلام من أجل نيل العبيد حرياتهم، واستعادة كرامتهم وحياتهم الطبيعية، إنما هو الزكاة والإنفاق.



وهكذا فإن الإسلام قد مدَّ يد العون والمساعدة إلى من يعانون من صعوبات الحياة وتكاليفها دون مقابل وحتى دون طلب العون، وما أكثر الجراح النازفة التي ساهم في شفائها. وقد حظر الإسلام الربا الذي يبدو في ظاهره مساعدة وتيسيراً على الناس في مواجهة متطلبات معاشهم، ولكن في الحقيقة ما هو إلا استغلال لمن ضاقت بهم الدنيا ووقعوا ضحية الفاقة والعوز، ومتاجرةٌ بحاجتهم وظروفهم الصعبة.

لأن المرابي كل همه أن يبقى غيره في ضيق وحاجة، ليستفيد من حاجته ويستثمرها لمصلحته. وأما معطي الزكاة فإنه شريك للمحتاجين وذوي الظروف الصعبة في معاناتهم وآلامهم. ومطلبه الوحيد أن يتمكن من مداواة جراحهم من أجل نيل رضا الله تعالى.

إن الإنسان الجشع الطماع مهما بلغت أمواله وثروته من الكثرة فإنها تبدو في عينيه قليلة دائماً، إلا أن الذين عوَّدوا أنفسهم على دفع الصدقات والزكاة يتمتعون بغنى القلب، ويكتفون بالقليل من الدنيا. وأما المرابي فلسيطرة الجشع والطمع على قلبه فإنه يريد أن يزيد ثروته وأملاكه بأية وسيلة كانت حتى وإن كان على حساب غيره وتسبب بإفلاسهم. ويمكن أن نرى نماذج من هؤلاء والحوادث المؤلمة التي يتسببون بها والتي تدعو إلى التوقف والاعتبار، في أكثر المراكز التجارية الكبيرة المنتشرة في العالم. وفي إشارة إلى هذه الحقيقة يقول الله تبارك وتعالى:



﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ...﴾[383]

أي إن الانشغال بالربا يرفع البركة من أموال المرابين، وانعدام البركة يعني إفلاس العبد في الآخرة. وفي بعض الأحيان يتحقق هذا الإفلاس في الحياة الدنيا أيضاً، حيث تذهب الثروات الطائلة التي لا تأكلها النيران هباءً منثوراً إما بوقوع كارثة طبيعية أو مالية، أو بمرض صاحبها، أو بوقوعها في يد ورثة مبذرين ومسرفين.

ومن جهة أخرى يضر الربا بالثروة والأسس الاجتماعية، ويقود الناس إلى الهلاك، لأنه أخذ المال من طرف وإعطاؤه لطرف آخر؛ أي تقوية لأحد الأطراف عن طريق امتصاص دم الطرف الآخر. وفي نهاية الأمر يزيل الربا سعادة المرابي الأخروية وثروته.

وبالمقابل فإن الهبات والصدقات التي هي مساعدة لذوي الحاجة والعوز في المجتمع، تكفل دوام النظام والتوازن الاجتماعي، وبالتالي فإنها تعد وسيلة للبركة في الدنيا والآخرة. والمثال الآتي يعكس بشكل جميل هذه الحقيقة:

وقف سائل على أمير المؤمنين علي فقال للحسن أو للحسين: إذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهاتِ منها درهماً. فذهب ثم رجع فقال: قالت: إنما تركت ستة دراهم للدقيق. فقال علي: لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في

---

٣٨٣ البقرة: ٢٧٦.



يده. قل لها: ابعثي بالستة دراهم، فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل. قال: فما حلَّ حبوته حتى مرَّ به رجل معه جمل يبيعه. فقال علي: بكم الجمل؟ قال: بمئة وأربعين درهماً. فقال علي: أعقله على أن نؤخرك بثمنه شيئاً، فعقله الرجل ومضى. ثم أقبل رجل فقال: لمن هذا البعير؟ فقال علي: لي؟ فقال: أتبيعه؟ قال: نعم. قال: بكم؟ قال: بمئتَي درهم. قال: قد ابتعته. قال: فأخذ البعير وأعطاه المئتين. فأعطى الرجل الذي أراد أن يؤخره مئة وأربعين درهاً جاء بستين درهماً إلى فاطمة ﵂، فقالت: ما هذا؟ قال هذا وعدنا الله على لسان نبيه ﷺ:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٣٨٤]

وما أكثر أبواب الرحمة التي تفتحها الزكاة والصدقات على العبد- إضافة إلى هذه البركات- وما أكثر أبواب الشر والمصائب التي تغلقها دونه، وذلك مصداق قوله تعالى:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[٣٨٥]

إن الحادثة التي نوردها فيما يأتي والتي حصلت في إسطنبول لما كانت الفوضى في ذروتها، تُعد مظهراً من مظاهر هذه الحقيقة:

٣٨٤ الأنعام: ١٦٠. حياة الصحابة، جـ٢، ٣٩٩.

٣٨٥ الرحمن: ٦٠.

دخلت عصابة مؤلفة من خمسة أو ستة لصوص إلى أحد المحلات التجارية الكبيرة، وأمروا صاحب المحل بإعطائهم كل ما في الصندوق من نقود. فما كان للرجل المسن المسكين من بد إلا أن يستجيب لأوامرهم، وما إن أخذ الرجل الذي كان بمظهر اليائس مفاتيح الصندوق بيده لكي يفتحه ويخرج النقود، حتى رآه اللص الذي كان واقفاً على باب المحل يراقب المارة، فترك هذا اللص بشكل مفاجئ موقعه ودخل بسرعة إلى المحل، ثم جعل من نفسه درعاً لصاحب المحل المسن. فوجَّه سلاحه نحو رفاقه وصرخ:

- سوف نخرج من هنا دون أن نأخذ حتى قرشاً واحداً!

اندهش رفاقه اللصوص من هذا الأمر المفاجئ، وقالوا له:

- ما بك! كم من الدكاكين قد سرقناها وسلبناها إلى هذه اللحظة، ولم تنطق بكلمة واحدة! فما الذي جرى لك فجأة؟! قف جانباً، ودعنا نكمل عملنا الذي جئنا من أجله!

إلا أن هذا اللص الشاب قال بحزم مع شعور بقليل من الخجل لمنعه رفاقه من تنفيذ مهمتهم التي جاؤوا من أجلها:

- لا! لن نأخذ من هذا المحل ولو إبرة واحدة! إياكم أن تصروا أكثر! وكونوا على ثقة بأنكم لن تحصلوا على شيءٍ إلا أن تمروا على جثتي! أتعرفون من يكون هذا الشيخ الكبير؟ إنه الإنسان



الفريد الذي كان لسنوات طوال يمد أياد الرحمة والشفقة إلى أسرتي وأطفالي الصغار وكأنه أبوهم، بينما كنت أنا مهملاً لهم ومتسكعاً في زوايا حانات القمار.

فلما سمع رفاقه هذا الكلام خجلوا، واعتذروا عن فعلتهم وغادروا المكان مباشرة.[٣٨٦]

فهذا مثال حي مليء بالعبر عن الفائدة الدنيوية للإنفاق في سبيل الله تعالى! وهو تجلٍ للقول المشهور:

«قليل من الصدقة يدفع الكثير من البلايا.»



مما لا شك فيه أن أعظم المظاهر التي تواسي الفقراء والمحتاجين، وتؤمن لهم السكينة والطمأنينة، يمكن ملاحظتها ومشاهدتها في سيرة سيدنا محمد ﷺ.

فالنبي عليه الصلاة والسلام يحث على الإنفاق من خلال أحاديثه ويجعله من الخصال الأصلية في الإنسان، إذ يقول:

«اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»[٣٨٧]

٣٨٦ منقول عن الشيخ المرحوم ترمورتاش أوجار.

٣٨٧ البخاري: الزكاة، ١٨/ ١٤٢٩.

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمها»[٣٨٨]

وكان عليه الصلاة والسلام يحث نساءه على الإنفاق، ويدعو بقوله:

«اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشُرني في زُمرةِ المساكين...»[٣٨٩]

وقد جعل إحدى زوايا حجرته الشريفة مأوى يمكن أن يلجأ إليه أبناء السبيل، والفقراء، والمساكين.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يزور الفقراء والمساكين عموماً وأهل الصُّفَّة خصوصاً، حيث كان يسعى ليكون دواءً لأوجاعهم وهمومهم المختلفة، وقدم لهم بحياته المتواضعة أجمل عزاء ومواساة.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول في أحاديثه الشريفة:

«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً»[٣٩٠]

«إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة...»[٣٩١]

---

٣٨٨ البخاري: الزكاة، ٥/ ١٤١٧؛ مسلم: صلاة المسافرين، ٢، ٢٦٨.

٣٨٩ الترمذي: الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٢.

٣٩٠ الترمذي، الزهد، ٣٧/ ٢٣٥٥.

٣٩١ البخاري: الرقاق، ١٣/ ٦٤٤٣.



مبيناً بذلك بأن معيار الشرف والعزة الحقيقية ليس الغنى، وإنما التقوى والفضيلة، وقد قال عليه الصلاة والسلام مخاطباً فقراء أمته المحرومين من السعادة التي تتحصل من الإنفاق:

«**على كل مسلم صدقة**... قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة**». وفي رواية أخرى «**فبكلمة طيبة**»[٣٩٢] فبين أن الإنفاق يمكن بجميع حالات الإنسان، وسَرَّ بذلك قلوب فقراء أمته.

إن هذه الأحاديث النبوية ليست تشجيعاً على الغنى ولا على الفقر، وإنما هي بيان لأهمية إظهار الرضا بالحالة التي عليها الإنسان سواءً كانت فقراً أم غنى، من خلال توضيح الجوانب الحسنة لكل منهما والحض على ضرورة التصرف وفقاً لهذه الجوانب. أي إن عاش الإنسان حياته وفق ما يحقق الرضا الإلهي فلا الفقر يسيؤه بعد ذلك ولا الغنى..



إن أحد الأسرار الأخرى الكامنة في الزكاة والإنفاق هو الحيلولة دون نمو رأسمال الفردي بطريقة غير طبيعية أو فاحشة، وبالتالي منع استخدامه في استغلال الضعفاء، أو دفعهم إلى مشاعر الحسد والحقد. لأن الغنى إن صار مدعاة للتفاخر والتكبر فإنه

٣٩٢ البخاري: الزكاة، ٣١/ ١٤٤٥/ ٦٠٢٢ .



يسوق الغني إلى عاقبة وخيمة ومحزنة. وسائر أفراد المجتمع سواء من يقدمون العون أو من يتلقونه محتاجين لبعضهم البعض سواء من الناحية المادية أو المعنوية، فهذا تنظيم إلهي مليء بالحكم والعبر.

ينبغي أن نعلم جيداً بأن المُلك بمعناه المطلق لله تعالى. أما ملكية الإنسان فهي مثل المُلك الدوري الذي أوجد حديثاً في أيامنا هذه.

يقول يونس أمْرَه رحمه الله:

يا صاحب المال، يا صاحب الملك،

أين المالك الأول له؟

فالمال كذب، والملك كذب،

وإنما أنت تلتهي حيناً من الدهر به

ولذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٣٩٣]

وكما يفهم من الآية الكريمة بأن الملك في الحقيقة ليس للأفراد ولا للمجتمع، وإنما الملك لله تعالى. فالجميع إنما يعيش في ملك الله تبارك وتعالى، ويرزق بما يعطيهم الله من رزقه. وحقيقة ملك الفرد استطاعتُه التصرف بما في يديه مدةً معينة من الزمن.

وبناءً على ذلك فإن كلاً من المال، والملك، والمقام إنما هي مظاهر امتحانية كبيرة. فملك سيدنا سليمان عليه السلام والذي كان

---

٣٩٣ الفاطر: ١٥.



مضرب المثل وحديث الألسن في شتى أركان الأرض قد سلبه الله تعالى منه في مرحلة ما، ثم نتيجة لاستغفاره والتجائه إلى ربه أعيد إليه مرة أخرى. يقول أحد أولياء الله الصالحين معتبراً ومتعظاً من هذه الحادثة:

«لا تجرِ وراء الرزق، وإنما اجرِ وراء الرزاق!»

إن الثروة أمانة أودعها الله ﷻ لدى الإنسان، وليس من الصواب أبداً استعمالها وفقاً لهوى الأفراد ورغباتهم، بل يجب استعمالها في المواضع والوجوه التي أمر بها مالكها الحقيقي. فإذا ما استخدم الغنى بصورة مخالفة للأوامر الإلهية فإنه سرعان ما يدفع الإنسان نحو الانحراف، والكبر، والظلم، والفساد. وتتربع محبة المال على عرش قلوب هؤلاء الذين انساقوا إلى مثل هذه الآفات والأمراض.

إن تخصيص الله ﷻ نعمة المال والأولاد بصفة الفتنة من بين سائر النعم الدنيوية الأخرى ليس إلا لخطورتها العظيمة المتجسدة بسرعة دخولها إلى القلب وتحولها إلى معبود للإنسان. يقول الحق سبحانه وتعالى عن الذين وقعوا في هذا الشقاء والبؤس:

﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣٩٤]

٣٩٤ التوبة: ٣٤.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا[395] فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[396]

ويقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان. فيقول أحدهما:

- **اللهم أعطِ منفقاً خلفاً.**

ويقول الآخر:

- **اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً!»[397]**

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث شريف آخر:

«السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدليات في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة، والبخل شجرة من شجر النار، أغصانها متدليات في الدنيا، من أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى النار» [398]

فمن جهة يبشر النبي ﷺ في هذا الحديث من يقوم بالعبادات المالية مثل الزكاة، والصدقة، والإنفاق بالسعادة الأخروية، ومن جهة أخرى يحذر الذين يمتنعون عن هذه العبادات بدافع من البخل والطمع.

---

٣٩٥ أي النقود من الذهب والفضة وغيرها.

٣٩٦ التوبة: ٣٥.

٣٩٧ مسلم: الزكاة، ٥٧/ ١٠١٠.

٣٩٨ البيهقي: شعب الإيمان، ٧، ٤٣٥/ ١٠٣٧٥/ ١٠٣٧٦/ ١٠٣٧٧ .



فالآيات والأحاديث السابقة تبين العاقبة المحزنة للذين تسيطر محبة المال على قلوبهم ويغتصبون حقوق المحتاجين والفقراء. فينبغي التفكر في هذا التهديد والتحذير الإلهي، وبذل أقصى الجهود في سبيل زيادة الإنفاق وتجاوز الحدود الواجبة في الزكاة والصدقات.

ويحث الله تبارك وتعالى عباده بقوله:

﴿...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...﴾[٣٩٩]

ولهذا كان الصحابة الكرام في حالة إنفاق دائم، ففي غزوة تبوك جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بنصف ماله، وأما أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقد جاء بكل ماله، ولما سأله النبي ﷺ:

- **يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟**

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

- أبقيت لهم الله ورسوله! ..[٤٠٠]

ونورد فيما يأتي حادثة ذات عبرة جرت بين الشيخ شبلي وأحد الفقهاء:

سأل أحد الفقهاء الشيخ شبلي رحمه الله تعالى عن نصاب الزكاة بقصد اختباره، فأجابه الشيخ شبلي بقوله:

٣٩٩ البقرة: ٢١٩.

٤٠٠ الترمذي: ٣٦٥٧.

- أتريد جواب سؤالك حسب مذهب الفقهاء، أم تريده حسب مذهب الفقراء؟

فقال الفقيه:

- ليكن الجواب حسب المذهبَين.

فرد الشيخ شبلي قائلاً:

- إن حال الحول على مئتي درهم فتجب فيها الزكاة بمقدار درهم عن كل أربعين درهماً، أي خمسة دراهم عن مئتي درهم، هذا على مذهب الفقهاء. وأما على مذهب الفقراء فيجب أن يدفع الرجل المئتين كلها، ويشكر ربه أن أعتق رقبته.

قال الفقيه:

- نحن تعلمنا هذا المذهب من علماء الدين.

فقال الشيخ شبلي:

- ونحن تعلمنا هذا المذهب من الصدِّيق أبي بكر ﵁. إذ إن ذاك الصدِّيق قد وضع كل ما يملكه بين يدي رسول الله ﷺ، وفوق ذلك أعطاه ابنته وفلذة كبده علَّه «يُنجِي نفسه».[401]

لقد كان رسول الله ﷺ الذي علَّم أصحابه الكرام العطاء والإنفاق في سبيل الله القدوة الحسنة بنفسه لروح الإنفاق والبذل والعطاء.

---

٤٠١ المكتوب: ٣٤، القرن الثالث.



فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

أنهم ذبحوا شاة. فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟**» قالت: ما بقي منها إلا كتفها! فقال رسول الله ﷺ: «**بقي كلها غير كتفها!**»[402]

لم يكن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام يهدأ له بال في الليل إن وجد في داره بضع دراهم حتى ينفقها في سبيل الله. إلا أنه لم يجعل هذا العمل الذي كان يقوم به فرضاً على جميع المسلمين، وإنما وجه أصحابه الكرام إلى الإنفاق كلاً حسب طاقته ودرجته. فقد قبِلَ إنفاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه كل ماله، لكنه قال لصحابي آخر أراد تقديم كل أمواله:

- «**أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك**»[403]

وخلاصة القول أن الإسلام جعل الإنفاق فيما يزيد عن الحدود المعينة والمفروضة مثل الزكاة وبعض الصدقات أمراً اختيارياً، فيمكن أن ينفق المسلم المبلغ الذي يريده حسب أحواله المادية، وحسب الرغبة في الإنفاق التي تتعلق بأمور القلب. فقد كان أبو ذر رضي الله عنه الذي يعد من ذوي الرغبة الشديدة في الإنفاق يرى عدم إنفاق المال الذي يكسبه في يومه وتركه إلى اليوم الآخر أمراً حراماً. وأما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقد كان يبحث عن الجياع فيشبع بطونهم وهو نفسه يعاني من الجوع، فكان يحمِّل نفسه المصاعب

402 الترمذي: صفة القيامة، 35/ 2470.

403 محمود سامي رمضان أوغلو: غزوة تبوك، 66.

والمشقات في سبيل تحقيق الراحة للمسلمين. لأنه كان من الذين زينوا قلوبهم بمشاعر وأحاسيس سامية حيث يعتبرون أنفسهم أمناء على الثروات التي بين أيديهم.

فعلى أصحاب الثروات جميعاً أن يعيشوا ضمن الشعور بأنهم أمناء في هذه الدنيا، وأنهم ذات يوم سوف يقفون أمام الله تعالى المالك الحقيقي للأموال التي بين أيديهم ليُحاسَبوا على تلك الأموال. حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٤٠٤]

وأمام هذه الحقيقة فإن العارفون لا يغفلون أبداً عن مقولة:

«الحساب على الحلال، والعذاب على الحرام».

ولذلك كان الأغنياء الذين وقعوا أسرى للأهواء والرغبات الدنيوية وعجزوا نتيجة ذلك عن الإنفاق، مثلَ الحمَّالين الذين ينقلون الحطب إلى المواقد لإحراقها.

ولا شك أن الكد والعمل من أجل جمع المال والثروة بالوسائل المشروعة والحلال جدير بالتقدير. ومن يفعل ذلك هو الذي يمكنه الإنفاق في سبيل الله تعالى دون أن تسيطر الأموال على قلبه، وإلا فإن المال يتحول إلى حمل ثقيل على كاهل صاحبه في الدنيا، ويصبح سبباً لتعرضه إلى العذاب الأليم في الآخرة.

---

٤٠٤ التكاثر: ٨.



إن غاية الثروة الحقيقة هي الوصول بها إلى سر الحديث الشريف القائل:

«...**خير الناس أنفعهم للناس**»[405]

ومكان النقود ليس القلب، إنما مكانها المحفظة!.. يقول أحد الشعراء العارفين منبِّهاً الإنسان إلى غفلته:

ما هذه الدنيا الدنيئة إلا دار يأوي إليها عابروا السبيل؛

فلا فرق إن كانت قصراً، أو كوخاً.

آه! لقد وقعت ضحية محبة عمياء لا شفاء منها؛

لقد جعلت بيتي في دار مؤقتة زائلة!

ينبغي أن نعلم أن دعاء الفقراء وعابري السبيل مصدر راحة وسلام للأغنياء، فهو عون معنوي لهم. وينبغي أن نعلم جيداً أيضاً بأن الفقر والحاجة ليست مذلة ولا مسكنة، وإنما يمكن أن تكون مظهر إحسان في الآخرة.

إن الأغنياء الأسخياء الشاكرين، والفقراء الصابرين المحافظين على كرامتهم متساوون من حيث الشرف الإنساني ورضا الله عنهم. إلا أن الإسلام ذم الأغنياء المتصفين بالاستكبار والخِسَّة والفقراء المزيفين. ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول في دعائه:

---

٤٠٥ الطبراني: المعجم الأوسط، ٦، ٥٨/ ٥٧٨٧.



«اللهم إني أعوذ بك... من شر فتنة الغنى، ومن شر فتنة الفقر...»[406]

ومَن كانت حالته القناعة والتوكل والتسليم فهو الغني الحقيقي.

ولأجل ذلك، ينبغي لكل عبد يريد نيل الثواب العظيم أن يُكرِم المحتاجين والمحرومين والفقراء بالأموال والنعم الدنيوية التي أكرمه الله تعالى بها، فالغاية أن يصبح مؤمناً ينتفع الناس من يده ولسانه، لينال رضا الله تعالى.

إن الزكاة شكرُ المال والثروة، والشكر موجبٌ لزيادة النعم كما وعد الله تعالى.

حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾[407]

ولذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يحب الإنفاق محبة شديدة، حيث قال في الحديث القدسي:

«يا ابن آدم، أنفق، أُنفق عليك»[408]

فوا أسفاه على من اسودَّ قلبه وعميت بصيرته فنسي التقدير الإلهي وتمسك بالمقولة المغلوطة: «لقد كسبت المال بجهدي»،

---

٤٠٦ مسلم: الذكر، ٤٩/ ٥٨٩.

٤٠٧ إبراهيم: ٧.

٤٠٨ البخاري: النفقات،١/ ٥٣٥٢؛ مسلم: الزكاة، ٣٦/ ٩٩٣.



فصار ينظر إلى الفقراء والمساكين نظرة احتقار واستهزاء! فهؤلاء لا بد أن نهايتهم سوف تكون الهلاك والخسران كما كانت نهاية قارون من قبلهم.

فقارون هذا الذي كان في البدء رجلاً فقيراً صالحاً، أصبح من أغنى الأغنياء في عصره بعلم السيمياء الذي علمه إياه سيدنا موسى عليه السلام. إلا أنه لعدم قدرته على حفظ قلبه من حب الدنيا وزينتها، وانخداعه بما بين يديه من أسباب القوة والمنعة، أضاع صفاته الجميلة، وأصابه الغرور والكبر لما جناه من الأموال الطائلة، وما حققه من الغنى الفاحش، وأصبح وفقاً للتعبير القرآني من الباغين، يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[٤٠٩]

ولكن قارون عاند وتمادى في بغيه إذ لم يصغ السمع لا إلى هذه الكلمات، ولا إلى نصائح سيدنا موسى عليه السلام. حتى أن موسى عليه السلام لما طلب منه دفع زكاة أمواله– على الرغم من أن قارون مدين له بغناه– إلا أنه امتنع وقال:

– أطمعت بمالي؟ لقد أوتيته بعلمي وعملي!

---

٤٠٩ القصص: ٧٦.



ويصور لنا البيان الإلهي قصة قارون ببالغ الروعة، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ. وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[٤١٠]

فهذا مشهد من المشاهد التي تبين العاقبة السيئة التي سوف يؤول إليها من مالوا إلى الدنيا فوقعوا في حب المال والملك

---

٤١٠ القصص: ٧٧ – ٨٢.



ونسوا الآخرة! حرمان أبدي من النعم الإلهية! يقول الشاعر متأملاً هذه الحالة:

البحّار السيء لا يستطيع قياس العاصفة،

ولو غمر الأنف في بحر الدنيا!

أخبرني! ما هذا الغنى يا قارون؟

لقد جعلك معدماً متسولاً لا يشفق عليه أحد!

لقد صار قارون أحد متسولي الآخرة، لأن الحياة الآخرة ملكُ أصحاب التقوى الذين عاشوا طيلة حياتهم بعبودية صادقة ومخلصة لله تعالى. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤١١]

ويندهش أحد الأولياء الصالحين من حال الذين يحرصون على أموال الدنيا ويجعلونها مبتغاهم ثم ينتقلون إلى الآخرة مفلسين خاليي الوفاض، ويقول:

«ما بال الإنسان يصبح عبداً للذهب ومال الدنيا؟ ما قيمة المال الذي لا يُنفَق في سبيل الله؟ وما نفعه لصاحبه؟ أليس تذلل الإنسان لمال الدنيا أسيراً له، وتقلبه أمام بابه مثل ثعبان يتمايل ويتمرغ بالأرض، سببٌ لتعاسة ترسله إلى الآخرة فارغ اليدين، وإلا فما هي إذاً؟!»

٤١١ القصص: ٨٣.



ومن الأحوال التي تدعو للتفكر والاعتبار حالُ ثعلبة الذي كان مثل قارون أسيراً للمال والملك، وغارقاً في سراديب التعاسة الروحية:

كان ثعلبة واحداً من المسلمين في المدينة المنورة، جشعاً لديه ميل وحب شديد للمال والملك. وكانت لديه رغبة شديدة بأن يصبح رجلاً غنياً. ومن أجل ذلك طلبَ من النبي ﷺ أن يدعو له.

فكان جواب رسول الله ﷺ على طلبه، قوله له:

- **«ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه!»**

فتراجع ثعلبة عن مطلبه مدة من الزمن، إلا أن حب المال والجشع عاوده مرة أخرى، فجاء إلى النبي ﷺ مرة أخرى، وقال له:

- يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً!

وفي هذه المرة قال له الرسول ﷺ:

- **«ويحك يا ثعلبة! أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت!»**

فتراجع ثعلبة عن مطلبه في هذه المرة أيضاً لبعض الوقت، إلا أن عاصفة الطمع وحب المال لم تكن تهدأ قليلاً إلا لتهب بين جنباته أشد من قبل، فأخذ يحدث نفسه : "إن صرت غنياً فسوف أُعينُ الفقراء والمساكين، وأنال الكثير من الأجر والثواب!" فأقنع نفسه بهذه الظنون، وضعف أمام رغبته الجامحة تجاه المال والثروة، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام للمرة الثالثة، وقال:



- والذي بعثك بالحق، لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه!

وأمام إصراره وإلحاحه الشديد دعا رسول الله ﷺ قائلاً:

- **«اللهم ارزق ثعلبة مالاً!»**

ولم يمضِ وقت طويل حتى أكرمه الله تعالى بأموال عظيمة. إذ اتخذ ثعلبةَ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وما زالت تنمو وتكثر حتى شغلته عن الجمعة أيضاً فتركها ونسيها. فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ويقول: ماذا عندكم من الخير، وما كان من أمر الناس؟ باحثاً عن تجارة يتاجر بها.

وذات يوم سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن أحوال ثعلبة، فلما أخبروه بأمره قال:

- **«يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!»**

ولم تتوقف جهالة ثعلبة وغفلته عند هذه الأفعال التي اقترفها. إذ قال لعمال الزكاة الذين جاؤوه لأخذ مال الزكاة:

- ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي!



فنقضَ بذلك الوعود التي قطعها سابقاً على نفسه، وتهرب حتى من دفع الحد الأدنى للزكاة التي حددته الآيات القرآنية كحق للفقراء والمحتاجين والمساكين، فأصبح من المنافقين.

وقد ورد وصف هذه الحالة في القرآن الكريم، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٤١٢]

إن ثعلبة الذي انتهى به المطاف إلى عاقبة محزنة، وباء بالخسران والبؤس لاتباعه حمقه وتجاهله تحذير رسول الله ﷺ، قد انخدع بالثروة الدنيوية المؤقتة الزائلة وصار من الفقراء في الحياة الأبدية. فبينما كانت الندامة تعتصر قلبه، كانت كلمات النبي عليه الصلاة والسلام تترد في رأسه مثل طنين الجرس:

«ويحك يا ثعلبة! قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه!»

إلا أن ثعلبة الذي لم يصغ السمع لهذه الكلمات خرجت روحه وهو يعاني من الألم وحرقة القلب متقلباً في متاهات الظلام التي أدخلته فيها ثروته الفانية. فقد أهدر بحماقة سعادة أبدية مقابل تمتعه لمدة قصيرة بمال قليل ظن أنه السعادة الحقيقة.[٤١٣]

---

٤١٢ التوبة: ٧٥ – ٧٦.

٤١٣ أحمد شاهين: لوحات مجد التاريخ، ٢٧؛ الطبراني؛ ابن كثير.



فنجد أن الإنسان ميَّالٌ إلى الدنيا بطبيعته الخَلقية، وأما مالُ الدنيا فإنه عامل جاذب للنفس، والذين ينخدعون ببريقها وبهرجها لا يعرفون الشبع أبداً. يعبر رسول الله ﷺ عن هذه الحقيقة الثابتة في الحديث الشريف، بقوله:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب...»[414]

ذلك أنه كلما ازداد تراكم المال بين يدي الإنسان، ازداد طمعه، وصار جشعاً أكثر. والإنسان الذي أصابه الطمع بالمادة والمال تتناقص بين جنباته مشاعر الرحمة والشفقة تجاه الآخرين، فيثقل عليه الإنفاق كثيراً. وتخدعه النفس بقولها: «اجمع المزيد من المال وحقق المزيد من الغنى، لتفعل الكثير من الخير في المستقبل.» إن مثل هكذا إنسان يكون مريضاً روحياً، ومضطرباً بدنياً، وهو مُخاطبٌ في هذه الدنيا التي لم يستطع تقديرها بقدرها الحقيقي بالحكمة القائلة: « هلك المسوِّفون!»



إن قصة ثعلبة التي مرت معنا آنفاً إلى جانب دلالتها على أن الانخداع بأموال الدنيا نتيجته الخسران لا محالة، فإنها أيضاً مثال حي يساعدنا على فهم العاقبة المفجعة للتذمر من القدر، وعدم

٤١٤ البخاري: الرقاق، ١٠/ ٦٤٣٦؛ مسلم: الزكاة، ١١٦/ ١٠٤٨.



مراعاة آداب الدعاء. وقد يكون دعاء النبي ﷺ لثعلبة الذي أصر كثيراً على رغبته، لكي يكون مثالاً للأمة فيما بعد، على الرغم من علمه عليه الصلاة والسلام بالمراد الإلهي بحق ثعلبة. وأما نحن فعندما نسأل الله تعالى شيئاً فينبغي لنا بدلاً من الاعتماد على عقولنا لمعرفة هل هو خير لنا أم شر، ثم الإصرار عليه، أن نسلم الأمر لله تعالى في هذه المسألة، وأن نطلب قبوله إن كان عند الله مقبولاً وفيه خير لنا. وإلا فإننا سوف نفتح على أنفسنا باب معاناة وآلام كثيرة لعدم رؤيتنا وإدراكنا للمصائب في ما يبدو إحساناً ولطفاً. إن الدعاء- مثل الصدقة- وإن كان لا يغير القدر المحتوم، إلا أنه قد يغير القدر المعلَّق. لكن من الخطأ الكبير أن نلجأ إلى تحديد ما إن كان التغيير- ظاهراً وباطناً- مناسباً أم لا باستخدام عقولنا العاجزة. إن الدعاء نعمة منحنا الله تعالى إياها، حتى إنه أمر إلهي. لكن وإن كنا نملأ الدعاء بأحاسيسنا الصادقة، إلا أننا ما ينبغي أن نُصِرَّ على أنه خير أكيد، وإنما علينا أن نتضرع إلى الله بقولنا:

- اللهم إن كان خيراً فأكرمني به!



لا بد أن نستعمل المال في الوجوه التي تتوافق مع أوامر الله تعالى، كي نستطيع جعله نافعاً لنا بالمعنى الحقيقي للنفع، وهذا الأمر في غاية الضرورة من أجل سلامة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.



وينبغي أن نعلم أن حول الزكاة يحسب وفقاً للعام الهجري، أي كل ٣٥٥ يوماً، ويُخرج من المال نسبة ٢,٥ بالمئة. ولكن ما يجري اليوم هو أن المؤسسات والشركات التجارية تحسب حول الزكاة وفقاً للسنة الشمسية. ومن المعلوم أن السنة الشمسية تساوي ٣٦٥ يوماً، أي أكثر من السنة القمرية بعشرة أيام، وفي هذه الحالة ينبغي أن يضاف فرق هذه الأيام إلى مبلغ الزكاة الواجب إخراجه. وبالتالي فإن نسبة ٢,٥ بالمئة الواجب دفعها زكاةً عن الأموال التجارية تصبح وفقاً للسنة الشمسية ٢,٦ تقريباً.

إن الأمر الآخر الذي ينبغي الانتباه إليه ومراعاته عند حساب الزكاة هو التضخم المالي. فبسبب فقدان القيمة المالية الذي يصل في وقتنا هذا إلى نسبة ١٠٠٪ في السنة وإذا ما أخذنا بالحسبان الوفاء بالزكاة في مختلف أوقات السنة، فإنه من الضروري لكي يبقى مبلغ الزكاة متوافقاً مع القيمة الحقيقية في وقت فرض الزكاة وإخراجها، مقارنته وربطه بقيمة ثابتة. وإلا فإن مبلغ الزكاة يصبح أقل من واحد بالأربعين، فيُظلَم المحتاج، وتبقى عبادة الزكاة ناقصة.

وينبغي أن ننتبه في موضوع الزكاة إلى أمر في غاية الأهمية، ألا وهو أن الزكاة لا تُدفَع إلا للفقراء والمساكين ولا تُعطى للأشخاص الاعتباريين، ولذلك فإن المدارس، والمساجد، ومعاهد تعليم القرآن والمشافي لا تُبنى ولا تُدعم بأموال الزكاة، وإنما ينفق عليها من أموال الصدقات. والطعام الذي يقدم ضيافةً للمحتاجين لا يعد زكاة، وإنما من أنواع الصدقة، وذلك لأنه ليس فيه تمليك.



والجهات التي تُدفَع لها أموال الزكاة قد حُددت بشكل واضح في القرآن الكريم، وهذا التحديد فيه الكثير من الحكم والفوائد. فبهذه الطريقة تم قطع الطريق أمام تذلل المحتاجين لغيرهم، وجرح كرامتهم الإنسانية، حيث أُمِرَ الأغنياء بالمبادرة إلى البحث عنهم وإعطائهم مال الزكاة دون طلب منهم. وبهذا لا يُفسَح المجال للكسب بأساليب ملتوية دون بذل جهد وعمل، مثل التسول.

ذات يوم جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام يسأله الصدقة. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام للرجل وقد رأى مظاهر الصحة والقوة: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: «**ائتني بهما**»، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله عليه الصلاة والسلام بيده، وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا، آخذهما بدرهم، قال: «**من يزيد على درهم مرتين، أو ثلاثاً**»، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به**»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام عوداً بيده، ثم قال له: «**اذهب فاحتطب وبع**».[٤١٥]

ففعل الرجل كما أمره رسول الله ﷺ، وأكرمه الله تعالى بالبركة والمال، وحفظ نفسه من مذلة سؤال الناس.

٤١٥ أبو داوود، الزكاة، ٢٦/ ١٦٤١.



مع أن الإسلام لم يحرم على أصحاب الفاقة والحاجة من سؤال الناس، إلا أنه اعتبره أمراً مذموماً من الناحية الأخلاقية. ويقول الله تعالى في القرآن الكريم عن الذين اتخذوا السؤال وطلب المال من كل من صادفوهم في طريقهم عادةً لهم دون شعور بأي خجل أو إحراج:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[416]

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لواحد من مثل هؤلاء والذي جاء إليه يطلب شيئاً من أموال الزكاة:

«**إن الله ﷻ لم يرضَ فيها بحكم نبي ولا غيره في الصدقات، حتى يحكم هو فيها، فجزأها ثمانية أجزاء. فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك أو أعطيناك حقك**» [417]

يظهر هنا حرص ودقة شديدة في صرف أموال الزكاة في مواضعها المحددة، لأن الزكاة لا يمكن أن تُدفَع إلا في المواطن التي حددتها الآيات القرآنية المباركة. أما الإنفاق الذي يتم في مكان آخر غير هذه المواضع المحددة فهي أعطية خارجة عن الزكاة تدخل ضمن ما يسمى ب «الخيرات أو أعمال الخير».

---

٤١٦ التوبة: ٥٨.

٤١٧ البيهقي: السنن الكبرى، جـ ٧، ٩/ ١٣١٢٦.

فعندما كان النبي عليه الصلاة والسلام يوزع أموال الزكاة، كان يرد من ليس أهلاً لها. ولكنه لم يكن يرد أحداً دون أعطية من غير أموال الزكاة، أي إنه كان يعطي كل سائل إن لم تكن الأعطية من مال الزكاة، بل وأكثر من ذلك فقد كان عليه الصلاة والسلام يعمل بمقتضى قول الله تعالى:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[418]

وكان الشيخ موسى أفندي رحمه الله يعطي الصدقة حتى لمن اتخذ التسول مهنة له، ويقول:

«أعطوهم ولو قليلاً من المال، لكي لا تعوِّدوا أنفسكم على عدم العطاء!»

وينبغي أن نعلم هذه الحقيقة أيضاً، وهي أن الإسلام لم يفتح المجال للسؤال إلا في الضرورة والحاجة الملحة، لأن مد اليد للناس عمل فيه إساءة عظيمة للإنسان، وحطٌّ من إنسانيته. ولهذا فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام عندما يأخذ البيعة من الناس، كان يشترط على أغلبهم: «أن لا يسألوا الناس شيئاً».

ولذلك ينبغي أن يُميَّزَ الفقراء الذين حفظوا ماء وجههم وتحملوا فقرهم وحاجتهم، عن أولئك الذين أهرقوا ماء الحياء من وجوههم وطفقوا يجولون هنا وهناك يسألون كل من في الطرقات.

418 الضحى: ١٠.



وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الأمر:

«**ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان**» فقال الصحابة الكرام: فما المسكين يا رسول الله؟! فقال رسول الله ﷺ: «**الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً**»[419]

كأن النبي ﷺ أراد من خلال هذا الحديث الشريف القول:

يحصل المتسولون الذين يطوفون على الناس في الطرقات وعلى أبواب المنازل- مهما كانت حاجتهم وفقرهم- على شيءٍ خلال تجوالهم، وأما الذين ينبغي أن لا يُهمَلوا ويُغفَل عنهم، فهم أولئك الذين يخفون حاجتهم، ويتحملون فقرهم بمنتهى الصبر والقناعة.

وقد بيَّنَ القرآن الكريم الأهمية البالغة للإنفاق على مثل هؤلاء الذين يتكتمون على حاجتهم وفقرهم ولا يعرضونها على الناس، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[420]

٤١٩ مسلم: الزكاة، ١٠١/ ١٠٣٩.

٤٢٠ البقرة: ٢٧٣.

إن هذه الآية الكريمة تشير بأحد معانيها إلى ضرورة مراعاة مَن يريد إخراج زكاة ماله للتمليك والتحري، لأن صحة الزكاة مرتبطة بهذا الأمر، فالتمليك يعني إعطاء المال على سبيل الملك وعدم قابليته للإعادة، وأما التحري فهو إجراء عملية البحث قبل دفع المال، أي البحث عمن يستحق الزكاة والتثبت من استحقاقه لها. فلو أن المزكي أَخَّرَ زكاة ماله وأعطاها لمن اعتقد أنه مستحق لها دون القيام بعملية البحث والتحري والتحقق من استحقاقه، ثم تبين له فيما بعد أنه لا يدخل ضمن الأصناف الثمانية المستحقة للزكاة، فإن زكاته غير صحيحة وعليه إخراجها من جديد. وأما إن قام بعملية التحري والبحث ثم ظهر وقوع خطأ، فهنا لا يجب عليه دفع الزكاة مرة أخرى.

ومن الأمور التي ينبغي الانتباه إليها في موضوع الزكاة هو الأمر الآتي:

إن الحق المترتب على الإنسان تجاه نفسه يأتي في المرتبة الأولى بين سائر الحقوق الواجبة عليه، ثم يأتي حق أفراد أسرته، ثم يأتي بعدهم ذوي الأرحام والقربى، وقد روعي في موضوع الميراث أيضاً درجة القرابة وترتيب الحقوق ذاته، وهناك أولويات أيضاً بين أصحاب الحق أنفسهم، ويعود هذا إلى أمرين:

الأول: قوة درجة قرابة المعطي، والأمر الآخر: درجة الحاجة والضرورة لدى الآخذ.



واختيار القريب وترجيحه لا يعني ترك من يعانون الفاقة ويعيشون حالة من الحاجة والضرورة جانباً، ثم إعطاء المال لمن هم أقل حاجة منهم، وإنما هذا الترجيح يكون في حالات الاختيار بين اثنين ممن يتساوون في درجة الحاجة والضرورة. فيجب دائماً أخذ درجة الحاجة والضرورة بعين الاعتبار، فإذا كان البعيد أكثر فقراً وحاجة فلا شك أنه لا يمكن أن يُترَكَ جانباً ثم يُقدَّم القريب بالعطاء.

إن هذه المعايير والمبادئ إلى جانب كونها منابع من رحمة الإسلام بالإنسان، فإنها أيضاً أمور بالغة الدقة تُظهِر توازن الإسلام؛ إنها الرأفة عينها، ولأن القلب البعيد عن الرحمة التي هي الثمرة الأولى للإيمان لا يُعدُّ قلباً نابضاً بالحياة. والبسملة رأس كل خير، والفاتحة تبدأ باسمي الله تعالى «الرحمن والرحيم».

وقصص حياة الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين مليئة بمناقب الرحمة والشفقة، يقول النبي ﷺ مبيناً بأن الرحمة تشمل المخلوقات جميعاً:

«...ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء»[٤٢١]

ومن أعظم مظاهر الرحمة العبادات المالية مثل الإنفاق، وإخراج العشر، والزكاة التي تعد إحدى وظائف العبودية.

---

٤٢١ أبو داوود: الأدب، ٥٨/ ٤٩٤١.



- **زكاة العُشْر**

إن إحدى العبادات المالية التي تكاد تكون منسية هي العُشْرُ، والعشر هو الزكاة المفروضة في المحاصيل الزراعية. فالمحاصيل التي لا تنتج دون حاجة إلى جهود للسقاية والري؛ أي التي تسقى من مياه الأمطار يجب فيها العشر ١٠٪، وأما المحاصيل التي تحتاج إلى السقاية فيجب فيها ٥٪.

والممتنعون عن إخراج العشر مثلهم مثل مانعي زكاة الأموال مذنبون عند الله تعالى، ويعد هؤلاء غاصبين لحقوق الفقراء، والمحتاجين، وأبناء السبيل، والمجاهدين في سبيل الله تعالى.



يُروَى أنه كان لرجل يمني كريم بساتين من العنب والنخيل والفاكهة قرب صنعاء، وقد كان هذا الرجل الكريم في وقت جني المحاصيل يخرج منها ما يزيد بكثير عن العشر ليوزعها على الفقراء وأبناء السبيل والضعفاء، ولما توفي الرجل أصاب أبناءه الطمع والجشع فقالوا:

إن أفراد أسرتنا كثيرون، والمال قليل، فلا تُمكِّنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم! ولنسرع إلى جمع محاصيلنا قبل مجيئهم إلينا...

ثم تعاهدوا فيما بينهم على هذا الأمر. فحَلَّ ببساتينهم الدمارُ والخراب بأمر الله تعالى لنواياهم السيئة هذه، وأصبحت البساتين



الخضراء أثراً بعد عين، ولما جاء الأولاد البخلاء إلى بساتينهم وشاهدوا ما حلَّ بها، أصابهم الذهول، وقالوا: أأخطأنا المكان؟!

لقد كانت البساتين مباركة وتفيض بالمحاصيل بفضل كرم أبيهم بإخراجه العشر بكرم، وبفضل دعاء المحتاجين له، إذ كان ينتفع من تلك البساتين جميع الفقراء وأبناء السبيل؛ أما الأبناء فضاقت عيونهم من العشر الذي كان والدهم يوزعه على الفقراء والمحتاجين، وأرادوا قطعه عنهم، ولم يكونوا يعلمون مصدر سر البركة التي كان الله تبارك وتعالى يطرحها في تلك البساتين والحقول، لأن الغفلة والضلالة كانت قد أعمت قلوبهم.

ولأجل ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿... وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[٤٢٢]

يبين الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم قصة أصحاب ضروان والعاقبة الوخيمة والمحزنة التي انتهوا إليها، هذه العاقبة الملئية بالعبر والعظات، حيث يقول في سورة القلم:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[٤٢٣]

٤٢٢ الأعراف: ٢٠٥.

٤٢٣ القلم: ١٧ – ٢٠.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ . أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾[424]

إن الله ﷻ يبين لنا بتصوير بلاغي في غاية الروعة العاقبةَ المحزنة لأولئك الذين تجردوا من مشاعر الرحمة ولجؤوا إلى الحيل لحرمان الفقراء وأبناء السبيل من حقوقهم، لتكون هذه العاقبة عبرة لمن يعتبر، فالنوايا المضمرة في القلوب مكشوفة أمام الله تعالى، وعظمته محيطة بكل شيءٍ.

يقول أحد الأولياء الصالحين:

«إن الحياة الدنيا ليست إلا حُلماً، وإن مَثل حيازة الثروة في الدنيا كمثل العثور على كنز في الأحلام، فمال الدنيا ينتقل من جيل إلى جيل ثم يبقى في الدنيا».

«إن مَلك الموت يوقظ الغافل من نومه من خلال قبض روحه، وعندها يصاب ذاك الإنسان بالذهول ويعجب من المتاعب والمشاق التي عرَّضَ نفسه لها في الدنيا في سبيل تحصيل هذا المال الذي أيقن الآن أنه ليس بمالكه الحقيقي، فيندم على ما أقدم عليه أشد الندم، لكن فات الأوان، وقضي الأمر...»

ولذلك فإن القرآن الكريم يبين لنا بأن الإنسان في لحظات الموت ينتبه إلى نفسه كالذي استيقظ من نوم عميق، فتصيبه ندامة عظيمة، ويقول:

٤٢٤ القلم: ٢٣ – ٢٦.



﴿...رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [425]

إلا أن هذا التمني لا ينفعه في شيءٍ، لأنه قد فات الأوان على العمل وجاء الأجل والحساب، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى في الآية ذاتها التي بينت هذه الحقيقة أمرَ مَن أكرَمه من عنده بالإنفاق قبل أن تدركه هذه الحالة من الندامة وفوات الأوان.



إن الإنفاق الذي ورد ذكره في مئتي موضع في القرآن الكريم إنما هو تضحية بالمال والنفس في سبيل الله ﷻ. وبناءً على ذلك فإن المسلم إنسان مضح لله تعالى بماله وروحه.

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه للنبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية:

اشترط لربك ولنفسك ما شئت!

فقال رسول الله ﷺ:

«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم!»

فقالوا له: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**الجنة!**»

---

425 المنافقون: ١٠.



فقالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل!

فنزل بعد ذلك قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[426]

في هذه الآية الكريمة بيع وفداء بالمال والروح لله تعالى، وبيع الروح يكون بالجهاد والشهادة.

إن حالة الشهيدة الأولى في الإسلام السيدة سمية رضي الله عنها قدوةٌ وعبرةٌ لنا في هذا الشأن، فقد أنفقت تلك المؤمنة روحها في سبيل الله تعالى بإيمان يعجز البيان عن وصفه، لقد اشترت الجنة، وتنتظر الآن وقد أشادت لنفسها عرشاً متربعاً على قلوب المؤمنين إلى يوم القيامة، لحظةَ إعطائها مكافأتها الأبدية. إذاً علينا أن ننفق أموالنا وأرواحنا في سبيل الله تعالى.

وأما بيع المال لله تعالى فيكون بالإنفاق، وعندما يعدد الله تبارك وتعالى صفات المتقين في القرآن الكريم يقول:

﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[427]

إن للإنفاق والصدقة التي هي الاسم العام لكل عطاء في سبيل الله تعالى أنواع كثيرة ومختلفة.

---

٤٢٦ التوبة: ١١١. أبو داود: الطهارة، ٤٤؛ الترمذي: تفسير سورة التوبة، ٣١٠٠.

٤٢٧ البقرة: ٣.



تبدأ الصدقة والإنفاق بالعطاء والبذل بما هو موجود لدى الإنسان، وبناء على ذلك يعد العطاء إنفاقاً حتى ولو كان شق تمرة، ويحفظ العبد من نار جهنم يوم القيامة، ولهذا فإن النبي ﷺ يرى كل مؤمن غنياً مهما كان قليل المال، لأنه قد بين في الأحاديث الشريفة أن كل عمل خير يقوم به المؤمن صدقة له، مثل التكبير، والتوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، ومواساة المؤمن، وإدخال السرور والبهجة إلى قلوب المكدورين، وإماطة الأذى عن الطريق، وعيادة المريض، وغيرها.

لذلك فإن الغنى الحقيقي هو القناعة التي تظلل القلب، وكل إنسان غني بقدر قناعته.

وأما غني القلب، فإنه حتى ابتسامته في وجه أخيه صدقة، لأن غني القلب ينشرح صدره بمحبة الابتسامة، وينشر السرور حوله، وهذه الحالة من أجمل أنواع الإنفاق، وأما من هم عكس ذلك، أي فقراء القلب، فلا يغنون بشيءٍ.

إذاً؛ إن الغنى الحقيقي ليس بكثرة المال، وإنما بغنى القلب، والمؤمنون هم مَن يسعون إلى امتلاك هذه النعمة وينفقونها على من حولهم، كما يُعد الإنفاق من أجلِّ مظاهر الإيثار والشعور بالمسؤولية المكلف بهما الإنسان المؤمن.

إن إصرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء ذهابه إلى الشام على السير على قدميه وجعلِ خادمه يركب الدابة لما جاء دوره- على الرغم

من اقترابهما من باب المدينة- والدخول إليها بهذه الحالة ما هو إلا مظهر من مظاهر الإنفاق الذي قلَّ نظيره.

وقد عرضَ كلٌّ من علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء ﵄ في شهر رمضان مشهداً من مشاهد الإنفاق الأسطوري، فعلى الرغم من عدم امتلاكهما إلا ما يكفيهما من طعام الإفطار فقد أعطيَا المسكين واليتيم والأسير لنيل رضا الله تعالى.

ومن روائع نماذج الإنفاق أيضاً المشهد الإيماني الذي يعجز حتى أمهر صناع الدراما عن تنفيذه، والذي عاشه ثلاثة من الصحابة في غزوة تبوك، حيث كانوا مصابين بجراح في أرض المعركة يعانون من العطش الشديد، ولما عُرِضَت على أحدهم قربةُ ماء أَبَى أن يشربها حتى يشرب منها صاحباه، وكلما عرضوها على أحدهم أشار إلى صاحبه، وظلت القربة تطوف بينهم حتى ارتقى الثلاثة إلى ديار الحق شهداءَ في سبيل الله تعالى دون أن يتذوق أي منهم شربةً واحدة.

إن هذه المشاهد تشكل أسمى درجات الإنفاق ألا وهو الإيثار.

الإيثار هو البذل للآخرين وحرمان النفس، وكذلك تنازل المرء عن حقه وإحالته إلى أخيه. إن هذا السلوك نادر جداً في مجتمعاتنا اليوم إلى درجة الانعدام، إلا أنه ينبغي تشجيع الناس على المضي في البذل أبعد من الزكاة، وإعطاء مجال أوسع للإنفاق، ثم جعل هذا العمل على شكل مؤسسات تتصف بالدوام والاستمرار،



وينبغي في الوقت ذاته أن تتم في هذه المؤسسات تنشئة أناس غيورين ومتحمسين لخدمة الإسلام. وإلى جانب ذلك فإن من أهم الواجبات الملقاة على عاتق المجتمع اليوم هو إنشاء كل ما يقدم نفعاً عاماً لأمة سيدنا محمد ﷺ من المشافي، والمستوصفات، ودور الرعاية النفسية لمن يعانون من الاضطرابات والأمراض النفسية.

فمن الضروري أن يصبح الإنفاق جزءاً من خُلق كل مؤمن، حيث يقول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٤٢٨]

يُروَى أنه كان لجعفر الصادق رحمه الله تعالى خادم يقضي حاجاته اليومية، وذات يوم كان هذا الخادم يحمل طبقاً من الحساء ليقدمه لجعفر، فتعثر وأراق الحساء عليه، فنظر جعفر إلى الخادم والغضب بادٍ في عينيه. فما كان من الخادم إلا أن قال له:

إن القرآن الكريم يثني على من يكظم غيظه، وقرأ قول الله ﷻ: **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾**.

فقال جعفر: كظمت غيظي!

فقال الخادم:

٤٢٨ آل عمران: ١٣٤.



إن القرآن الكريم يثني في الموضع ذاته على من يعفو، إذ يقول:

﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾.

فقال جعفر: قد عفوت عنك!

وفي هذه المرة قال الخادم:

إن القرآن الكريم يقول في تتمة الآية ذاتها:

﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

فقال جعفر الصادق رحمه الله:

اذهب فأنت حر؛ لقد أعتقتك لوجه الله تعالى!

إن هذه المشاهد هي من أجمل مظاهر الإنفاق التي كانت وسوف تكون نموذجاً للأمة إلى يوم القيامة.

فكما أخبرنا النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد عفا عن امرأة فاجرة، وغفر لها جميع ذنوبها، وأدخلها الجنة للرحمة التي أبدتها في سقايتها لكلب كان قد أشرف على الهلاك بسبب العطش الشديد؛ وبالمقابل فإن امرأة تعرضت للهلاك وأُدخِلَت النار لإساءتها إلى هرة، إذ حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض فماتت. فالمسلم الحق يتعظ ويعتبر من هذه الأمثلة، ويوجه قلبه نحو الرحمة والشفقة.

ينبغي للمؤمن أن يكون مثل القمر المنير في ظلمة الليل، صاحبَ مشاعر رقيقة في الإيثار والرحمة والشفقة، وأن يكون كريماً ومنيراً.



إن أصحاب الصفة الذين جعلوا حياتهم في سبيل خدمة الإسلام في عهد الرسول ﷺ، ولم يشغلوا فكرهم بشيءٍ من عرض الدنيا سوى بعبادة الله تعالى، لم يكونوا يجدون الوقت الكافي لتأمين معاشهم، لذلك فقد كان المسلمون الآخرون يجلبون لهم التمر طعاماً لهم، وذات مرة أحضر لهم بعض الناس تمراً فاسداً، فاضطروا بسبب الجوع الشديد الذي كانوا يعانونه إلى تناول تلك التمرات الفاسدة، وبسبب هذه الحادثة التي تعرض لها أصحاب الصفة فقد نزل التهديد والتحذير الإلهي للذين يقدمون للمحتاجين من الأموال الفاسدة والرديئة، حيث قال الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٤٢٩]

ويخبرنا الله تبارك وتعالى في آية أخرى أننا لا بد أن ننفق من أحب الأموال إلى أنفسنا لكي ننال القرب منه، حيث يقول:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...﴾[٤٣٠]

ولما نزلت هذه الآية الكريمة تنافس الصحابة الكرام من أجل الإنفاق من أحب أموالهم إليهم. فقد كان لأبي طلحة رضي الله عنه بستان كبير قرب المسجد النبوي ويوجد فيه ستمئة شجرة من أفضل أشجار

٤٢٩ البقرة: ٢٦٧.

٤٣٠ آل عمران، ٩٢.

النخيل، وكان أبو طلحة يحب هذا البستان كثيراً، وكان بستاناً مباركًا لأن النبي ﷺ كان دائماً يدخل فيشرب من مائه، ويأكل من ثمره.

فقال أبو طلحة رضي الله عنه:

يا رسول الله! إن أحب أموالي إلي بستان بير حاء، وإنها صدقة لله أرجو بها برَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى.

وبعد أن نطق بهذه الكلمات الصادقة الجميلة، انطلق في الحال إلى بستانه من أجل تطبيق القرار الذي اتخذه بحقه، فلما وصل أبو طلحة رضي الله عنه إلى البسان وجد امرأته جالسة تستظل تحت إحدى الأشجار، لم يدخل أبو طلحة إلى البستان، فنادته امرأته:

يا أبا طلحة، ما الذي تنظره خارج البستان؟ هيا ادخل!

فقال أبو طلحة رضي الله عنه:

لا أستطيع الدخول، وأنتِ أيضاً لملمي أمتعتك واخرجي منه!

فذُهِلت المرأة من هذا الجواب الذي لم تتوقعه، وسألته بحيرة:

ولِمَ يا أبا طلحة! أليس هذا بستاننا؟

فقال أبو طلحة:

لا، وإنما هو من الآن مُلكٌ لفقراء المدينة، ثم أخذ يخبرها بسرور عن البشارة التي جاء بها القرآن الكريم، وفضْلَ الإنفاق الذي أقدم عليه.



وسألته المرأة:

هل أنفقت البستان عن كلينا أم عن نفسك؟

ولما أخبرها أبو طلحة ﵁ بأنه قد تصدق به عن كليهما، قالت المرأة بكل سكينة:

بارك الله بك، ورضي عنك يا أبا طلحة! كنت عندما أرى الفقراء من حولنا أفكر بالأمر ذاته، ولكني لم أكن أجرؤ على البوح به، فليتقبل الله خير عملنا، وها أنا أيضاً أترك البستان وأغادره!

إذا ما نظرنا إلى الجماليات التي كانت تسود في المجتمع الإنساني والتي تظهر من خلال تجذر الأخلاق الحميدة التي دفعت رجلاً مثل أبي طلحة إلى الإقدام على هذه التضحية الفريدة، فلن نجد غرابة ولا صعوبة في فهم عهد رسول الله ﷺ.



وإلى جانب تفسير كلمة «البر» التي ورد ذكرها في الآية الكريمة التي أشرنا إليها في الأعلى بمعنى كمال الخير، ورحمة الله، ورضاه، وجنته، فإن الله ﷻ يعرفها ويفسرها في آية أخرى بقوله:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ



وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٤٣١]

فنرى أن الآية التي تعرِّف البر قد جمعت كل الصفات السامية التي يجب توفرها في الإنسان، وقد قال النبي ﷺ في إشارة إلى ذلك:

«**من عمل بهذه الآية فقد بلغ كمال الإيمان**».[٤٣٢]

إن مجتمعنا اليوم الذي ضعفت فيه مشاعر الأخوة، وفقد طمأنينته وسلامه الاجتماعي، وانتشرت فيه سائر الأمراض الاجتماعية من خصومات وحقد وحسد وتباغض، لَهوَ في حاجة كبيرة إلى الإنفاق والتصدق. كان من الممكن أن نكون محل هؤلاء المساكين والمحرومين والمحتاجين الذين نراهم منتشرين بكثرة حولنا، لذلك فإن إنفاقنا عليهم إيفاء بدَين الشكر لربنا سبحانه وتعالى الذي أغنانا وحفظنا من الحاجة والحرمان.



لقد كان الولي الكبير عزيز محمود هدائي يدعو الناس والسلاطين معاً إلى الإنفاق والصدقات، وقد قال في أحد المكتوبات التي أرسلها إلى السلطان مراد الثالث:

---

٤٣١ البقرة: ١٧٧.

٤٣٢ النسفي: مدارك التنزيل، ١، ٢٤٩.



«أيها السلطان، كما أن جدك السلطان سليمان القانوني كان يجلب المياه من الينابيع ويسقي بها أهالي إسطنبول، فإني أدعوك أن تجلب الحطب من غابات بولو وتوزعها عليهم في هذا الشتاء البارد!»

إن الإقدام على الإنفاق له أهمية كبيرة سواء بالنسبة لنا، أو بالنسبة لأبنائنا. فكما أننا مكلفون بحث أبنائنا على الصلاة منذ نعومة أظفارهم، فإننا ملزمون أيضاً بتنشئتهم على حب الإنفاق، وحب المحرومين والمحتاجين. فإن لم نعوِّدهم على هذا الأمر في صغرهم نكون قد أسأنا إليهم، لذلك ينبغي تربيتهم وتنشئتهم على الإحساس بحقيقة أن المالك الأوحد للثروة والأموال هو الله سبحانه وتعالى.

إن من يرغب في إحياء الإسلام ملزمٌ- ولو ضمن حدود قدراته القليلة- بمساندة المحتاجين والبؤساء، والإحسان إليهم، والإحساس بمعاناتهم وآلامهم ومشاركتهم فيها، والدعاء لهم؛ وأهم جوانب مشاركة البائس والمحروم في معاناته وآلامه هو الإنفاق، وأهم الخدمات التي يمكن للمرء أن يقدمها في وقتنا الحاضر هو إحياء المؤسسات التي تربي المرشدين، والإنفاق عليهم، فكما يقول أحد المفكرين:

«إن أهم فرق بين الشعوب المحكومة والشعوب الحاكمة إنما هو وجود فئة مدربة تدريباً جيداً، وناشئة على تربية مستقيمة».



والعالم بأسره يتعطش لهذه الفئة القليلة.

فعلينا في هذا الوقت العصيب أن ننهض من غفوتنا من جديد، حتى وإن لم يكن الإسلام مسيطراً على مناحي الحياة، ورغم اضطهاد المسلمين، وكونهم منبوذين في مشارق الأرض ومغاربها. وأول أمر علينا القيام به هو تفريغ القلب وتوجيهه لهذه النهضة، وينبغي أن نُعرِّف المجتمع بجدنا ونشاطنا، ونظهر لهم كيف يكون قلب المسلم الحقيقي، وعلينا أن نبذل جهدنا كي نتمكن من تقديم أفضل نموذج للإخلاص والإيثار والتضحية.

والسبيل لتحقيق هذا إنما يكون في الإنفاق. فأحد أهم وأسمى المؤسسات في الإسلام مؤسسة الأوقاف، وروح هذه المؤسسة وأساسها قائم على الميل نحو الإنفاق.

أي إن تحويل الإنفاق إلى عمل مؤسساتي ينتج عنه الوقف، والوقف معناه: حبس المال، ومنعه من التملك والتمليك لوجه الله تعالى. والكمال في الإنسانية قائم على الإحساس بالشفقة والرحمة تجاه كل مخلوق على وجه هذه الأرض، وعلى إظهار الابتسامة والبشاشة في وجه الناس، وأما التضحية بالمال والنفس لوجه الله تعالى فهي كشراء الجنة الأبدية التي يقبل عليها الإنسان يوم القيامة.

إن أقوى مؤثر يصد القلب عن الله تعالى، ويربطه بالنفس موجود في المال والأولاد، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:



﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٤٣٣]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٤٣٤]

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤٣٥]

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٤٣٦]

ولأجل ذلك، يُعد الفقراء والمساكين وأبناء السبيل نعمة عظيمة بالنسبة إلى أصحاب الثروة والمال، فأبواب الجنة تُفتح بأدعيتهم.

الإنفاق والصدقات هي العلاج الأنجع الذي يَحول دون تحول المال والثروة إلى نوع من السرطان يُهلِك صاحبه.

لذلك تعدُّ الأوقاف التي هي مراكز التوزيع المادي والمعنوي لهذا العلاج أوابد رحمة للمجتمع، وهي أجمل الأماكن لتوزيع النفقات، وهي جسور الأغنياء الممتدة إلى للفقراء، فتذيب بذلك مشاعر الحسد والحقد بين الأغنياء والفقراء، وتصبح أفضل عامل لبناء مجتمع قائم على الشفقة والتراحم.

---

٤٣٣ التغابن: ١٥.

٤٣٤ المنافقون: ٩.

٤٣٥ التغابن: ١٦.

٤٣٦ التغابن: ١٧.

وما يلفت الانتباه أن المسلمين في الماضي قد أسسوا مئات الآلاف من الأوقاف، واستمرت هذه الأوقاف خلال عصور متعاقبة لتقدم كلٌّ منها أجمل نموذج لمظاهر الإنفاق والبذل والعطاء.

لقد فهموا الإسلام وعاشوه بأسمى المشاعر ليبرهنوا بذلك للعالم أجمع سعة الشفقة والرحمة التي يحملها الإنسان في قلبه، وقد امتدت الرحمة التي كانت تحتضنها قلوبهم لتشمل- بعد الإيفاء بها تجاه الإنسان- الطيور الجائعة على قمم الجبال خلال الشتاء، والحيوانات الأخرى التي تعاني من الإصابات والأمراض.

لقد نشروا الرحمة في المجتمع من خلال مئات الآلاف من الأوقاف التي أسسوها، وكأنهم لم يدعوا جرحاً إلا وضمدوه وعالجوه.

ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن الوقف مسؤولية ألقاها الإسلام على عاتق كل مسلم تجاه المخلوقات جميعاً. فالأوقاف مؤسسات المحبة والشفقة والرحمة التي وضعها الخالق للمخلوقات. لقد وصف الله تبارك وتعالى الكون وما فيه بالأمانة، وأودع كل شيءٍ في هذا الكون أمانةً بين يدي الإنسان. ويعد كل من الأولاد، والمال، والصحة، من هذه الأمانة، والإنسان ملزم بحماية هذه الأمانات بحرص، فوضع الأمانة في مكانها السليم يعد رحمةً وبركةً.

فبعدما نزل أمر الله تعالى بالصدقة تنافس الصحابة الكرام، وصار كل منهم يأتي بما لديه من المال والمُلك، ويضعها بين يدي



رسول الله ﷺ. لقد كان أولئك الصحابة الكرام في كل وقت مدركين أن الله تعالى (يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) ويقدمون كل ما يأتون به إلى رسول الله ﷺ في سبيل الله تعالى بكل إخلاص وصدق.

ولا يقتصر الإنفاق على الأشياء المادية، وإنما يمكن الإنفاق من كل ما أكرم الله تعالى الإنسانَ به، فتبليغ الإسلام من خلال تطبيقه في الحياة يعد من أحسن أنواع الإنفاق، وكان الصحابة الكرام يتجهون بدافع إعلاء كلمة الله إلى أقصى بقاع الأرض وينفقون من أنفسهم في سبيل الإسلام، ومن هؤلاء الصحابة الكرام قثم بن العباس ﵄، ومحمد بن عثمان بن عفان ﵄، لقد حمل هذان الصحابيان نور الإسلام وشعلته إلى أبعد مكان وصلوا إليه، وهو سمرقند. وتجلت نيتهما الخالصة في الإنفاق بأن كانا وسيلة لتخريج كثير من علماء الأمة، أمثال الإمام البخاري، والإمام الكاساني، والإمام الترمذي، والشيخ النقشبندي.

إن تقديم الإسلام في هذا اليوم منهجاً وأسلوباً للحياة من خلال تبليغه بشكل حي، أي بتطبيق بتعاليمه وعيشه كما كان عليه السلف الصالح، سيكون أحسن أنواع الإنفاق.



- **أدب الإنفاق**

إن الأدب في الزكاة والصدقة له أهمية بالغة، لا سيما بالنسبة للمعطي، إذ ينبغي أن تتحرك بين جوانحه مشاعر الشكر للآخذ، لأن الآخذ يخلصه من الدَّين المفروض عليه، ويكون وسيلة لنيله الأجر والثواب، والصدقة في الوقت ذاته تشكل وقاية للمعطي من الأمراض والمصائب. ويبين الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم الأدبَ الذي ينبغي التحلي به عند إعطاء الصدقات، حيث يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٤٣٧]

إن الله سبحانه وتعالى إلى جانب حثه وتشجيعه في هذه الآية الكريمة المؤمنين على عمل الخير ونيل الثواب والأجر، فإنه يبين أيضاً بوضوح الأدبَ الذي ينبغي مراعاته عند الإقدام على عمل الخير، أي إن عمل الخير الذي يصاحبه كسر للقلوب واحتقار الفقير وإيذائه، وإظهار العجب والتفاخر، ليس له قيمة عند الله تعالى أبداً، فهذا العمل يذهب هباءً منثوراً.

يقول رسول الله ﷺ:

«**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم!**» وقرأها ثلاث مرات.

---

٤٣٧ البقرة: ٢٦٤.



فقال أبو ذر رضي الله عنه: خابوا وخسروا. من هم يا رسول الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«**المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منة، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره!**»[٤٣٨]

يتبين من خلال هذا الحديث النبوي والآية التي قبله أن أعمال الخير التي يصاحبها عجب وتفاخر، وجرح لمشاعر الفقير تعد من الكبائر التي تعرض مرتكبها للعذاب الشديد، ذلك أن القلب محط نظر الله عز وجل.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«أيها الإنسان، أنفق ثروتك ومالك بمنتهى الجمال والرِّقة، واكسب بذلك قلباً حتى يضيء لك دعاء ذاك القلب الظلامَ المطبق الذي سوف يخيم عليك في القبر، ويكون نوراً بين يديك!»

ويبيِّن أيضًا أن الفقراء والمحتاجين نعمة عظيمة للكرماء لأنهم وسيلة لإيفاء دَين الشكر لله تعالى، وأن سخاءهم لا يتبيَّن إلا من خلال هؤلاء الفقراء، وبالتالي ضرورة التزام هؤلاء الأغنياء بالأدب وعدم تجريح قلوبهم، فيقول:

«الفقير مرآة الكريم، فاحذر أن تلوث المرآة بكلمات تكسر القلوب، أي كن في غاية الرِّقة تجاه قلب الفقير، لأن القلب محط نظر الله عز وجل».

---

٤٣٨ مسلم: الإيمان، ١٧١/ ١٠٦.

«إن كرم الله تعالى يتجلى في الفقراء، فأولئك الفقراء يلجؤون إلى أصحاب الكرم والجود، ويعرضون عليهم آلامهم ومعاناتهم، وبذلك فإنهم يمهدون للأغنياء من ذوي الحمية والشهامة سبلَ السعادة. ومن البركات الأخرى نمو براعم المحبة والرحمة في قلب الفقير نتيجة لدخول الغني إليه».

«الفقراء مرايا لكرم الحق سبحانه وتعالى، وأصحاب المال والثروة يشاهدون جودهم وسخاءهم في تلك المرايا. ويتعرف الأغنياء الصالحون الذين يفنون في الحق سبحانه وتعالى على أنفسهم من خلال إدراكهم بأن هذه الثروات التي بين أيديهم ما هي إلا أمانات لديهم، ويصبحون انعكاساً للكرم الإلهي؛ إنهم يفنون في السخاء من خلال أخذ نيل نصيب من كرم الحق سبحانه وتعالى.»

«إن كل الذين لا يُخرِجون حب أموالهم سواء أكانت كثيرة أم قليلة من قلوبهم هم من البائسين والفقراء في الآخرة، فهذا النوع من البشر ليسوا على باب الحق سبحانه وتعالى، إنهم عبارة عن الصور أو النقوش التي على الوجه الخارجي للباب».

«إن هؤلاء الذين ابتعدت قلوبهم عن الله تعالى هم المساكين وفقراء الروحانية، وأما ثرواتهم الظاهرة فما هي إلا رسم باهت، ونقش بلا روح لبؤسهم وخسرانهم؛ هؤلاء في الحقيقة أشخاص تائهون، لا روح لهم، فاحذر من الاقتراب منهم! انتبه أيها الإنسان من أن ترمي العظام لصورة كلب!».



«إن مثل هؤلاء الأشخاص أسرى للمنفعة الزائلة، فهم غافلون عن التعطش للحق».

«احذر من أن تضع أطباق الطعام أمام هؤلاء الأموات؛ أي لا تلتفت إليهم، ولا تقترب منهم! إن أصحاب الثروة هؤلاء سوف يصبحون من المتسولين السفلة يوم المحشر!».

«إن مثل هؤلاء فقراء الرغيف وليس فقط فقراء الروحانية، إنهم يشبهون السمك، لكن وإن شابهوا السمك من حيث الشكل فإنهم يقفزون من البحر ويهربون منه».

«فهم يظنون أن التعاسة والسفالة سعادة، فباعتقادهم أنهم يأكلون أشهى الأطعمة، ويشربون ألذ المشروبات. ولكنهم في الحقيقة محرومون من اللقمة السماوية.»

«فيا من لا تود السقوط في هاوية هذا الخسران، أحط المخلوقات بكرمك، لتكون من العارفين!»



إن أحد الأمور المهمة التي ينبغي الانتباه إليها في موضوع الزكاة والصدقات وأعمال الخير هو ضرورة مراعاة السرية، لأن الصدقة التي تُعطى في العلن تضعف مشاعر الحياء لدى من يأخذها، ليتحول الأمر لديه مع مرور الزمن إلى عادة، مما يقضي



على رغبته في العمل وبذل الجهد لكسب لقمة عيشه، وإلى جانب ذلك فإن العلانية في العطاء تسوق المتصدق إلى الغرور والكبر والعجب.

إلا أنه في بعض الأحيان تتحقق فوائد في إعلان الأغنياء لأعمال الصدقات والخير التي يقومون بها، وإخبار الناس بها، إذ إنهم بهذا التصرف يشجعون الآخرين على تقديم المساعدات للفقراء من الناس، ويقول الله تبارك وتعالى في هذا الخصوص:

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...﴾[٤٣٩]

لقد استنتج المفسرون من هذه الآية الكريمة وجوب إعطاء الزكاة علانية، والالتزام بالسرية في الصدقات وأعمال الخير الأخرى.

وقد أورد ديننا الحنيف معيار الأدب في الإنفاق بأبهى وأجمل مثل، وهو ألا تعلم اليد اليسرى ما تنفقه اليد اليمنى، وورد في الأحاديث النبوية الشريفة أن الذين يلتزمون بهذا الأدب في صدقاتهم هم من الذين يظلهم الله سبحانه وتعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله.



٤٣٩ البقرة: ٢٧١.



إن غاية الدين الأساسية بعد التصديق والإيمان بوحدانية الله تعالى تربيةُ إنسان رقيق ذو مشاعر للوصول إلى مجتمع يتمتع بالسلام والهدوء، وتنتشر فيه قيم المحبة والتعاضد، ويمكن تحقيق هذا الأمر بنشر مشاعر الشفقة والرحمة التي تتجلى في القلب من خلال الإنفاق والزكاة. وينبغي أن يحيط قلب المؤمن بسائر مخلوقات الله تعالى بالشفقة والرحمة.

إننا نعيش في ملك الله ﷻ، ونتقلب في نعمه المختلفة، أفلا يتفكر المهملون للعبادات المالية ممن تأتي المكرمات، وفي نِعَم من يتقلبون؟

ونتيجة المحبة هي التضحية والفداء. والمحب يتلذذ بالتضحية في سبيل المحبوب بقدر محبته له، وهو مستعد لتقديم كل شيءٍ لحبيبه حتى روحه. والإنفاق على مخلوقات الله تعالى أجمل مظهر من مظاهر محبة المحب لمحبوبه، لأن الزكاة والصدقات من أجل الله تعالى، وقد ورد أن الله تعالى يأخذها في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[٤٤٠]

وقال رسول الله ﷺ لبيان هذا الأمر وتأكيده:

٤٤٠ التوبة: ١٠٤.



«إن الصدقة لتقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد الفقير»[441]

ولذلك فإن أهم ما ينبغي مراعاته والانتباه إليه في موضوع الزكاة والصدقات هو نية نيل رضا الله بصدق وإخلاص. فليس من الصواب أن ينتظر المتصدق أو المزكي الشكرَ على عطائه، أو يصاب بالغرور والعجب، أو يمنن من أعطاه، فمثل هذه الأفكار والتصرفات تمحق أعمال الخير وتمحو ثوابها وأجرها، فالمطلوب من المتصدق أن يكون ممتناً وشاكراً للفقير والمحتاج الذي قبلَ تلقي صدقته، وأن لا يقصد بها إلا رضا الله تعالى، لأن هذا السلوك يجعل الصدقة مقبولة عند الله ﷻ.

وقد أنزل الله تبارك وتعالى آياتٍ مباركات تتضمن إلى جانب تقدير واستحسان الإنفاق الذي قام به سيدنا علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بالشكل الذي ذكرناه، حثَّ الأمة للسير على خطاهما في ذلك الإنفاق، حيث قال الله ﷻ:

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[442]

---

٤٤١ المناوي: كنوز الحقائق، ص، ٣٤.

٤٤٢ الإنسان: ٨ – ١١.



فإذا ما تحلى المنفق بالأخلاق المذكورة في هذه الآيات المباركة، فإن الإخلاص والصدق الذي في قلبه ينعكس على من يعطيه، ويُحدث إنفاقه أثراً إيجابياً على هذا الشخص حتى ولو كان غير أهل للإنفاق عليه.

حيث يقول النبي ﷺ في إشارة إلى هذه الحقيقة:

«قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة.

فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون:

تصدق الليلة على زانية!

فقال الرجل:

اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة.

فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون:

تصدق على غني!

فقال الرجل:

اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقن بصدقة.

فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون:

تصدق على سارق!

فقال الرجل:

اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق.



فأتي الرجل في منامه، فقيل له:

أما صدقتك فقد قبلت، أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته». [٤٤٣]

لا شك أن هناك تجليات لا حصر لها لهذا الحديث الشريف، وقد ظهرت إحدى هذه التجليات لدى الشيخ سامي أفندي رحمه الله الذي يعد واحداً من أهل الله الذين هم ورثة النبي عليه الصلاة والسلام، على النحو التالي:

جاء رجل إلى الشيخ، وقال له:

يا شيخنا، أرجوك أن تعطيني ثمن سيجارة!

فأخرج الشيخ سامي أفندي نقوداً من جيبه دون أن يفكر أو يتردد، وسط علامات الحيرة والدهشة التي علت وجوه من حوله، فغادر الرجل المسكين وقد غمره الفرح والسرور.

أثارت هذه الحادثة لدى أحد الأشخاص الموجودين حول الشيخ سامي فضولاً عجيباً، ولم يستطع السيطرة على فضوله فخرج يتعقب أثر ذلك الرجل المسكين. فتفاجأ بأن الرجل قد تخلى عن فكرة شراء الدخان ليشتري بتلك النقود طعاماً...

٤٤٣ انظر: البخاري: الزكاة، ١٤؛ مسلم: الزكاة، ٧٨/ ١٠٢٢؛ النسائي: الزكاة، ٤٧.



فهذا هو التأثير الإيجابي الذي يحدثه عمل الخير بمن يتلقاه إن كان محفوفاً بالإخلاص لله تعالى! ولذلك فمن الضروري أن نتحكم بقلوبنا أكثر من اهتمامنا بمن ننفق عليه، وذلك حتى نكون من الأسخياء الحقيقيين.

اللهم اجعل قلوبنا ينابيع فياضة بمظاهر الرحمة والشفقة تجاه مخلوقاتك جميعاً!...آمين!



شروط فرضيتها

١. يجب أن يكون المزكي مسلماً، عاقلاً، بالغاً، وحراً.

٢. أن يكون مالكاً للنصاب، ماعدا ما يلزمه لتلبية احتياجاته، والوفاء بديونه.

٣. أن يكون المال نامياً حُكماً وحقيقة.

٤. أن يحول الحول على المال الذي تجب فيه الزكاة، أي أن يمر عليه سنة قمرية / ٣٥٤ / يوم.

٥. أن يكون المال الذي تجب فيه الزكاة في ملكية المكلف بصورة كاملة.

الأموال التي تجب فيها الزكاة، ونصابها

النصاب للغنم والماعز أربعون رأساً، وللبقر والجاموس ثلاثون رأساً، وللإبل خمسة رؤوس، ونصاب الذهب واحد وثمانون غراماً، وأما نصاب الفضة فهو خمسمئة وواحد وستون غرام. إن النصاب ومقدار الزكاة في الذهب والفضة ثابت لا يتغير،



وأما النصاب ومقدار الزكاة في الحيوانات فمتغير، إذ كلما ازداد العدد ازداد المقدار الواجب والنصاب.

مستحقو الزكاة

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٤٤٤]

إن هذه الآية الكريمة تبين بصورة جلية المواضع التي تُصرف فيها أموال الزكاة، وهي:

١. الفقراء: وهم من لا يُعدون أغنياء في الشرع، أي الذين لا يملكون من المال ما يبلغ نصاب الزكاة، وهؤلاء يمكنهم أخذ مال الزكاة وإن كانوا ذوو قدرة على العمل، أو لديهم عمل.

٢. المساكين: وهم من لا يملكون قوت يومهم، أي من يعانون من الفقر المدقع.

٣. موظفو الزكاة.

٤. المؤلفة قلوبهم: وهم من يُحبَّب الإسلام إلى قلوبهم.

---

٤٤٤ التوبة: ٦٠.



٥. الأرِقَّاء: حيث تعطى أموال الزكاة لمن هم تحت الرق كي يفتدوا بها أنفسهم ويتحرروا من الرق والعبودية. إلا أن الرق ألغي في وقتنا الحاضر.

٦. المدينون: حيث تعطى الزكاة لمن دَينه أكثر من ماله.

٧. من هم في سبيل الله ﷻ: وهم المجاهدون في سبيل الله، والذين تقطعت بهم السبل ونفد مالهم وهم في طريق الحج، وطالبو العلم في سبيل الله.

٨. أبناء السبيل: وهم الذين انتهت أموالهم خلال السفر، وهؤلاء تُدفع لهم أموال الزكاة حتى ولو كانوا أغنياء في بلدانهم.

من لا تُدفع لهم الزكاة

لا تُعطى الزكاة للأم، والأب، والجدة، والجد، والابن، والبنت، والأحفاد، والأغنياء، وغير المسلمين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الزكاة التي يعطيها أحد الزوجين للآخر غير صحيحة.

العُشر (زكاة المحاصيل الزراعية)

١. ليس هناك نصاب في زكاة المحاصيل والمنتوجات الزراعية وفقاً لمذهب أبي حنيفة رحمه الله، أي لا يشترط في المحصول بلوغ مقدار معين، ولا حولان الحول عليه.

٢. إن الأراضي التي تنتج أكثر من محصول في السنة تخضع للعشر في كل محصول تنتجه.



٣. يؤخذ العشر من المحاصيل الزراعية العائدة لتركة الميت، وكذلك محاصيل الأراضي التي في ملكية الصغير الذي لم يبلغ، والمجنون.

٤. النصاب في المحاصيل الزراعية وفقاً لرأي أبي يوسف والإمام محمد هو خمسة أوسق، أي طن واحد، فإن تجاوز المحصول الطن الواحد فيجب فيه العشر.

٥. يجب أن تكون المحاصيل الزراعية الخاضعة للعشر قابلة للادخار مدة سنة واحدة، ولذلك لا يجب العشر في الفاكهة والخضار. مثل الأجاص، والتفاح، والدراق، والمشمش، والطماطم، والفلفل، والكراث، والكرفس، لأنها غير قابلة للادخار وسريعة التلف.

٦. يجب العشر في محاصيل الأراضي التي تُسقى بمياه الأمطار، أو من مياه الانهار، والجداول من غير نفقة؛ وأما الأراضي التي تُسقى طيلة السنة أو لأكثر من نصفها بالمياه المستخرجة أو المجلوبة باستخدام المحركات، أو بالمياه المشتراة فيجب فيها نصف العشر. ولا تخصم المصاريف من المحصول مثل؛ ثمن البذار، وأجرة اليد العاملة، وأجرة عامل السقي، وثمن الأدوية وغيرها.

٧. إذا أخرج العشر من ثمار الزيتون، والسمسم، وعباد الشمس، فلا يجب العشر مرة ثانية عند استخراج الزيت من هذه الثمار.



إلا أنه تجب زكاة الأموال التجارية على من يشتري هذه المنتجات من منتجيها بغرض التجارة.

٨. يُؤخَذ العشر الواجب في المحصولات الزراعية عندما تنضج هذه المحاصيل وتقطف وتصبح كمياتها معلومة بأن تصبح في يد المالك، ولا يؤخذ قبل ذلك. أما إن لم ينتهِ حصاد المحاصيل، ولم تعرف كميات الثمار فلا يجوز إخراج العشر منها. أما عندما ينتهي الحصاد وتتحدد الكميات فيمكن للمالك حينها إخراج العشر منها.

٩. إذا أُكل من الحبوب أو ثمار الأشجار التي يجب فيها العشر قبل إخراجه، فيجب أن يُأكَل بنية دفع العشر، ويجب أن يضمن ذلك. فمثلاً وفقاً لمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى إن قُطف عشر كيلو غرامات من العنب فيجب أن يضمن كيلو غرام واحد كزكاة العشر لهذه الكمية.







الحج

العبادة الفردية الاجتماعية التي تحيي القلوب



الحج

العبادة الفردية الاجتماعية التي تحيي القلوب

إن الحج الذي يعد أحد الأركان الخمسة للدين الإسلامي عبادة سامية ووسيلة لبلوغ حقيقة سر الحديث النبوي القائل:

«**موتوا قبل أن تموتوا!**»[٤٤٥]. وذلك من خلال إيصال الحق والإيمان والروحانيات- من عهد سيدنا آدم عليه السلام الحلقة الأولى في سلسلة الأنبياء إلى عهد نبي آخر الزمان سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم- إلى الكمال في القلوب، ووضع هذه القلوب في مشهد مصغر شبيه بمشاهد يوم المحشر.

لقد كان الحج موجوداً ما قبل ظهور الإسلام، إلا أن المشركين قد أخرجوا الحج عن طبيعته الأصلية كعبادة، فجعلوا مناسكه وكأنها مراسم استعراض أو احتفالات رسمية تجري بين يدي أصحاب القوة والنفوذ، وبعيدة كل البعد عن الأخلاق الحميدة.

---

٤٤٥ العجلوني: كشف الخفاء.



إذ إن أبناء قبيلة قريش التي تتمتع بالنفوذ والامتياز بين غيرها من القبائل العربية كانوا يطوفون حول الكعبة وهم مرتدين كامل ثيابهم، وأما أبناء القبائل العربية الأخرى فقد كانوا يطوفون حول الكعبة عراة تماماً بنسائهم ورجالهم. وقد كانت تغطية أماكن العورة لهؤلاء الذين خلعوا ملابسهم وتعروا للطواف حول الكعبة تعود إلى كرم القرشيين؛ أي إن أراد القريشيون، أعطوهم ثياباً لتغطية عوراتهم كان بها، وإن لم يعطوهم طافوا عرياناً. وكانوا إذا ذبحوا قرابينهم وأضحياتهم لطخوا باب الكعبة وجدرانها بدماء هذه القرابين، وأما اللحوم فقد كانوا يحرقونها. ولما جاء الإسلام قضى على كل هذه العادات اللاأخلاقية، والخرافات الباطلة جملة وتفصيلاً. ذلك أن الغاية الرئيسة لكل عبادة في الإسلام إنما هي ذكر الله تعالى، وطلب المغفرة منه، وإعلاء كلمة الله ﷻ.



إن لعبادة الحج حكماً كثيرة منها دنيوية ومنها أخروية:

فالحج يتم في جو مهيب ومبارك تمتزج فيه مشاعر المحبة، والوجد، والإيمان العميق للمسلمين الذين هم مظهر للعفو والمغفرة التي هي من تجليات رحمة الله تعالى الواسعة.

وبالحج يستطيع الإنسان الاستلهام من توكل سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ويمكنه من رجم وساوس عدونا الداخلي الذي يعرف بالنفس، وعدونا الخارجي الذي هو الشيطان،



ويفتح أمام العباد المجال واسعاً للالتجاء والتضرع إلى ربهم ﷻ وهم يلبسون جميعاً ما يشبه كفن الموتى ومتحررون من الفروقات والطبقات الاجتماعية. والحج يدفع العباد إلى معايشة مشهد من المشاهد العظيمة ليوم القيامة والتي تقشعر منها الأبدان، ويجذب المسلمين من شتى بقاع الأرض ليلتقوا ويجتمعوا على صعيد واحد مهما بعدت واختلفت بلدانهم ومشاربهم، وهو بذلك تأسيس لنوع من الأخوة الإيمانية بين أتباع الإسلام.

أي يمكن القول بأن الحج محاولة للتخلص من أهواء النفس من خلال التحرر من الثياب التي على الجسم والنفاذ إلى أعماق الروح.



أما الأماكن المباركة التي تؤدى فيها مناسك الحج فهي مليئة بالإشارات والآثار والشعائر الإلهية، فلا يخطر في بال الإنسان هنالك إلا بركات الله تبارك وتعالى ورحماته. ولذلك فإن القرآن الكريم عندما يذكر وصف تلك الأجواء الرحمانية، فإنه يعبر عن ذلك ب «شعائر الله» و «حرمات الله».

ومن غايات الحج أيضاً إظهار الاحترام والتعظيم لتلك الأماكن المباركة، وتزيين القلوب بذكرى المقامات المقدسة الموجودة هناك.

إن هذه الأماكن المباركة فيها روحانيات منذ عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، وعندما يحج العارفون إلى بيت الله الحرام فإنهم يسارعون إلى الفوز بهذه الروحانيات في تلك الأماكن



والمقامات، لأن هذه الأماكن المقدسة تعد منابع فيوضات استثنائية مليئة بالذكريات والآثار لسلسلة الأنبياء والرسل.

إن الذين يطؤون بأقدامهم تربة هذه الأماكن المباركة بنيَّة العبادة والحج يتجلى فيهم دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[446]

والفيوض والبركات الكامنة في هذا الدعاء.

فهذا المظهر والمظاهر الكثيرة غيره تجعل القلوب المؤمنة أسيرة الاشتياق والحنين لتلك الأماكن المباركة، فكم من قوافل المحبين كانت تئن وتنادي:

ما عدت أهتم للبعد والقرب،

جُلُّ همي أن أصل إليك يا كعبة الله!

وأحياناً كانوا يرسلون السلام إلى تلك البلدة المباركة، وإلى سيد العالمين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، بقولهم:

«يا نسائم الصباح، إن كان طريقك إلى مكة والمدينة، فبلغي السلام منا إليهما، وعلى الأخص إلى نبي الإنس والجن سيدنا محمد المصطفى الصلاة والسلام!»

---

٤٤٦ البقرة: ١٢٨.



وقد تعمقت مظاهر المحبة هذه في القلوب المؤمنة حتى إن تفاؤلهم وتبركهم بسلام الذاهبين إلى تلك الديار والأماكن المقدسة قد صار عرفاً لازماً. ويقول أحدهم:

احملوا منا السلام إلى الطرقات التي تعبرونها!

احملوا منا السلام إلى من هم من أهل الله!

اذهبوا وأوفوا بشعائر حجكم، لتنالوا الصفاء، وبلغوا منا السلام إلى محمد المصطفى!

احملوا منا السلام إلى خزائن كنوز مكة والمدينة، وإلى الخلفاء الراشدين الأربعة!

احملوا منا السلام إلى الحناجر التي تنادي لبيك لبيك، وإلى ماء زمزم، وإلى أحفاد بني هاشم!

احملوا منا السلام إلى الصحابة الكرام، وإلى الإحرام الذي تدخلونه فلا تلوثون أيديكم بالحرام!

ادعوا وتوسلوا إلى الله تعالى لأجلنا، واحملوا منا السلام إلى الكعبة المعظمة!

احملوا منا السلام إلى من دخلوا في رباط المحبة، إلى من لا يقعون في مصيدة الغفلة، إلى جبل النور الجميل!

احملوا منا السلام إلى مقام إبراهيم

احملوا منا السلام إلى البراءة التي جاءت من الحق، إلى منى وعرفات!

احملوا منا السلام إلى جنتنا الباقية، إلى ألحاننا الجميلة!



وما أكثر أهل الله الذين عاشوا في جو هذه المحبة ولم يستطيعوا تسكين قلوبهم التوَّاقة، ووصلوا إلى تلك البلدة المباركة قاطعين مسافات طويلة فأدوا صلواتهم هناك. حتى إن بعض هؤلاء قد اصطحبوا معهم كثيراً من الفقراء الذي كانوا يتمنون رؤية تلك الأماكن المباركة، ولكن منعهم فقرهم الذي يعانون منه من الذهاب إلى تلك الأماكن، فجعلوهم ينالون نصيباً من هذا الإحسان واللطف الإلهي. وخير مثال لذلك الحادثة المشهورة التي جرت مع الشيخ عزيز محمود هدائي:

عُرِضَت على الشيخ هدائي دعوى غريبة خلال السنوات التي عمل فيها قاضياً لمدينة بورصا، إذ جاءت إليه امرأة تشتكي على زوجها، فقالت:

سيدي القاضي! إن زوجي ينوي كل عام الذهاب إلى الحج، إلا أنه لا يستطيع الذهاب بحال من الأحوال لفقرنا الشديد. وهذا العام أيضاً أصر على نيته بالذهاب. حتى إنه قال:

«إن لم أستطع الذهاب إلى الحج هذا العام فإني سوف أطلقك!».

وبعد فترة وقبل عيد الأضحى بأيام اختفى عن الأنظار. وبعد مرور خمسة أو ستة أيام ظهر بيننا وقال: بأنه ذهب إلى الحج وعاد. فهل يُعقل أن يحدث مثل ذلك يا سيدي القاضي؟ يا سيدي، لم أعد أطيق أكثر من ذلك، أريد الطلاق من هذا الرجل الكاذب!



فأرسل القاضي هدائي في طلب زوج المرأة المشتكية لكي يتحقق من ادعائها، وسأله فيما إن كان ما أخبرت به زوجته صحيحاً أم لا. فقال الرجل:

سيدي القاضي، إن كل ما أخبرتكم به امرأتي صحيح، وما قلته أنا أيضاً صحيح. واعلموا يا سيدي بأني ذهبت إلى الحج وعُدْت. حتى إنني التقيت في تلك البلدة المباركة ببعض الحجاج من أهل بورصا، ووضعت عندهم بعض الهدايا أمانات من أجل أن يحضروها معهم عندما يعودون إلى البلاد.

دُهش القاضي محمود هدائي، وسأله:

كيف يحدث ذلك يا رجل؟!

فأخذ الرجل المسكين يشرح، وقال:

سيدي القاضي، كل سنة أنوي الذهاب إلى الحج، وأصاب بحزن شديد لعجزي عن الذهاب لفقري المدقع، ولما علمت أني لن أنجح في الذهاب هذا العام أيضاً انتابتني مشاعر حزن عميق، واتجهت إلى الشيخ محمد أسكيجي. فأمسك الشيخ بيدي وطلب مني أن أغلق عيني. ولما فتحت عيني وجدت نفسي في الكعبة!

لم يقبل القاضي الذي يمر عليه مثل هذه الحادثة لأول مرة بكلام الرجل المسكين معتبراً أن الأمر غير ممكن الحدوث ولا يقبل به العقل والمنطق.



وأمام هذا الرفض القطعي صرخ الرجل المسكين الذي ما زالت الأحاسيس الروحية والمعنوية لتلك البلاد المقدسة حيَّةً بين جوانحه، بكلام يبدو في الظاهر بسيطاً وسطحياً، ولكنه يحمل معانٍ معبرة، فقال:

سيدي القاضي، إن عدو الله تعالى إبليس اللعين يمكنه أن يقطع المسافات الشاسعة ويجول بين مشارق الأرض ومغاربها في لحظة واحد، فلمَ لا يمكن أن يذهب عبد من خواص أهل الله إلى الكعبة في لحظة واحدة؟

فوجد القاضي محمود هدائي هذا الجواب في غاية الحكمة وجديراً بالاعتبار، وأجَّل البتَّ في الدعوى لحين عودة الحجاج من أهل بورصا. ولما عاد الحجاج باشر بإجراء التحقيقات معهم بخصوص الكلام الذي أخبر به الرجل المسكين، ولما تأكد من وقوع الحادثة كما أخبر بها الرجل، اضطر وهو في حالة من الدهشة والذهول إلى رد الدعوى التي قدمتها المرأة. ولكن دخلت شبهة كبيرة في قلبه، ثم بعد ذلك دخل حلقة علم الشيخ أُفتادة بفضل الشيخ أسكيجي، فصار من أهل الله العارفين.



والحاصل إن السعي- مادياً ومعنوياً- والتوجه إلى تلك الأماكن المباركة ليس من أجل رؤية رمال الصحراء، وإنما التوجه إلى هناك هو من أجل زيارة مقام سيدنا إبراهيم ، وزيارة موطن

سيدنا إسماعيل عليه السلام وأولاده. إن التوجه إلى هناك هو من أجل رؤية البلاد التي وُلِدَ فيها سيدنا رسول الله ﷺ وبلَّغَ فيها دعوة الإسلام، ومن أجل ملء قلوبنا وأكبادنا بالأنفاس التي تنفسها نور الكون سيدنا محمد ﷺ. وما أجمل قول أحد الشعراء:

«إن المكان الذي تجول فيه بعينيك من أعلاه إلى أسفله وفي سائر أنحائه، فتجد فيه أعداداً لا حصر لها من المعجزات هو هذا المكان!».

إن هذه العبارات ليست مجرد أحاسيس قائلها، وإنما هي حقيقة إلهية. حيث يقول الله ﷻ واصفًا ذلك المكان المقدس:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ...﴾[٤٤٧]

ولذلك فإن الذين يرفعون الحجب عن أعينهم في تلك الأماكن المقدسة وينظرون إلى ما حولهم بعيون قلوبهم، يزداد إيمانهم لتبدأ المحبة في السريان في عروقهم. فأينما نظروا هناك يجدون أنفسهم في روحانية لا مثيل لها، فتدمع أعينهم، وتنشغل ألسنتهم بالتسبيح والتهليل، ويمضون سائر أوقاتهم في تلك البلاد المباركة بحال من الأدب والتعظيم، عاملين بقول الله تبارك وتعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[٤٤٨]

٤٤٧ آل عمران: ٩٨.

٤٤٨ الحج: ٣٢.



ومن هذا المنطلق، فإن الحج عبادة جانبها المعنوي لا يقل أهمية عن جانبها المادي. وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «الحج المبرور» أي الحج الذي يكون من أوله إلى آخره قائماً على الإحسان والبر والتقوى، هو تعبير عما أشرنا إليه من أهمية الجانب المعنوي أو الروحي للحج. إن الحج من هذا الجانب إكسابٌ للقلوب الرحمة والبركة والفضيلة من خلال التوبة، والإنابة، والدعاء، والاستغفار؛ وهو إعمار للحياة بالأعمال الصالحة؛ وهو أيضاً إعطاء الوعد لله تعالى بالسير على هذه الحالة حتى بعد انتهاء الحج.

وما أجمل هذا الدعاء الذي دعا به سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤٤٩]

إن القلوب المتوجهة لأداء الحج بينما تصطبغ من جهة بهذا الدعاء، فإنها من جهة أخرى تنشغل بتفكيرها بحياة النبي عليه الصلاة والسلام، وسيره وتجوله داخل الحرم، وفي شوارع المدينة، وتتخيل علَّها تقف على أثر من آثار قدمي رسول الله ﷺ، وتحيط نفسها بالكثير من الذكريات التي تنتقل إليها من هذه الحالة. فمثلاً يمكن لهذه القلوب أن تفكر بالنبي ﷺ وهو واقف على تلة الصفا يخاطب مشركي مكة، ثم تستحضر تلك الأيام أمامها. فسيد

٤٤٩ البقرة: ١٢٨.

العالمين وسيدنا محمد المصطفى ﷺ كان من على هذه التلة يشير بيده الشريفة للمشركين إلى جبل أبي قبيس، ويقول لهم:

- **أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، وتغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**

فقال أهل مكة:

- ما جربنا عليك كذباً!

فلما تلقى نور الكون عليه الصلاة والسلام هذا الجواب من أهل مكة، قال لهم:

- **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد!**

فما إن فرغ من كلامه حتى قام إليه المشركون وعلى رأسهم عمه أبو لهب، فقال له:

- تباً لك إلاهذا جمعتنا!؟.[٤٥٠]

ثم انصرفوا عنه وتفرقوا. فعلى الرغم من اقتناعهم بصدق النبي عليه الصلاة والسلام وثقتهم بكلامه في باطنهم، إلا أنهم كذبوه اتباعاً لأهوائهم النفسية.

إلا أن نور الكون سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام لم تثبط عزيمته ولم يتراجع عن دعوته قيد أنملة على الرغم من المواقف المشابهة لهذا الموقف الذي ينم عن الغفلة والضلالة.

٤٥٠ البخاري: جـ٦، ص ١٧٩/ ٤٩٧١.



فبالتفكير أثناء الحج بمثل هذه الحقيقة ومثلها من الحقائق المليئة بالعبر والعظات، ومن خلال الإصغاء بآذان قلوبنا والنظر بعيونها يمكننا أن نصل إلى أصداء تعليم القرآن بالوقوف أمام دار الأرقم التي كانت المدرسة النبوية لنور الكون عليه الصلاة والسلام. ويمكن أن تمتد قلوبنا إلى الهجرة التي وقعت بعد هذا التعليم وللبركات التي تحققت بعدها، لا سيما نيل نصيب من فيوضات غار ثور لما كان فيه النبي ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم الغوص في بحار الأسرار الإلهية التي حصلت خلال إقامتهما هناك لثلاثة أيام، ثم يمكننا الانضمام إلى الحجاج بما اكتسبناه بهدف ارتقاء قلوبنا. ومن خلال تذوق القلوب لهذه الحلاوة نتبع خُطا الصحابة الكرام الذين كان كل واحد منهم نجماً لامعاً في حلهم وترحالهم وفي هجرتهم، وبعد الاستمتاع والتلذذ بذكريات المدينة المنورة التي تفيض بآلاف الحكم والعبر، يمكننا أن نتخيل مشاهد العودة إلى مكة مرة أخرى ونحييها أمام أعيننا، أي مشاهد فتح تلك البلدة المباركة الذي تم على يدي رسول الله ﷺ. وعندما نمعن النظر في طريق العودة ـ أي الفتح ـ إلى الأشجار المتوزعة على أطراف الطرقات يمكننا أن نتصور مناظر آلاف المشاعل التي صنعها الصحابة الكرام القادمون لفتح مكة من أغصان تلك الأشجار ورفعوها في الليل من أجل بث الخوف والرعب في قلوب المشركين، فنشكل من تلك المناظر في ذهننا عالماً مشاهداً شبيهاً بالرؤيا الحقة. ويمكن لنا أن ندخل في



حالة روحانية وكأننا نسمع صدى الأذان الذي رفعه ذلك اليوم بلال الحبشي ﵁ من سطح بيت الله الحرام. ولنا أن نبحر بخيالنا فننظر إلى النبي ﷺ يحطم الأصنام التي في الكعبة وهو يقرأ قول الله ﷻ:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٤٥١]

ونستطيع أن ندرك بأن قلوبنا تحولت إلى معبد يفيض بحب الأهواء والرغبات النفسية التي تمثل الأصنام، ثم ندرك هذا الواقع الأليم فنحطِّم هذه الأصنام من خلال القوة المعنوية والروحانية التي نكسبها بكل صفحة من صفحات عبادة الحج، ونوجِّه قلوبنا إلى الله تعالى ونجعلها محلاً للتجليات الإلهية الحقيقية.

إن عبادة الحج التي هي باب لنيل الكثير من مثل هذه التجليات الإلهية تمثل لكل عبد من أصغر مناسكها إلى أكبرها بعثاً معنوياً مشابهاً للبعث والنشر يوم القيامة. إذاً؛ ففريضة الحج التي تجسد هذا البعث والنشور في الدنيا إنما هي عبادة شاملة لتوجيه الفرد نحو بلوغ الكمال في الدين.

الحج عبادة مليئة بالمظاهر الروحانية التي تمكِّن الإنسان من الوصول إلى الانسجام مع الروح، والتعرف على هويته الأصلية، وهذه المظاهر تطهره من الرجس والأدران بالفيوضات الروحية والمعنوية، وتوصله إلى الحقيقة.

---

٤٥١ الإسراء: ٨١.



عرفة: هي مقام من مقامات العفو والتضرع والالتجاء.

إن عرفة تذكر العبد بمشهد الخلق وهم يُبعثون من القبور في يوم القيامة، ويتوجهون أفواجاً أفواجاً للتجمع في ساحة الحشر حيث يقف جميع العباد في حضرة الله تعالى تحيط بهم علامات العجز، والحاجة، والأمل والرجاء، وأنظارهم موجهة نحو السماء منتظرين العفو الإلهي. وتبتل الأعين بدموع التوبة، وترتفع الابتهالات والتضرعات إلى الله تعالى. فتُفتح صفحات جديدة بيضاء ناصعة لصحف الحياة، وتُقطَع الوعود لله تعالى بإمضاء ما تبقى من أيام العمر بعد هذه اللحظات المباركة في طاعته وعبادته.

إن عرفة تعرض لوحة من لوحات المحشر، ويعيش العبد فيها جزءاً من الحالة التي يكون عليها العباد يوم القيامة. فالرؤوس حاسرة، والأقدام حافية، ولا يغطي الأجسام إلا إزار ورداء أبيض اللون أشبه ما يكون بالكفن، والحرارة تلفح الوجوه... وكأنه ليس بالناس طاقة للنظر إلى بعضهم البعض...

ومن جهة أخرى فإن عرفة تخترق بنا جدران الزمن الماضي وتأخذنا إلى ذكريات موغلة في القدم. فمن المعلوم أن الإرادة الإلهية اقتضت نتيجة لزلة الاقتراب من فاكهة الشجرة المحظورة، إخراجَ أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام من الجنة وهبوطهما إلى الأرض، وقد أُنزل كل منهما في مكانين بعدين عن بعضهما، فتُرك كل منهما في مشاعر الشوق والحنين إلى الآخر.



ولما تذكر سيدنا آدم عليه السلام منزلة سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم عند الله ﷻ، وتوسل إلى الله تعالى بهذه المنزلة والكرامة سائلاً العفو والمغفرة، قَبِلَ الله تعالى ما سأل، وأمرَ مَلكاً من الملائكة ليدله على الطريق المؤدي إلى مكة المكرمة. وانطلقت أمنا حواء أيضاً التي كانت تعيش في جدة ببركة هذا الدعاء، في طريقها بإرشاد مَلَك آخر لكي تستقبل سيدنا آدم عليه السلام، و كان الملتقى في وادي عرفات وقت العصر من يوم وقفة عرفة التي نعرفها اليوم، فبكيا واستغفرا الله تعالى مرة أخرى.

وإلى جانب قبول الله تعالى، الذي لا حدود لإحسانه وكرمه، دعاءَهما، فقد فرض على من يأتي بعد ذلك من نسلهما التوجه إلى هذا المكان نفسه وفي اليوم ذاته كل عام، وطلب منهم الدعاء والاستغفار، ووعدهم بالاستجابة. فهذه هي علة وقوف الحجاج في عرفات، وإكثارهم من الدعاء والاستغفار.

وبعد هذا اللقاء اتخذ سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام من مدينة مكة التي نعرفها موطناً لهما بأمر من الله سبحانه وتعالى. ولهذا كان من أسماء مكة «أم القرى».

لأن مكة المكرمة هي المكان الذي تتجلى فيه حقيقة كون جميع الناس أمة واحدة تتظلل تحت راية الأخوة الإسلامية، حيث تتلاشى هناك المفاهيم والمظاهر التي تميز الشعوب والأمم بعضها عن بعض مثل الموطن، واللون، واللباس، واللغة وغيرها من الأمور



المختلفة، ليقفوا على صعيد ومظهر واحد. فيرتدي كل من الأمير، والغريب، والفقير، والغني، والجاهل، والعالم، والسلطان، والعوام اللباس ذاته، ويقفون في الساحة ذاتها. فتلك البلدة هي منبع الأمن والسلام والمحبة؛ وهي موطن الأنبياء والرسل الذي يملأ القلوب بالبركة والرحمة. وعلى الرغم من كل ما يعانيه العالم الإسلامي من معاناة وآلام الفرقة والتشرذم، فإن قمم الوحدة والأخوة والمحبة التي تتشكل في تلك الأماكن المباركة أثناء مواسم الحج والعمرة ما زالت تزين آمال أمم المسلمين وتتطلعاتها. إن هذه الأمم مع الكيانات والدول المستقلة التي أقاموها تعيش في حالة شوق وحنين دائم إلى بلوغ ذاك المستوى من التوحد والتجمع، ولكنها لا توفَّق إلى تحقيق ذلك بالمعنى الكامل. فعندما تتجاوز مستويات الرفاهية المادية حدودَ الشبع، ويعم الترف والبذخ، مقابل الانحطاط والسقوط الروحي والمعنوي، لا تترك عواصف الفرقة، والحقد، والعداوة، والبغضاء، والظلم، والاضطهاد، وانعدام المساواة هذه الأمم سواء على المستوى الداخلي للبلد الواحد، أو على مستوى العلاقات الخارجية لهذه البلدان فيما بينها.



المزدلفة: هي المكان الذي تفيض فيه مظاهر الرحمة بروحانية «المشعر الحرام» المشار إليه في القرآن الكريم. وهي المكان الذي ترى فيه القلوب عظمة الخالق، وقدرته، وتجلياته، وملكه العظيم الذي لا حدود له.



والأضحية: التي تمثل القربان المعنوي لسيدنا إبراهيم عليه السلام هي مظهر من مظاهر الحكمة والرحمة التي تذكِّر الناس بذاك النبي الجليل، وألسنتهم تلهج بكلمات خليل الرحمن التي وردت في القرآن الكريم:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤٥٢]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤٥٣]

وبينما كان سيدنا إبراهيم عليه السلام يتوجه من بابل إلى الشام:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤٥٤]

وبعد هذه الآيات تُذكَر البشارة بسيدنا إسماعيل عليه السلام، وحادثة ذبحه، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[٤٥٥]

---

٤٥٢ الأنعام: ٧٩.

٤٥٣ الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣.

٤٥٤ الصافات: ٩٩ – ١٠٠.

٤٥٥ الصافات: ١٠١.



﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[456]

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[457]

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[458]



بعدما أوصل سيدنا إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل عليه السلام وأمه السيدة هاجر إلى مكة، تركهما هناك وعاد إلى السيدة سارة. وكان بين الحين والآخر يتردد إليهما، وذات مرة رأى مناماً في مكة، وكان في رؤياه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام كما أخبر بذلك القرآن الكريم. فأخذت تراود سيدنا إبراهيم عليه السلام شكوك حول الرؤيا، فيما إن كانت من الشيطان، أم هي رؤيا من الله تعالى. إلا أن هذه الرؤيا عاودته لثلاثة أيام متتالية، وكانت تلك الأيام تصادف أيام الحج، وهي يوم التروية، وعرفة، واليوم الأول لعيد الأضحى.

---

٤٥٦ الصافات: ١٠٢.

٤٥٧ الصافات: ١٠٣ – ١٠٦.

٤٥٨ الصافات: ١٠٧ – ١١١.



وقد ورد في إحدى الروايات أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قال:

«إن أكرمني الله تعالى بولد، فسوف أقدمه قرباناً له». وبسبب هذا الوعد الذي قطعه على نفسه أخضعه الله للامتحان الإلهي.

وبناءً على هذا الأمر الإلهي الذي تلقاه إبراهيم عليه السلام أمرَ امرأتَه السيدة هاجر بأن تغسل ابنها إسماعيل عليه السلام، وتطيبه، وتلبسه أجمل ثيابه، وأخبرها بأنه سوف يصطحبه معه في زيارة إلى أحد أصحابه، وأخبرها بأن تعطي إسماعيل عليه السلام حبلاً وسكيناً لكي يأخذه معه، ثم قال لابنه:

يا بني! إني سوف أذبح لوجه الله تعالى!

ثم أخذ بيد ابنه وتوجه به في طريقه إلى المكان الذي يقف فيه الحجيج يوم عرفة، وفي هذه الأثناء جاء الشيطان إلى السيدة هاجر بهيئة إنسان، وقال لها:

هل تعلمين أين يأخذ إبراهيم ابنك؟

فقالت السيدة هاجر:

يأخذه إلى أحد أصحابه.

فقال الشيطان:

لا، إنما يأخذه إلى حيث يذبحه.

فأجابته السيدة هاجر بقولها:

إنه يحب ابنه كثيراً!

ولكن الشيطان لم يتوقف، فقال:



إنه سوف يذبحه بأمر من الله له!

فلما قال الشيطان ذلك، ردت السيدة هاجر عليه بقولها:

إن كان الله تعالى قد أمر بذلك، فاعلم إذاً أنه لعمل حسن وصالح. وما لنا إلا أن نتوكل عليه.

فلما يئس الشيطان من غواية السيدة هاجر، تركها واتجه إلى ابنها إسماعيل عليه السلام. وسأله:

أتعلم أين يأخذك أبوك يا اسماعيل؟

فقال إسماعيل عليه السلام:

لتنفيذ أمر الله تعالى ...

فقال الشيطان:

تعلم إذاً أنه يأخذك للذبح!

وبدأ يوسوس له، إلا أن سيدنا إسماعيل عليه السلام كان ثابتاً، قوي العزيمة، فقال له:

اخسَأ أيها اللعين! إننا ننفذ أمر الله عز وجل دون جدال!

ثم طرده، ورجمه بالحجارة. ففشل الشيطان في محاولة خداع سيدنا إسماعيل عليه السلام أيضاً. فعاد هذه المرة إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقال له:

أيها الشيخ، إلى أين تأخذ ولدك؟ لقد خدعك الشيطان في الرؤيا! فتلك الرؤيا من الشيطان.



فقال سيدنا إبراهيم عليه السلام:

إنك أنت الشيطان، ابتعد عن طريقي!

فأخذ في يده حصيات ورمى بها الشيطان في ثلاثة مواضع، في كل موضع سبع حصيات.

وبذلك بدأ منسك رجم الشيطان الذي أصبح ركناً في الحج إلى يوم القيامة، وصارت هذه الحالة مثلاً للأمة وعلامة دالة على توكل سيدنا إبراهيم عليه السلام وتسليمه لأمره إلى الله تبارك وتعالى.

وبينما كان سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام يسيران معاً متوجهين من منى إلى عرفات مباشرة، كانت الملائكة في السماء تضطرب، وتقول لبعضها البعض:

سبحان الله! إن نبياً يأخذ نبياً لتقديمه قرباناً في سبيل الله تعالى!

وقد بين إبراهيم عليه السلام حقيقة الأمر لولده إسماعيل عليه السلام، فقال:

يا بني، إني أُمرت في الرؤيا أن أذبحك.

فقال سيدنا إسماعيل عليه السلام متسائلاً:

يا أبتِ، أهذا أمر الله تعالى إليك؟

فقال سيدنا إبراهيم عليه السلام:

أجل، يا بني!

فقال سيدنا إسماعيل عليه السلام:

يا أبتِ! افعل ما أمرت به، ستجدني إن شاء الله من الصابرين!



وبذلك أعلم أباه بأنه مستعد للتضحية بروحه التي هي أغلى ما يملكه الإنسان في الدنيا. وكان سيدنا إسماعيل ﵇ عند ذاك في العام السابع أو الثالث عشر من عمره.

ويُروَى أن من المواقف الثلاثة التي عانى فيها جبريل ﵇ واضطرب فيها، اللحظات التي وضع فيها سيدنا إبراهيم ﵇ السكين على رقبة ابنه إسماعيل ﵇ وأراد ذبحه. ففي تلك اللحظة أفقد جبريل ﵇ خاصية القطع من السكين بأمر من الله، وأخبر سيدنا إبراهيم ﵇ بأنه قد جاء له بكبش من الجنة فديةً لابنه إسماعيل ﵇ لما أظهره من التوكل والتسليم، فذبح الكبش، وحنجرته تصدح بالتكبيرات من صميم قلبه.

فإن الغاية الأصلية من ذبح الأضحية هي تذكر هذه الحادثة العظيمة، والاستفادة من الحكم الإلهية الجليلة المتجلية فيها، وإبقاء القلوب متيقظة في مسألة أداء العبودية بمنتهى التقوى والتسليم لله تعالى. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...﴾[٤٥٩]

إن لِنُسك حلق الشعر أو تقصيره الذي يأتي بعد ذبح الأضحية حكمة أخرى مختلفة. فقد كان الناس قبل الإسلام إذا ما أعتقوا واحداً من عبيدهم وحرروه من الرق حلقوا شعره بالموسى. وكانوا

٤٥٩ الحج: ٣٧.



يفعلون ذلك علامة على خضوعه للرق. فحلق الشعر كناية عن خضوع الحجاج للعبودية الدائمة لله سبحانه وتعالى واعتراف منهم بهذا الأمر على رؤوس الأشهاد؛ أي كأن الحجاج بهذا الحلق يعبرون بأنهم قد قيدوا أنفسهم في سجل العبودية لله سبحانه وتعالى.



منى: هي مكان التسليم والتوكل على الله تعالى، حيث رجم فيه سيدنا إبراهيم عليه وابنه إسماعيل عليهما السلام الشيطان اللعين واستطاعا هزيمته والانتصار عليه.

وأما رجم الشيطان، فإنه يبدأ مع رجم الشيطان الذي في داخل الإنسان أكثر من رجمه بالجمرات الظاهرية. وهذا الرجم يذكرنا بطرد سيدنا إبراهيم وامرأته هاجر وابنه إسماعيل للشيطان ورجمهم له. ومن معاني الرجم اللعن، لأن اللعن في ذلك الزمان كان يتم من خلال الرجم، فقول «الرجيم» للشيطان، يعني الملعون.

ومن الذكريات التي يتضمنها الرجم:

أن أبرهة وجيشه الذي كان فيه فيلة، جاؤوا إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة، فكانوا يرمون الحجارة على طريقة أهل البادية. وقد أرسل الله تعالى لمواجهة ذلك الجيش وتلك الفيلة الضخمة طيور الأبابيل التي أهلكت الجيش وما فيه برميهم بحجارة صغيرة.



فرجم الشيطان يكون بلعن إبليس، وتحرير القلب من سائر أنواع الغفلة والوساوس، ثم توجيهه إلى الله تعالى. ولهذا يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«**إنما جُعل رمي الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله**»[٤٦٠]



الصفا والمروة: وهما الجبلان اللذان سعت بينهما السيدة هاجر عندما أخذت تبحث عن الماء لابنها الصغير العطشان إسماعيل عليه السلام والذي وضعته حينها في المكان الذي يوجد فيه بئر زمزم حالياً. وقد جُعل السعي بين الصفا والمروة بعد ذلك أحد مناسك الحج من أجل تذكيرنا بعجزنا وضعفنا، وضرورة الالتجاء إلى الحق عز وجل.

ويبين الله عز وجل أهمية جبلي الصفا والمروة في القرآن الكريم إذ يقول:

﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...**﴾[٤٦١]

الكعبة: هي الجهة التي يجب التوجه إليها في عبادة الصلاة التي أمر الله عز وجل في القرآن الكريم بإقامتها بقوله:

﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾[٤٦٢]

٤٦٠ الترمذي: الحج، ٣، ٢٣٧/ ٩٠٢.

٤٦١ البقرة: ١٥٨.

٤٦٢ العلق: ١٩.

وفي الوقت ذاته هي النقطة التي يشترك جميع المسلمين بالتوجه إليها؛ أي هي المكان الذي يوجد فيه نبض العالم الإسلامي بأسره. إن عضو الإنسان الذي يُعد محل نظر الله إنما هو القلب؛ وأما المكان الذي يُعد محل التجليات في الكون كله فهو الكعبة؛ أي إن الكعبة هي كالقلب الذي بين جوانح الإنسان.

فهناك مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي وفَّى فيه بعهده لربه عز وجل. وقد كلف الله تبارك وتعالى أصحاب القلوب المؤمنة عندما يقدرون على الذهاب إلى الحج أو العمرة بأن يسيروا على آثار أقدامه، ويطوفوا حول مقامه، ويصلوا خلفه.

والحجر الأسود: الذي في جدار الكعبة هو الحجر المبارك الذي يُسلَّم عليه ويُقبَّل، وعند قُطِعَ وعد العبودية والبيعة لله تعالى. وإن الإشارة إليه بالسلام تدل في الوقت ذاته على قطع الحاج أو المعتمر وعداً بترك كل الأهواء والرغبات النفسية، والابتعاد عن كل الميول الشيطانية.

والحجر الأسود هو وسيلة لتحديد نقطة ابتداء أشواط الطواف حول الكعبة وانتهائها. لقد تعرضت كل حجارة الكعبة تقريباً إلى التغيير، إلا الحجر الأسود، فقد بقي ثابتاً في مكانه منذ وضعه وحتى يومنا هذا. وما أكثر الشفاه المباركة التي قبلته، والأيدي الشريفة والمباركة التي لامسته، فأصبح هذا الحجر بذلك نواة محبة وتأثيرٍ في قلوبنا. وقد عبَّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الحقيقة إذ قال:



«والله! إني لأقبِّلك، وإني أعلم أنك حجر، وأنك لا تضر ولا تنفع. ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبَّلتك.»[٤٦٣]

وخلاصة الكلام أن الكعبة بكل خصائصها ومزاياها ظل العرش الإلهي، ومنبع رحمته تعالى وبركته. أي هي المرآة اللامعة التي تنعكس عليها صفات الرحمة والمغفرة من الحق سبحانه وتعالى. هي النور الذي يضيء القلوب.

فالناس الذين يتوافدون من مختلف بلدان العالم بلغات مختلفة، وبعادات وأعراف متباينة، يشكلون لوحة فسيفسائية فريدة من نوعها لتعرض بشكل مهيب حول الكعبة المشرفة.

تُظهِر الروايات التي وردت حول بناء الكعبة أن آدم وحواء عليهما السلام لما أُخرِجَا من الجنة وهبطا إلى الأرض، نزلا في مكانين مختلفين، وكان اللقاء بينهما في عرفات، ثم سارا معاً نحو الغرب، ليصلا إلى مكان الكعبة. و في هذه الأثناء أراد سيدنا آدم عليه السلام أن يتعبد ربه سبحانه وتعالى ليشكره على هذا اللقاء الذي يسَّرَه له مع زوجه حواء، فالتجأ إلى الله تعالى أن يهبه عمود النور الذي كان يطوف حوله ويتعبده عنده لما كان في الجنة. فتجلى عمود النور في ذلك المكان، وأخذ سيدنا آدم عليه السلام يطوف حوله، ويتعبد الله تعالى عنده. واختفى عمود النور هذا في زمن سيدنا شيث عليه السلام، وبقي مكانه حجر أسود. فقام سيدنا شيث عليه السلام ببناء بيت

٤٦٣ مسلم: الحج، ٢٥٠.



من الحجارة مكان عمود النور ذاك، وجعل البناء بأربعة زوايا على شكل ذلك العمود، ووضع الحجر الأسود في إحدى زوايا البناء. فهذا الحجر الأسود الذي نراه اليوم هو ذاك الحجر. وبعد ذلك لما حدث الطوفان العظيم المعروف بطوفان سيدنا نوح عليه السلام، بقي هذا البناء الذي أقامه سيدنا شيث عليه السلام مختفياً تحت الرمال لمدة طويلة من الزمن. وبعدها توجه سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمر من الله تعالى إلى المكان الذي كانت فيه الكعبة، وأسكن هناك امرأته مع ابنه إسماعيل عليه السلام، وبعد ذلك حفر وابنه إسماعيل عليهما السلام المكانَ الذي فيه الكعبة، فوجد أساس البناء الذي أقامه سيدنا شيث عليه السلام، وبنى على ذلك الأساس الكعبةَ المشرفة.

ولما أتم إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة، توجه إلى الله عز وجل بهذا الدعاء:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ...﴾[٤٦٤]

ومن بركات دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام إحساس المؤمن بحلاوة الإيمان في مكة المكرمة.

لقد تم بناء الكعبة نحو إحدى عشرة مرة.

ففي المرة الأولى بناها الملائكة، والمرة الثانية بناها سيدنا آدم عليه السلام، وفي المرة الثالثة بناها سيدنا شيث عليه السلام، وفي المرة الرابعة

٤٦٤ البقرة: ١٢٦.



بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفي المرة الخامسة بنتها قبيلة العمالقة، وفي المرة السادسة بناها أبناء قبيلة جرهم، وفي المرة السابعة بناها قبيلة قصي، وفي المرة الثامنة بناها قريش، وفي المرة التاسعة بناها عبد الله بن الزبير، وفي المرة العاشرة الحجاج بن يوسف الثقفي، وفي المرة الحادية عشرة بناها السلطان العثماني مراد الرابع.

ففي عهد السلطان مراد الرابع أصاب سيل جارف مكةَ المكرمة مما أدى إلى هدم جانبي الكعبة المشرفة. فأرسل السلطان رئيس المعماريين رضوان آغا إلى مكة من أجل بناء الكعبة من جديد. ولما أجرى المعماري الكشوفات الميدانية على الكعبة، وأراد التعبير عن الأضرار التي أصابت أماكن منها من تهدم وتشقق، استحيا من استخدام عبارات مثل «التهدم، والخراب» فقال:

«لقد سجد بعض أجزاء الكعبة، وهي كذا، وكذا، وكذا».

ومن المظاهر الفريدة للأدب في تلك الأماكن التدابيرُ التي اتخذت أثناء بناء الكعبة من أجل تجنب تلوث تلك الأماكن المقدسة بفضلات الدواب التي كانت تنقل أدوات ومستلزمات البناء.

إن تأدب العثمانيين مع تلك الديار المقدسة لم يكنِ يظهر في تلك البلاد فحسب، وإنما كان يبدأ من العاصمة. إذ أُطلق على أول مكان من القارة الآسيوية الذي تطؤه أقدام الحجيج القادمين من القارة الأوروبية اسم «الحرم»، ومن هذه النقطة كان الحجيج يصطبغون بآداب الحرمين الشريفين ثم ينطلقون إلى مقصدهم



المبارك، ألا وهو الحج لله تعالى. ولم تكن أي حركة دالة على الغفلة في هذا الشأن مقبولة على الإطلاق مهما صغرت. وخير مثال لذلك الحادثة التي جرت مع الشاعر الكبير نابي أثناء خروجه إلى الحج مع كبار رجال الدولة في عام ١٦٧٨م:

فخلال رحلة الحج إلى بيت الله الحرام رأى الشاعر أحد الباشوات وقد مدَّ رجلَيه في غفلة منه باتجاه المدينة المنورة. فتأثر الشاعر بهذه الحالة كثيراً، وبدأ بكتابة أبياته المشهورة في مديح مدينة رسول الله ﷺ، التي يقول فيها:

حذاري من ترك الأدب فإن هذه مدينة محبوب الهدى

حذاري من ترك الأدب فهذا مقام محمد المصطفى!

فيا نابي ادخل هذه التكية بغاية الأدب

فهذا مطاف الملائكة، وقبلة الأنبياء!

فالأمر الأهم في عبادة الحج هو التوجه إلى تلك الديار المباركة بهذه المشاعر الصافية والروحانيات، ثم زيارة سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم.



لقد بين الله تعالى في القرآن الكريم أن الكعبة المشرفة التي توصف ببيت الله هي مكان مقدس مخصص للعبادة منذ عهد أبينا آدم عليه السلام، وأن الحج إليها فرض على كل مقتدر ومستطيع، إذ قال:



﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٤٦٥]

وإحدى تجليات روح الإسلام تكمن في أن كل الناس يقفون متساويين في الصلاة، حتى رئيس الدولة، فإن سبق إلى صلاة الجماعة وقف في الصف الأول، وإن تأخر عن الباقين وقف في المؤخرة، وكل من جاء من الناس إلى الصلاة يقف حيثما يجد مكاناً فارغاً، فليس هناك أي أثر للأزياء الرسمية. وأما في الحج فإن هناك أمراً أعظم من هذا، إذ هناك مساواة في اللباس أيضاً ولذلك اللباس رمز. فكما أن رئيس الدولة مثل الشخص العادي يدخل إلى القبر بالكفن، ولا يكون عليه إلا قطعة قماش، ففي الحج أيضاً توجد المساواة ذاتها التي في القبر. فعلى بدن كل حاج يوجد رداء يغطي قسمه العلوي، وإزار يغطي قسمه السفلي، وكأنه كفن تماماً.

ينبغي أن نعلم أن الموت هو القانون الإلهي الذي لا مفر منه والذي يشمل سائر المخلوقات الفانية. وقد حُدِّدَ الموتُ بزمن معين بالدقائق وعدد الأنفاس التي يتنفسها المخلوق، فلا يُخطئه أبداً. والحقيقة الثابتة والجلية في مسألة الموت أن الموت لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، ولا تتغير وسائله وأسبابه أبداً. لذلك ينبغي للإنسان أن

٤٦٥ آل عمران: ٩٦ – ٩٧.



يتعمق بتفكيره في هذه الحقيقة، ويحرص أشد الحرص على تجنب التهاون في أداء عبادة الحج. وإلا فإنه عرضة للعاقبة المفزعة التي حذَّرَنا منها النبي عليه الصلاة والسلام إذ قال:

«من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً»[٤٦٦]

إن هذا التحذير النبوي تذكير بالعذاب الإلهي لأولئك الذين يستطيعون الحج ثم يهملون هذه العبادة لغفلتهم وضلالهم. لأن إهمال هذه العبادة يعني الاستخفاف بها، أو التقليل من شأنها.

إن إهمال عبادة الحج وتأخيرها بذريعة أنها مرة واحدة في العمر ولها متسع من الوقت خطأ عظيم. لذلك يقول رسول الله ﷺ:

«من أراد الحج، فليَتعجَّل»[٤٦٧]

إن بيت الله الحرام مكان يفيض بالكثير من مظاهر التوكل على الله تعالى والتسليم لأوامره.

وأول ما يتبادر إلى ذهن المرء عندما تُذكر كلمات التوكل والتسليم والحج هو سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، لأن الحج هو العمل الصالح الذي نتج عن إخلاصهما وصدقهما والذي سوف يستمر إلى يوم القيامة.

٤٦٦ الترمذي: الحج، ٣/ ٨١٢.

٤٦٧ جمع الفوائد: ٢، ٧٧.



إن التوكل في اللغة يعني: الاعتماد، والثقة، والتوكيل والثقة بالوكيل.

وأما التوكل في التصوف فهو: ثقة صاحب القلب بالله وحده، والاعتماد عليه وحده، والالتجاء إليه وحده». فالله سبحانه وتعالى سأل سيدنا موسى عليه السلام عن العصا التي في يده، ثم أمره بأن يلقيها، لأن العصا كانت تحجب توكل موسى عليه السلام على الله تعالى.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٤٦٨]

﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٤٦٩]

﴿...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾[٤٧٠]

وجاء في الحديث النبوي الشريف:

«لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»[٤٧١]

والتوكل لا يعني أن يلقي الإنسان بالتدابير والأخذ بالأسباب جانباً، وإنما على العكس تماماً، إذ ينبغي له أولاً اتخاذ كافة التدابير

٤٦٨ إبراهيم: ١١؛ التوبة: ٥١.

٤٦٩ المائدة: ٢٣.

٤٧٠ الطلاق: ٣.

٤٧١ الترمذي: الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤.

والأسباب اللازمة لتنفيذ أمر ما ثم الالتجاء بعد ذلك إلى تجليات قدرة الله تعالى. حيث يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾[٤٧٢]

إن الله تعالى هو المعين للمؤمن في الدنيا والآخرة، فمن يتوكل على الله فهو حسبه. والسعادة والسلام سواء على المستوى الفردي أو الجماعي يكون بالعودة إلى الله ﷻ وحده، وبطلب العون والمدد منه وحده، وبالتوكل عليه وحده.

إن التسليم مشتق من فعل «سَلِمَ»، وهو يعني الخضوع، والقبول بالحوادث دون اعتراض، والخروج إلى بر السلامة.

ولذلك لم يكن في قلب سيدنا إبراهيم عليه السلام مكان إلا لله تعالى. إلا أن الملائكة قالت:

يا رب، إن لإبراهيم نفس، وأولاد، ومال! فكيف يمكن أن يكون خليلك؟!

فأرى الله ﷻ الملائكة تسليمه المطلق الخالي من الاعتراض والتذمر في ثلاثة مواضع. فكانت هذه الابتلاءات ونتائجها مثلاً للأمة إلى يوم القيامة.

إذ لما أُتي بسيدنا إبراهيم عليه السلام وأرادوا إلقاءه في النار، جاءت الملائكة كي تعينه، إلا أنه قال:

٤٧٢ آل عمران: ١٥٩.



لا حاجة لي إليكم! فمن أعطى للنار قوة الحرق؟

ثم التجأ إلى ربه قائلاً: «حسبي الله ونعم الوكيل!».

فقال الله تبارك وتعالى للنار مكافأةً له على تسليمه:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٤٧٣]

ولم يكن للمال أهمية عند إبراهيم عليه السلام، إذ لما سأله جبريل عليه السلام ثلاث مرات، قال له:

إليك مالي فخذه!

إن العبودية الحقيقية تتمثل بالتسليم، لأن الله تبارك وتعالى يريد من عبده عدم الخضوع لأحد غيره.

والتسليم طاعة قائمة على المحبة. وبفضل هذه الطاعة لم تشكل نفس سيدنا إبراهيم وماله وأولاده أي عائق له في سيره على سبيل ربه.

وقد أصبحت عبادة الحج أجمل رمز لتسليمه وتوكله على ربه حتى قيام الساعة، لأن لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان ترجماناً لقلبه كان يقول دائماً:

﴿...أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤٧٤]



٤٧٣ الأنبياء: ٦٩.

٤٧٤ البقرة: ١٣١.

إن الحج الذي يُعد رمزاً لتوكل سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وتسليمهما هو تجرد وتحرر من الصفات البشرية ودخول في آفاق المغفرة والتسليم والتوكل. فالحج أداء لعبودية مليئة بالمحبة، والحج تسليم واستسلام تام لله تعالى حيث يتعرى العبد من الثياب فيقف حاسر الرأس حافي القدمين ليس عليه إلا رداء بسيط يغطي القسم العلوي من جسمه وإزار يستر القسم السفلي منه، ويتجرد من سائر المراتب والمناصب الدنيوية، فيتوجه إلى ميدان أداء المناسك في مشهد شبيه بانبعاث الناس من قبورهم وتوجههم إلى أرض المحشر، ليتبتل ويتضرع من صميم قلبه إلى ربه سبحانه وتعالى ويستسلم بين يديه.

فعبادة الحج هذه تعلمنا بأن محو الذنوب والسيئات وتساقطها عن العبد يتم ببركة العبادة التي تُؤدَّى بعد التوسل والتضرع، والتوكل، والتسليم لله تعالى.

وحجة الوداع التي أداها سيدنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلوات أتم التسليم هي النموذج الأمثل لحج أمته الذي سوف يستمر إلى يوم القيامة!

ففي حجة الوداع أيضاً نشرَ النبي عليه الصلاة والسلام الحبة بين الناس، وبيَّن الخطوط العريضة للحقوق والواجبات بين المسلمين من خلال مشاعر المحبة والرحمة.





عند الخروج إلى الحج لا بد من القيام ببعض التدابير اللازمة لطريق السفر سواء المادية أو المعنوية. وقد أراد بعض من أهل اليمن الذهاب إلى الحج، فلم يقوموا باتخاذ أي تدابير من أجل رحلتهم، ولما حان موعد الرحيل اكتفوا بقولهم: «توكلنا على الله» ثم انطلقوا في طريقهم متوجهين إلى مكة، ولما وصلوا إليها أخذوا يسألون الناس الطعام بسبب الجوع الشديد الذي أصابهم، فنزل فيهم قول الله تبارك وتعالى:

﴿...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى...﴾[٤٧٥]

يتبين من الآية الكريمة أن العبد في تلك الديار المباركة بحاجة إلى زاد مادي ظاهري، كما أنه بحاجة إلى زاد معنوي وهو الأهم، وهذا غير ممكن إلا بقلب سليم وصل إلى مرحلة التقوى. لأن إحدى النتائج البديهية للتخلق بالأخلاق التي أمر بها الله تبارك وتعالى هي اكتساب قلب مليءٍ بمظاهر التقوى. ويبين مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله إمكانية بلوغ حقيقة العبادات وخاصة عبادة الحج بمثل هذا القلب من خلال الحادثة الآتية، حيث يقول:

كان أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى- وهو أحد أولياء الله- يذهب إلى مكة بسرعة من أجل أداء الحج والعمرة. وكلما مر بمدينة في طريق رحلته كان يبحث عن الصالحين فيها، ويسأل من يصادفهم:

٤٧٥ البقرة: ١٩٧.

من في هذه البلدة ذو بصيرة؟

لأنه كان يؤمن بأنه من الضروري عند السفر البحث أولاً عن أصحاب الحق وأهل الله، والعثور عليهم مهما كانت وجهة سفر الإنسان.

وكان يردد قول الله تعالى:

﴿... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[476]

ورأى أبو يزيد البسطامي شيخاً نحيلاً طويل القامة، تبدو على ملامحه روحانية الأولياء، وكان لا يبصر لكن قلبه كان يشع بالنور مثل الشمس، فجلس أبو يزيد البسطامي بين يدي ذلك الشيخ. فقال له الشيخ:

أيها الرجل، إلى أين تذهب؟ إلى أين تحمل أمتعة الغربة ـ ويقصد بذلك بدنه ـ؟

فقال أبو يزيد:

أنوي الذهاب إلى الحج؛ ولدي مئتا درهم أيضاً.

فقال الشيخ:

«أيها الرجل، وزِّعْ قسماً من متاع الدنيا ذاك على المحتاجين، وأبناء السبيل، والمحرومين في سبيل الله تعالى! وادخُلْ في قلوبهم

٤٧٦ الأنبياء: ٧.



لتُفتَح الآفاق أمام روحك، واحصل على عمر لا موت فيه. ففي البدء دع قلبك يحج، ثم تابع رحلتك إلى الحج بقلب رقيق!

لأن الكعبة بيت الله الذي تجب زيارته؛ أي الحج إليه فرض وركن من أركان الإسلام الخمسة. وأما قلب الإنسان فخزينة أسرار.

الكعبة بناء إبراهيم بن آزر. وأما القلب فهو محل نظر الله العظيم الجليل.

فإن كنت صاحب بصيرة، فطفْ بكعبة القلب، إذ إن القلب هو المعنى الأصلي للكعبة التي هي بناء من تراب.

والحق سبحانه وتعالى قد فرض عليك الطواف حول الكعبة المادية التي تراها وتعرفها، حتى تحصل على كعبة قلبية مطهرة ومنقاة من الدنس والرجس.

واعلم جيداً بأن كسرك قلباً هو محل نظر الله، لا يكفِّر عنه الذهاب إلى الكعبة وإن كنت قد ذهبت سيراً على أقدامك.

إن الإنسان الكامل خزينة سر الحق سبحانه وتعالى.

فإن كنت تود رؤية تجلي نور الله تعالى الذي في الإنسان، فلا تتهرب من الآلام من أجل فتح عين القلب!»

ففهم أبو يزيد هذه الحكم التي قالها الشيخ، ونال قلبه جزءاً من أسرار الرحمة بالمجالسة والتحدث معه، وتابع رحلته إلى الحج بسكينة وسلام.

يقول مولانا جلال الدين الرومي الذي أشبع قلبه بهذا المثال وغيره من الأمثلة المشابهة والكثيرة، للذين سيذهبون إلى تلك الديار المباركة والمقدسة:

«عندما يحين موعد الحج فاذهب بقصد زيارة الكعبة المعظمة والطواف حولها! فإن ذهبت بهذا القصد، فإنك سترى حقيقة مكة!».

إن إيراد مولانا مثال الحج في الحكاية التي رواها لنا ينبع من كون الحج عبادة في غاية الرقة. لأن كثيراً من الأمور والأفعال المشروعة تُحظر في الحج، لذلك ينبغي أن تتصاحب رحلة الخروج إلى الحج مع إعداد قلبي. وإلى جانب ذلك فعندما ينوي العبد أداء فريضة الحج فإن الشيطان يلازمه، لذلك فإن أول سلاح ينبغي أن يتسلح به الذين سوف يتجهون إلى الحج هو سلاح «الصبر».

لأن الحج عبادة مختلفة عن غيرها من العبادات. إذ تبدو في شكلها الظاهري سهلة ويسيرة، إلا أنها في الحقيقة واحدة من أصعب العبادات، ولأجل ذلك كانت العبارة الآتية من العبارات التي يعقد بها العبد نيته لأداء فريضة الحج، وهي:

«اللهم يسِّرها عليَّ!..»

إن القلوب الملتجئة إلى ربها سبحانه وتعالى بقول:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك



ينبغي أن تعلم بأنها بعد تلبية دعوة ربها، وإقرارها بأنه لا وجود في ملكه لإله غيره، تقطع وعداً بعدم الاستجابة والسير خلف نداءات النفس، والشيطان، والهوى.

أما الحج الذي يتم أداؤه بغفلة عن هذه الحقيقة، فلا يثمر الفائدة المأمولة منه. ومن المعلوم أن من يذهب لأداء الحج بالمال الحرام لا تتجاوز ألفاظ التلبية لسانه، ولا ينال إلا جواب:

«لا لبيك، ولا سعديك».

لذلك كان الشرط الأول في الحج هو الكسب الحلال بعد القلب المخلص والصادق، لأن عبارة «لبيك اللهم لبيك» التي تكون على كل لسان أثناء الحج، ينبغي أن تخرج من قلب محب. والتلبية التي تتصاعد من الحناجر إلى السماء بهذه المحبة لا يمكن أن تُبقِي العبد بعيداً عن الحق سبحانه وتعالى. إلا أنه لا أثر للألفاظ المجردة من المشاعر الروحية، والتي لا تتجاوز الحناجر.

ولهذا كان سيدنا الحسين رضي الله عنه عندما ينادي «لبيك اللهم لبيك...» يصفرُّ وجهه، ويتغير لونه خشية من أن تواجه تلبيته بجواب «لا لبيك»...

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل من نصيبنا حجاً بالروح والجسد معاً! آمين...





إن مناسك الحج توجه الإنسان نحو الحياة الروحانية، لأن هذه العبادة الرقيقة تفيض بمظاهر الرحمة والشفقة والمحبة، مثل ضرورة الامتناع عن صيد الحيوانات، وعدم قطع النباتات والأشجار الخضراء، وعدم إلحاق الأذى بمخلوقات الله تعالى.

ففي الحرم لا تُقطَع ولا تُقتَلَع حتى نبتة صغيرة، ولا تُقص أو تُنتَف شعرة، ولا يُصَاد حيوان. وفي الحج لا رفث، ولا فسوق، ولا جدال. فليس في الحج إلا الرفق بالمخلوقات ومحبتها لوجه الخالق ﷻ. وثمة حاجة ضرورية للابتعاد عن كل ما يجرح المشاعر، ويكسر الخواطر.

حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ كان يمتنع عن تقبيل الحجر الأسود في حالات الازدحام خشية من أن يؤذي أحد المسلمين.

لأن الأعمال بالنيات، ونية الحج الإحرام، فعندما يدخل العبد في الإحرام فإنه يترك خلفه حياته المعتادة في الظروف الطبيعية.

ويحمل اللباس الذي يكون في الإحرام العبدَ بعيداً عن الحياة الدنيا ومباهجها، ويدخله في حالة من التفكر بالموت، ويضعه في حضرة الله تعالى رب العالمين.

إن الحج بكل هذه الجماليات والمظاهر السامية عبادةٌ تسمو بالعبد وترفعه إلى مقام أحسن تقويم. فالنبي ﷺ يقول:



«تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة»[٤٧٧]

«من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[٤٧٨]

لا شك أن هذه البشارات للمؤمنين الذين يؤدون حجاً مبروراً، أي الحج الذي يكون ممتلئاً بالبر والتقوى والعمل الصالح من أوله إلى آخره. إن الحج المبرور يُكسِب العبد إلى جانب هذه البشارات الجميلة، كثيراً من المحاسن الأخرى، منها:

١. الإحساس بالمسؤولية .
٢. التسامح والعفو.
٣. الحفاظ على الطهارة البدنية والأخلاقية.
٤. الأخوة الإسلامية.
٥. إدراك أن الفضل بالتقوى.
٦. الكسب الحلال.
٧. الإخلاص.

ولذلك فإن الحج لا يبقى بعد كل هذه المحاسن والجماليات والإيجابيات التي يحتويها مجرد ركن من أركان الدين الإسلامي؛

---

٤٧٧ الترمذي: الحج، ٣/ ٨١٠.

٤٧٨ البخاري: الحج، ١٥٢١/ ١٨٢٠؛ مسلم: الحج، ٤٣٨/ ١٣٥٠.

وإنما يشكل الواجهة الأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية لهذا الدين الجليل، ليصبح شامخاً أمامنا كنصب تذكاري لحياة المؤمنين.

إن سائر الأحوال والأفعال التي تتم في الحج تدفع العبد إلى الوقوف مع ذاته ومحاسبة نفسه، لتنعكس تلك الوقفة على حياته المستقبلية؛ فالهدف الأساسي لكل العبادات هو التقرب إلى الله تعالى.



وللحج- مثل الصلاة والصيام- نوافل. والانتقادات التي تصدر بحق حج النافلة أشبه بكلمات السب والشتيمة. وما هي إلا عبارات لا سند لها تنبع عن الجهل والحرمان من لذة العبادة.

إن النوافل مستمرة منذ عصر السعادة إلى يومنا هذا، والعبادة النافلة التي تُؤدى بشوق وإيمان تجعل العبد مظهراً لتجلي التقرب إلى الله. فيرق قلبه وتنكشف صفات الرحمة والكرم لديه، فيصير الله تعالى عينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها، أي تصبح مشاعره وأفكاره وأقواله وأفعاله كما أمر الله تعالى.

ويمكن بلوغ هذه المقامات السامية بمحبة النوافل من العبادات، والرحمة بالمخلوقات. ويكفي للاستدلال في هذه المسألة أن نتذكر بأن الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله قد حج خمساً وخمسين مرة.





العمرة: وتُسمَّى أيضاً «الحج الأصغر»، وهي عبادة يمكن أداءها خلال أيام السنة، فليس لها موعد محدد، وليس فيها وقفة عرفة الخاصة بالحج، وإنما فيها الطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة. وقد أخبر النبي ﷺ أن العمرة التي يتم أداؤها في شهر رمضان لها ثواب الحج.



وأما مقام النبي ﷺ في المدينة المنورة، والذي نزوره في الحج أو العمرة أو في غيرهما، فإنه مكان يجعل القلب يفيض بالمحبة الإلهية، ويكسبه السمو المعنوي، لأن النبي ﷺ إنما هو المخلوق الوحيد الذي خاطبه الله تعالى بقوله: «حبيبي»، وأُمرت الأمة كافة بهذه المحبة. وقد قال القاضي عياض:

«لقد فرض الله تعالى على الأمة إلى جانب محبته، محبة رسول الله ﷺ أيضاً»

مستنداً إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[479]

479 التوبة: ٢٤.



لذا لا ينبغي أن تتقدم محبة أي شيءٍ في قلب المؤمن على محبة رسول الله ﷺ؛ لا محبة البيت الذي نسكنه، ولا أسرتنا، ولا أولادنا، ولا عملنا!..

وانطلاقاً من هذه المحبة التي ينبغي أن تكون لرسول الله ﷺ، عدَّ الإمام مالك رحمه الله تعالى المكانَ الذي يحتضن الرسول الأكرم سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم أكثر قدسية من أي مكان آخر، حتى من الكعبة المشرفة، لأن الكون كله خُلِق من أجله، وأُهدي إليه.

ولهذا ينبغي للحاج عند الانتهاء من أداء مناسك الحج التوجه إلى المدينة المنورة، وزيارة ذلك المكان الذي يحتضن نعش سيد خلق الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ، إذ يقول النبي ﷺ:

«من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»[٤٨٠]

ولا بد من الأدب أثناء هذه الزيارة. فذات يوم بينما كان الإمام مالك رحمه الله تعالى في المحراب، دخل إلى المسجد الخليفة أبو جعفر المنصور. فسأله الخليفة بعض الأسئلة، وبدأ برفع صوته في الكلام، فنبهه الإمام مالك فقال:

يا أمير المؤمنين، أخفضْ صوتك في هذا المكان، لأن النذير الإلهي نزل بحق من هم أكثر فضلاً وأعلى منزلة منك.

٤٨٠ الدارقطني: السنن، ٢، ٢٧٨.



فقال الخليفة أمام هذا الأدب الرفيع الذي شاهده متسائلاً:

أيها الإمام، هل اتجه عند الدعاء نحو الروضة الشريفة، أم نحو القبلة؟

فقال الإمام مالك رحمه الله تعالى:

ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة؟.[481]

ومن الناس مَن يتعامون عن هذه الحقيقة ويمنعون الناس من التوجه نحو الروضة الشريفة. فيقولون: «القِ السلام، ثم تحرك من المكان، واستقبل القبلة».

ومن المعروف أن النبي ﷺ حي، لأنه إن كانت حياة الشهداء حقيقة لا يمكن إنكارها، فمن المؤكد أن الأنبياء الذين هم أعلى منزلة من الشهداء، لا سيما سيدنا العالمين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يعيشون حياة استثنائية لا نعلم ماهيتها.



فأفضل الهدايا التي يحملها معه الحاج عند عودته ويرجع بها إلى بلاده هي فضائل تلك البلدة المباركة وجمالياتها، والأخلاق الحميدة للعباد الصالحين الذين خلفوا وراءهم ذكريات مليئة بالعبر والحكم من خلال تحليهم بتلك الفضائل والتزامهم بها في حياتهم.

481 القاضي عياض: الشفا، 2، 92.



وقد زار محمد إقبال الذي يُعد الباني الروحي لباكستان ذات يوم بعضَ الحجاج العائدين من المدينة المنورة، وسألهم هذا السؤال الذي سيعرض لقلب أي مسلم:

لقد زرتم المدينة المنورة! فبأي الهدايا ملأتم قلوبكم من سوق المدينة الأخروي؟ إذ إن الهدايا المادية التي جلبتموها كالقبعات، والمسبحات، وسجادات الصلاة سوف تهترئ وتبهت ألوانها بعد مدة من الزمن ثم تتلف وتُرمَى. فهل جلبتم شيئاً من الهدايا الروحانية للمدينة المنورة والتي لا تتغير ألوانها، وتبعث الحياة في القلوب؟ هل بين هداياكم صدقُ أبي بكر الصديق ﵁ وتسليمه؛ وعدالة عمر بن الخطاب ﵁؛ وحياء عثمان بن عفان ﵁ وكرمه؛ وحماسة علي بن أبي طالب ﵁ وجهاده؟ هل يمكن أن تقدموا لهذا العالم الإسلامي الذي يرزح تحت نير آلاف المشاكل والاضطرابات والمعاناة شيئًا من عصر رسول الله.

نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى زيارة رسول الله ﷺ بقلب توَّاقٍ لروحانية الحرمَين.

ونسأله أن يهبنا عمراً مليئاً بالتوكل والتسليم، وأن يكون هو ملجأنا وسندنا، ونسأله أن ييسِّر لنا حجاً بقلب صادق سليم.

آمين!..





الحج والأضحية

من منظور الفقه

- **الحج**

فرائض الحج:

١. **الإحرام:** إن الذي يؤدي الحج يحرِّم على نفسه لمدة معينة بعض الأفعال والتصرفات المشروعة. ويدخل الإنسان الإحرام بعقد نية الحج والتلبية.

٢. **الوقفة في عرفات:** وهي الوقوف مدة معينة في جبل عرفة القريب من مكة، ويبدأ وقت الوقوف في عرفة ابتداءً من وقت زوال اليوم التاسع لشهر ذي الحجة وحتى دخول فجر اليوم الأول لعيد الأضحى.

٣. **الطواف حول الكعبة:** ويبدأ وقته بعد وقفة عرفة من اليوم الأول لعيد الأضحى إلى نهاية العمر. إلا أن أداء هذا الطواف واجب خلال الأيام الثلاثة الأولى للعيد. لذلك من ترك طواف الزيارة إلى ما بعد تلك الأيام الثلاثة عليه تقديم فدية. وأما إن كان للمرأة عذر يمنعها من الطواف خلال هذه الأيام، فيمكنها أداء هذا الطواف بعد هذه الأيام الثلاثة.



شروط أداء الحج:

١. السلامة البدنية: أن لا يكون أعمى، أو مشلولاً، أو شيخاً فانياً أو مريضاً بمرض ثقيل لا يطيق تحمل أعباء رحلة الحج.

٢. أن لا يكون هناك مانع يحول دون الذهاب إلى الحج "كالسجن".

٣. سلامة الطريق.

٤. وجود الزوج مع المرأة، أو رجل محرم.

٥. انتهاء العدة بالنسبة للمرأة مطلقة أو المتوفى عنها زوجها.

واجبات الحج:

١. الدخول في الإحرام في الميقات.

٢. ترك الأشياء المحظورة مع الدخول في الإحرام.

٣. الوقوف في عرفة حتى غياب الشمس.

٤. الوقوف في مزدلفة فجر العيد مدة من الزمن، وذلك من ابيضاض الأفق حتى شروق الشمس.

٥. رجم الشيطان في منى.

٦. تقديم الهدي للحاج المتمتع والمقرن.

٧. إتمام أربعة أشواط الفرض لطواف الزيارة إلى سبعة أشواط. والشوط هو الدوران الكامل حول الكعبة.



٨. أداء طواف الزيارة خلال أيام عيد الأضحى.
٩. أداء طواف الوداع لدى عودة الحاج إلى بلاده.
١٠. ستر العورة، والوضوء أثناء القيام بالطواف.
١١. البدء بالطواف من الحجر الأسود، وجعل الكعبة على جهة اليد اليسرى، والطواف مشياً.
١٢. صلاة ركعتين بعد كل طواف.
١٣. القيام بالطواف خارج ما يعرف بالحطيم.
١٤. السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.
١٥. الابتداء في السعي من الصفا، والسعي ماشياً للقادر الذي ليس له عذر.
١٦. حلق الشعر في الحرم المكي بعد رمي الجمرات في منى، وخلال الأيام الثلاثة الأولى لعيد الأضحى.

الحالات المحظورة للمُحرِم:

١. ارتداء ثياب مخيطة.
٢. الجماع ومقدماته، مثل التقبيل، واللمس.
٣. وضع الطيب.
٤. اصطياد الحيوانات البرية، أو إرشاد الصياد إليها.
٥. قطع أو اقتلاع الأشجار والنباتات الخضراء.
٦. الحلق، وتقصير الشعر.



- **الأضحية**

شروط التكليف بالأضحية:

١. الإسلام.
٢. الحرية: فالعبيد والجواري غير مكلفين بتقديم الأضاحي.
٣. أن لا يكون الشخص مسافراً: ويمكن لمن يعد في الإسلام مسافراً أن يذبح الأضحية.
٤. الغنى: إذ يجب أن يكون المكلف مالكاً لمال يبلغ النصاب، ما عدا احتياجاته الضرورية.
٥. العقل، والبلوغ: فلا تجب الأضحية على الصغار، ولا على المجانين.

الحيوانات التي تُضحَّى:

١. الغنم والماعز ويجب إتمامها سنة من عمرها. ويمكن تقديم الخروف الذي له من العمر سبعة أو ثمانية أشهر إذا بدا مثل ذوات السنة، ولا يمكن تمييزه عنها.
٢. البقر والجاموس، ويجب أن تكون قد أتمت العام الثاني من عمرها.
٣. الإبل، ويجب أن تكون قد أتمت خمسة أعوام.
٤. تقدم الواحدة من الغنم أو الماعز عن شخص واحد، وأما البقرة، والجاموس، والجمل أو الناقة فيمكن أن يشترك فيها أكثر من واحد حتى سبعة أشخاص.





شهر رمضان المبارك والصيام

أجواء العفو والمغفرة



شهر رمضان المبارك والصيام

أجواء العفو والمغفرة

إن رمضان الذي هو شهر الصيام شهر مزدهر بالمكافآت والعطاءات الجزيلة والمباركة. يمكن في هذا الشهر الذي يذكرنا بأهمية النعم الكثيرة التي لا حصر لها والتي نتمتع بها، تركُ الملذات الفانية، و بلوغ سر الملذات الأبدية الباقية من خلال نعمة الصيام التي أمرنا الله تعالى بها.

الغاية الأصلية للصيام هي مجاهدة النفس والتحكم بها قدر المستطاع للتخفيف من تأثيرها في الإنسان.

والصيام يسمو بأخلاقنا لإيصالها إلى مرحلة النضج والكمال من خلال تعليمنا الخصال الضرورية في ميادين هذه الحياة مثل الصبر، وقوة الإرادة، والابتعاد عن الأهواء والرغبات النفسية.



وهذه العبادة تشكل درعاً حامياً ومحافظاً على كرامة الإنسان تجاه رغبات النفس التي لا تنضب ولا تنتهي سواء في الطعام والشراب أو الشهوات.

والصيام إلى جانب أنه يوصِل الإنسان إلى فضائل الأخلاق والخصال مثل العزيمة والثبات، والقناعة، والرضا، والصلابة، والصبر، فإنه يذكر الإنسان بقيمة النعم التي بين يديه من خلال حالة الحرمان والجوع التي يتمسك بها في نهار رمضان، وهذا الأمر يحمله إلى التفكير بأحوال الفقراء والمحرومين، فيرق قلبه لهم ويرحمهم، ويوقظ الصيام مشاعر الشكر في جوانح الإنسان. فالصيام أحد الأوامر الإلهية الأكثر تأثيراً في القضاء على الآفات السلبية في الحياة الاجتماعية التي تجر الناس إلى الاضطراب والتمزق والتشتت مثل الحقد، والحسد، والغيرة، والكراهية. ولذلك فإن عبادة الصيام لم تُفرَض على هذه الأمة فقط، وإنما كانت عبادة مفروضة على الأمم السابقة أيضاً. حيث يقول الحق ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾[٤٨٢]

إن العبادات المفروضة في الإسلام كالأدوية المعالجة لمختلف الأمراض الروحية والنفسية التي يعاني منها الإنسان.

٤٨٢ البقرة: ١٨٣ – ١٨٤.



فشهوات النفس، والانخداع بزينة الدنيا، وإظهار الميل نحو المتع واللهو، أسبابٌ لظهور الأمراض الروحية.

لم يكن في الفترة المكية احتمال إصابة المسلمين بهذه الأمراض، على الرغم من فقدانهم كل أملاكهم وأموالهم، وعلى الرغم من الخوف والقلق الدائم من فقد حياتهم. وأما بعد الهجرة وانتقالهم إلى المدينة المنورة فقد تخلصوا من ظلم الكافرين لهم، وبدأ الإسلام بالانتشار، وبدأت أحوالهم الاقتصادية تتحسن رويداً رويداً. ولكي لا يقع المسلمون فريسة الأمراض الروحية كان من الضروري اتباع نوع من الحِمية، ففُرِض الصيام على المسلمين في العام الثاني للهجرة.

ويُعدُّ الصيام نوعاً من العلاج لكثير من الأمراض المادية والمعنوية، ولذلك كانت فرضيته لأيام معدودات. فالإنسان عندما يستخدم دواءً بشكل مستمر يتعود جسمه عليه وبالتالي يفقد قدرته في العلاج، وكذلك الأمر ينطبق على الصيام الذي يُستخدَم علاجاً للحياة المادية والروحية. فإذا ما تجاوز الصيام حدود الاعتدال فإنه لا يقدم فائدة كاملة سواء على صعيد الحياة المادية أو الحياة الروحية. ولذلك حذر النبي عليه الصلاة والسلام الصحابي الذي أراد الصيام طوال عمره، ونهاه عن ذلك.

والالتزام بالصيام في شهر معين هو من أجل جمع المسلمين في مختلف البلدان على تنفيذ هذه المهمة الدينية في وقت واحد،



وبالتالي تحقيق شيءٍ من مفهوم الوحدة الإسلامية. ومثل هذا الصيام الذي يكون أياماً معدودة يُكسِب حياتنا- التي هي أيضاً أيام معدودة- الرِّقَّة والفضيلة.

ولتنقل شهر رمضان المبارك بين كل فصول السنة حكمة أخرى مختلفة. إذ بذلك تأتي أيام رمضان في مختلف أحوال الطقس وفصول السنة من شتاء، وصيف، وخريف، وربيع، وبما تشهده هذه الفصول من برودة أو حرارة، وطول النهار أو قصره، ومع مرور الوقت تصيب بركة الصيام أيام السنة كلها. وهذه الحال تكون بالنسبة للصائمين وسيلة لمشاهدة الكثير من التجليات المتميزة المليئة بالمشقات والتسهيلات، وتتذوق قلوب المؤمنين خلالها مختلف الملذات الروحية.

إن الأرضية التي تبعث على هذه الراحة والتيسير الممنوحة للصيام نشاهدها في فرضية الصيام، فالصيام من جهة حُدِّدَ في القرآن الكريم بشهر رمضان المبارك، ومن جهة أخرى أُمِرَ به الناسُ مرحلةً مرحلةً بأسلوب بليغ. فأولاً نزل قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾[٤٨٣]

ثم بعد ذلك بيَّن بأن هذه الفرضية ليست خاصة بنا وإنما كانت أيضاً على الأمم السابقة، إذ قال:

---

٤٨٣ البقرة: ١٨٣.



﴿...كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾[484]

ثم بين بأن الصيام أيام معدودة ومعلومة، إذ قال:

﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾[485]

ثم بعد ذلك ذكرَ فضيلة شهر رمضان المبارك، وتسهيلات الصيام التي تلائم البنية الجسدية للإنسان، إذ قال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[486]

إن القسم الأخير من الآية الكريمة وكأنه يبين النتائج التي ينبغي أن يجدها العبد في الصيام. أي إن الصيام وسيلة تُوصِل العبد بتعظيمه لله تعالى إلى مرحلة شكره بالمعنى الكامل. وانطلاقاً من ذلك يمكن القول بأن الصوم عبادة ذات تأثير بالغ الإيجابية في سائر الأعمال الصالحة. فكما قال شقيق البلخي رحمه الله تعالى:

«العبادة حرفة، حانوتها الخلوة، وآلتها المجاعة».

---

٤٨٤ البقرة: ١٨٣.

٤٨٥ البقرة: ١٨٤.

٤٨٦ البقرة: ١٨٥.



وتلك المجاعة توصف في الطب الحديث على أنها أولى الأمور التي تحافظ على الصحة المثالية للإنسان، أي ما نسمِّيه بـ«الحمية»؛ تلك المجاعة عبارة عن الحرمان الذي يعد تحمله من أصعب الأمور.

يُروَى أن النفس عندما خُلِقَت بلغت بها الجرأة من شدة الجهالة إلى حد قولها لله تعالى: «أنت أنت، وأنا أنا» على الرغم من مختلف الابتلاءات وأنواع الحرمان، ولم تكد تعترف بعجزها إلا من خلال الجوع. ولهذا ليس هناك أمر أشد من الجوع تأثيراً في تقوية الإرادة. وأما الإرادة فهي أحد الشروط الأساسية التي يمكن وضعها في مواجهة الميول أو النزعات الطبيعية والنفسانية.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«إن غذاء الإنسان الأساسي هو نور الله تعالى. وليس من اللائق الإفراط في إعطائه الغذاء البدني، فغذاء الإنسان الأصلي هو المحبة الإلهية والعقل».

«إن نسيان الإنسان للغذاء الروحاني الأساسي، وسعيه وراء الغذاء البدني أرقٌ واضطراب. وهو لا يعرف الشبع، فقد يصفر وجهه من شدة الرغبة، وترتجف قدماه، ويخفق قلبه. أين غذاء الأرض من الغذاء الأبدي؟!».

«لقد قال الله تعالى عن الشهداء (يُرزَقون). فليس هناك فم، ولا جسد من أجل تذوق ذلك الغذاء الروحي».

كان لقمان الحكيم يقول لابنه ناصحاً:

«يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

وكان أحد الأولياء الصالحين يقول:

«أعوذ بالله من زاهد يعرض معدته للفساد بملئها بأنواع الطعام».

وقالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«اسعوا إلى قرع باب الملكوت!»

فقالوا: بِمَ؟

فقالت أم المؤمنين رضي الله عنها:

«بالجوع والعطش!».

يتحدث الشيخ محمود سامي رمضان أوغلو -رحمه الله- الذي يعد من كبار أهل الله في كتابه (الإنسان المكرم) عن أهمية الطعام القليل والجوع، فيقول:

سُئِلَ الأطباء:

ما أكثر الأدوية شفاءً؟

وسُئِلَ أهل الحكمة:

ما أكثر شيءٍ يشوِّق الإنسان للعبادة؟

وسُئِلَ الزهاد:

ما أكثر أمر يقوي الارتباط بالله تعالى؟



وسُئِلَ العلماء:

ما أفضل شيءٍ في حفظ العلم؟

وسُئِلَ الأمراء:

ما ألذ الطعام، وأكثره تغذية للإنسان؟

فأجاب الجميع:

الطعام القليل!

لأن هناك عشرة خصال حسنة في الطعام القليل، لا سيما في الصيام، وهي:

١. في الجوع صفاء القلب، وقوة الذاكرة؛ أما التخمة فتؤدي إلى الحمق والنسيان.

٢. بالجوع يرقُّ القلب، وتحصل اللذة والبركة في الدعاء والعبادات. وأما في = الشبع فيقسو القلب، وتتبلد المشاعر فلا تحصل اللذة في العبادات.

٣. وفي الجوع يلين القلب، ويميل إلى الانكسار والتواضع؛ أما في الشبع والتخمة فيحدث الغرور والطغيان، والكبر والتفاخر.

٤. إذا جاع الإنسان فإنه يميل إلى التفكير بالفقراء والجياع، وأما إن شبع فيصيبه النسيان، ويبتعد عن التفكير بالمحتاجين والمحرومين.

٥. في الجوع تخمد الغرائز الشهوانية والرغبات والأهواء النفسية؛ وأما في الشبع فتقوى النفس الأمارة بالسوء.



٦. في الجوع يكون الجسم في حال من التيقظ والحيوية، وأما في الشبع فيسيطر عليه النعاس والغفلة.

٧. في حال الجوع تسهل متابعة العبادات، وأداء العبودية لله تعالى، وأما إن شبع الإنسان فيصاب بالكسل والإهمال.

٨. بالجوع يصح الجسم ويقل المرض؛ وأما بالشبع فيفسد ويمرض.

٩. في الجوع يتمتع الجسم بالرشاقة والخفة؛ وأما في الشبع فيثقل ويتعطل.

١٠. في الجوع يتشوق الإنسان للإنفاق والصدقات، ويشعر بالإيثار. وهذا ما يجعل العبد ضمن الصنف الذين يقيهم الله تعالى من حر المحشر ويظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الشبع فإنه يُوقِع الإنسان إما في البخل، أو التبذير والإسراف، وهذا ما يهلكه.

أي إن الشبع يحرك الرغبات والأهواء النفسية؛ أما الجوع- عندما لا يكون فيه إفراط- فيقوِّي ملكات التفكير والإحساس لدى الإنسان.

ويلخِّص النبي ﷺ والسلام فوائد الصيام الكثيرة بقوله:

«صوموا تصحوا»[٤٨٧]

٤٨٧ المنذري: الترغيب والترهيب، ٢، ٥٠.



إن الدليل الأهم الذي يشير إلى الخصال الحميدة والصحة المادية والروحية التي يتم اكتسابها بالجوع إنما هو مكانة الصيام البارزة بين الطرق التي طبقها الله ﷻ بحق أولي العزم من أنبيائه من أجل تهيئتهم وإعدادهم للقيام بالمهمة السامية التي كلفوا بها.

إذ تم تحضير الأنبياء والرسل بالصيام لتلقي فيوضات النبوة، ولما بلغوا مراتب الكمال ابتعدوا في أوقات معينة عن العالم البشري، وتجلت فيهم بعض خصائص الملائكة. وهكذا فقد امتلأت قلوبهم وعقولهم بالوحي الإلهي وحملوها للناس.

فسيدنا موسى عليه السلام مكث في جبل سيناء مدة أربعين يوم وليلة صائماً حتى نزلت عليه التوراة.

وسيدنا عيسى عليه السلام أيضاً مكث صائماً مدة أربعين يوماً حتى سمع الكلمات الأولى من الإنجيل المقدس.

ونبينا وسيدنا محمد ﷺ مكث قبل نزول القرآن الكريم عليه شهراً كاملاً وهو معتكف لوحده في غار حراء قرب مكة، وأمضى أيامه تلك بمختلف العبادات لربه ﷻ. وفي نهاية المطاف تلقى البشارة من جبريل عليه السلام وبدأ نور الفيوضات الإلهية يشع في قلبه.

فهذه الحقائق تبين بأن غاية الصيام وفائدته الأساسية معنوية وروحية. فينبغي توجيه الصيام دائماً نحو تلك الغاية الروحية لأنها عبادة من العبادات. أما إن تم حصر الصيام ضمن فوائده ومنافعه



الظاهرية والمادية، فإنه يخرج عن كونه عبادة من العبادات؛ أي لا ينبغي أن نبتغي من الصيام تحقيق غايات مادية مثل اتباع حمية غذائية، أو إنقاص الوزن وما شابه ذلك.

وكذلك ينبغي ألا نرى الصلوات التي نقيمها رياضةً وحركات فحسب، فالعبادات تؤدَّى لنيل الرضا الإلهي فقط. ولا بد لتحقيق هذه الغاية من رقة القلب، والتخلص من القسوة والفظاظة.

ومن الضروري جداً في شهر رمضان المبارك مراعاة الأمور التي أوصى النبي ﷺ بها في هذا الشهر الفضيل، وهي:

١. كلمة الشهادة.
٢. الإكثار من الذكر والاستغفار.
٣. الإكثار من الأعمال الصالحة من أجل دخول الجنة.
٤. الابتعاد عن المحرمات والمكروهات للنجاة من النار.
٥. الإكثار من أعمال الخير والإحسان على قدر الإمكان، لنيل دعاء المحزونين والمنكسرة قلوبهم.
٦. محاولة إفطار الصائمين، وغير ذلك.



إن شهر رمضان المبارك موسم الرحمة الإلهية الذي يمكن للمؤمنين أن يكسبوا فيه الفضيلة ويزداد إيمانهم. فكما أن الصائم يحرص على عدم دخول شيءٍ إلى فمه خلال فترة الصيام، فينبغي



أيضاً أن ينتبه إلى الكلمات التي تخرج من فمه. عليه أن يبتعد كل البعد عن الغيبة والنميمة وعن كل ما يجرح مشاعر الناس أو يسيء إليهم حتى لا ينقص من فضل الصيام. قال النبي ﷺ:

«**الصيام جنة ما لم يخرقه**».

فقيل: بم يخرقه؟

قال: «**بكذب أو غيبة**»[٤٨٨]

لأن الكذَّاب أو المغتاب يصوم في نهار رمضان حارماً نفسه من الطعام والشراب الحلال، إلا أنه لكذبه أو غيبته يُعدُّ مفطراً معنوياً بأكله من لحوم الناس، فالغيبة كأكل لحم الإنسان كما ورد في القرآن. وقد قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى عن مثل هؤلاء الذي يصومون في الظاهر ويفطرون معنوياً بسبب الغيبة:

«يفسد صوم المغتاب».

وقال مجاهد:

«يفسد صيام المغتاب والكذاب!»

أي إن الذين يغتابون ويكذبون في الصيام يُحرَمون تماماً من قسم من الفضائل الرفيعة التي هي المقصود الأساسي من الصيام.

ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام عن الصلاة والصيام الذي تشوبه الغايات الدنيوية، والرياء، والتفاخر، والغفلة:

---

٤٨٨ الطبراني: المعجم الأوسط، ٥، ١٣/ ٤٥٣٦.



«رُبَّ صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورُبَّ قائم حظه من قيامه السهر»[٤٨٩]

إن الصلوات- لا سيما صلوات الليل- التي هي التراويح والتهجد ينبغي أن تمنح القلب الراحة والطمأنينة والسلام. وفي هذا الشهر الفضيل ينبغي الاهتمام أكثر بالصلوات، وتلاوة القرآن الكريم بخشوع، وتزكية القلب بالإكثار من الذكر، وإدخال الصفاء في القلب بالزكاة والصدقات. لقد نزل القرآن الكريم جملة إلى السماء الدنيا في هذا الشهر المبارك، لذلك ينبغي أن ندخل في هذا الشهر الفضيل تحت ظلال التربية القرآنية. فالقرآن الكريم يُتلَى في الأصل بالقلب، وأما وظيفة العين فهي أن تكون نظارات للقلب.

ومن القيم الأخرى لرمضان المبارك أنه ينبغي أن يُوصِل المؤمنين إلى حياة قرآنية مليئة بالفيوضات والبركات.

فهناك رابط دقيق بين الصيام والقرآن الكريم وشهر رمضان الفضيل. قال رسول الله ﷺ:

«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة...»[٤٩٠]

«الصوم نصف الصبر»[٤٩١]

٤٨٩ الطبراني: المعجم الكبير، ١٢، ٣٨٢/ ١٣٤١٣.

٤٩٠ أحمد بن حنبل: مسند، ٢، ١٧٤/ ٦٦٢٦.

٤٩١ ابن ماجة، الصوم ٤٤/ ١٧٤٥؛ الترمذي: الدعوات، ٨٦؛.



إن أجر الصيام يجزي به الله تعالى، يقول النبي ﷺ:

«كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به»[٤٩٢]

ويقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤٩٣]

ويقول رسول الله ﷺ عن هذا الأجر العظيم:

«للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[٤٩٤]

فنجد أن الله ﷻ إلى جانب ترغيبه المؤمنين بالصيام، أبقى أجر الصائم سراً خفياً لم يبين طبيعته ومقداره لزيادة ترغيب الناس بالصيام، مثل إبقاء المكافأة الكبيرة لمسابقةٍ ما سراً للفت انتباه الناس وجذبهم إليها...

---

٤٩٢ البخاري: الصوم، ٩/ ١٩٠٤؛ مسلم: فضل الصيام، ١٦٣/ ١١٥١.

٤٩٣ الأحزاب: ٣٥.

٤٩٤ البخاري: الصوم، ٩.

الصيام عبادة تُظهِر للإنسان قيمةَ النعم، وتوقظ لديه مشاعر الشكر، وتعينه على فهم أحوال الفقراء والمحرومين والمحتاجين، وتقضي على الرغبات والميول النفسية، وتخلِّص الإنسان من أسر المادة لتسمو به وتوصله إلى إحدى إسمى الخصال الأخلاقية ألا وهي «**الصبر**».

إن شهر رمضان المبارك شهر عظيم من حيث الصيام، وصلاة التراويح، والاستيقاظ للسحور، إذ يقول رسول الله ﷺ:

«**إن الله تعالى فرض صيام رمضان عليكم وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»[٤٩٥]

إن الارتقاء بالقلب إلى «الخشوع» في كل من الصلاة والصيام بما يلائم طبيعتهما شرطٌ ضروري لقبولهما. فكما ينبغي أن لا تكون الصلاة مجرد حركات سريعة وسيلةً لهضم الطعام في المعدة، فإن الصيام أيضاً ينبغي ألا يكون مجرد تمرين على الجوع الخالي من الروحانية. ولذلك هناك أمور مهمة في عبادتَي الصلاة والصيام والتي توجه العبد نحو الإخلاص.

فمثلاً يقول رسول الله ﷺ:

«**عجِّلوا الإفطار وأخِّروا السحور**»[٤٩٦]

---

٤٩٥ النسائي: الصيام، ٤٠/ ٢٢١٠.

٤٩٦ الطبراني: المعجم الكبير، ٢٥، ١٦٣/ ٣٩٥.



فهذا يعبِّر عن الدقة في مراعاة حدود الله، ويُظهِر الاحترام والتقدير والتسليم المطلق للأمر الإلهي. أما غير ذلك، أي عدم الالتزام بهذا الأمر في السحور والإفطار، فهو مظهر من مظاهر الغفلة المخالفة للسنة، وأمر غير مقبول في الشرع الإسلامي.

ولا يكون هناك عوائق للإسراع بالإفطار لأنه إنهاءٌ لجوع شديد يعاني منه الصائم، مما يشكِّل دافعاً قوياً للالتزام به. إلا أن الأمر مختلف بالنسبة للسحور، إذ إن ظروفه قد تؤدي إلى الإهمال، لأن السحور مرتبط بترك حلاوة النوم ومغادرة الفراش في أواخر الليل. لذلك يقول رسول الله ﷺ:

«تسحروا، فإن في السحور بركة»[٤٩٧]



لا بد من أجل الوصول إلى حقيقة شهر رمضان الفضيل من استغلال موسم الصيام والاستفادة من تجليات المغفرة التي تكون مخصوصة بهذا الشهر.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»[٤٩٨]

---

٤٩٧ البخاري: الصوم، ٢٠/ ١٩٢٣؛ مسلم: الصوم، ٩/ ١٠٩٥.

٤٩٨ البخاري: الصوم، ٥/ ١٨٩٩؛ مسلم: الصوم، ١.



أي إن اقتراف السيئات والذنوب ينخفض إلى أدنى مستوياته عند الصائمين الحقيقيين، وينتهي شر الشيطان الرجيم. إلا أن شر النفس يبقى قائماً فينبغي الانتباه والحذر منها.

وجاء في الحديث النبوي الشريف:

«إن الجنة لتزين لرمضان من رأس الحول إلى الحول... فتنظر الحور العين إلى ذلك، فيقلن: يا رب اجعل لنا من عبادك في هذا الشهر أزواجا تقر أعيننا بهم، وتقر أعينهم بنا».[٤٩٩]



إن الصيام الذي يُعرَف بأنه تحذير الإنسان ومنعه عن أمور مادية لمدة معينة من الزمن، يعني أيضاً حماية الحياة القلبية من الأهواء، والميول، والشهوات النفسية، وهذه الحال تُعد في نظر أهل العرفان من الصيام. أي على الإنسان الصائم عدم الاكتفاء بالامتناع والابتعاد عن الميول والرغبات المادية مثل الطعام والشراب، وإنما ينبغي له حفظ قلبه أيضاً من سائر الأهواء والخصال الدنيوية والمذمومة مثل الغيبة، والنميمة، والكذب. ولهذا يقول النبي ﷺ:

«من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٥٠٠]

٤٩٩ ابن خزيمة: صحيح، ٣، ١٩٠.

٥٠٠ البخاري: الصوم، ٨/ ١٩٠٣؛ الترمذي: الصوم، ١٦؛ أبو داوود: الصوم، ٢٣٦.



فانطلاقاً من هذا الحديث الشريف ينبغي لنا الابتعاد عن كل ما يمكن أن يفسد صيامنا، لا سيما الابتعاد عن الغضب والنزاع مع الناس.

يقول رسول الله ﷺ:

«ليس الصيام من الأكل والشرب إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد، وجهل عليك فقل: إني صائم»[٥٠١]

لأن أحد أسماء شهر رمضان المبارك «**شهر الصبر**». وقد عدَّ بعضُ المفسرين «الصبرَ» أحدَ معاني الصيام التي وردت في القرآن الكريم، فالصوم بهذا المعنى تحكمٌ بالنفس، وثبات، وتحمل للشدائد.

والصبر مركز الأخلاق الحسنة، ونصف الإيمان، ومفتاح السرور والسعادة. وهو نعمة عظيمة توصل صاحبها إلى نعم الجنة.

الصبر في الدين والأخلاق هو المحافظة على الهدوء والسكينة، وعدم فقدان التوازن في مواجهة الأحداث التي تسيء إلى الإنسان أو تسبب له معاناة وآلام، مع تفويض وتسليم الأمر إلى الله تعالى.

لقد نال الأنبياء والأولياء عون الله تعالى ومدده بالصبر والثبات، فينبغي أن يكون هؤلاء قدوتنا.

إن الجانب الدنيوي للصبر مر ومؤلم، أما الجانب الأخروي للصبر ففيه راحة. فالذين يتحملون آلام الصبر ومرارته في هذه

٥٠١ الحاكم: المستدرك، ١، ٥٩٥/ ١٥٧٠.

الدنيا ينالون في الآخرة الجنة الأبدية، والأهم من ذلك رضا الله سبحانه وتعالى.

وما يخفِّف وطأة الصبر على الإنسان هو التفكر الدائم بالنعمة، والحكمة، والثواب الإلهي في أوامر الله تعالى ونواهيه.

والشرط الأول للصبر- أو العبرة بالصبر- هو عند الصدمة الأولى، أي عند اللحظات الأولى لمواجهة أي حادثة. أما الصبر بعد مرور الصدمة فليس له ثواب كبير.

إن الأنبياء وأولياء الله يتجلى فيهم اسم «الصبور»، لذلك فمن المهم سريان صبرهم في أوقات الضيق والفرج إلينا، والصبر يُعد وحداً من أجمل أخلاقهم وأحسنها.



ولا بد أن ندعم صيامنا بالأمور المعنوية مثل التهجد، والتراويح، والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، والدعاء، حتى نتمكن من الصيام مع الشعور الدائم بأننا مع الله ﷻ.

إن وقت الإفطار يُعد وقت قبول الدعاء، لذلك فإن عيش هذه اللحظات الروحانية والنورانية مصدرُ رحمة وسكينة وسلام. ويقول النبي ﷺ:

«من فطَّرَ صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً»[٥٠٢]

٥٠٢ النسائي: الكبرى، ٢/ ٢٥٦؛ الترمذي: ٨٠٧.



فلما سمع فقراء الصحابة الكرام هذه البشارة النبوية جاؤوا إلى النبي ﷺ وقد علت وجوههم علامات الحزن والكآبة، وأخذوا يشكون إليه ضيق حالهم وعدم قدرتهم على إفطار الصائمين مثل أغنياء الصحابة، ولما أنهوا شكواهم قال النبي ﷺ:

«يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على مذقة لبن، أو تمرة، أو شربة من ماء»[٥٠٣]



لصيام النافلة شعور مختلف، لأن أساس أعمال الخواص من عباد الله تعالى هو الصدق، والصدق أساسه إخلاص النية وتزكية النفس. لذلك كان لدى الصحابة الكرام الذي نشؤوا وترعرعوا في ظلال تربية النبي عليه الصلاة والسلام، رغبةٌ شديدة للصيام. فكانوا رضي الله عنهم يبذلون كل جهدهم وطاقتهم لصيام النافلة في أشد الأيام حرارة، حتى إن بعضاً من هؤلاء لم يكن لديه من الثياب ما يقيه من حرارة الشمس الملتهبة، إلا أنهم على الرغم من كل ذلك كانوا يستمرون في صيامهم- ولو كان نافلة- بلذة بالغة تعجز الكلمات عن وصفها.

إن أفضل الأعمال هو العمل المرتبط بالنية السليمة سواء بصيام أو بلا صيام.



---

٥٠٣ ابن خزيمة: صحيح، ٣، ١٩١.

إن تقييم أعمال العباد لله ﷻ، وخير الأعمال ما يتم بمراقبة الله تعالى. عندما يُنزل الإنسان إلى القبر لا يُدفَن معه سوى أعمال هذه الحياة الفانية، فالمقابر هي الأماكن التي لا تنفع فيها إلا الأعمال الصالحة. وخير دليل على ذلك قول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«**إذا مات المؤمن كانت الصلاة عند رأسه، والصدقة عن يمينه، والصيام عن شماله**»[٥٠٤]

والحياة التي تمضي في غير مرضاة الله تعالى تشبه السراب في الصحراء، فهي خيال لا نصيب له من الحقيقة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا نقدِّر أشهر رمضان المباركة حقَّ قدرها من خلال مراعاة وصايا النبي ﷺ والالتزام بها، وأن نوفَّق إلى استثمارها في مزيد من الأعمال الصالحة فيها لزيادة الأجر والثواب، وتجنب الأعمال السيئة.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**لو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان**»[٥٠٥]

لأن أجواء شهر رمضان المبارك من أولها إلى آخرها أجواء مغفرة، وهو الشهر المبارك الذي يُؤدَّى فيه الركن الرابع للإسلام.

---

٥٠٤ فضائل الأعمال: ٢٦٧ ٢٦٨.

٥٠٥ ابن خزيمة: صحيح، ٣، ١٩٠.



ورمضان إعداد معنوي لعبادة الحج التي تطهِّر القلب بحظر الرفث والفسوق والجدال.

ولا شك أن كل يوم من أيام شهر رمضان المبارك فرصة ثمينة للعبد، فهو من أوله إلى آخره مليءٌ بالخيرات والبركات. يقول النبي عليه الصلاة والسلام عن هذا الشهر العظيم:

«أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وأخره عتق من النار»[٥٠٦]



إن شهر رمضان المبارك فصل يحمل الفيوض والبركات التي في القلوب، وفيه تتجدد براعم الإيمان بالأعمال الصالحة، وتتزين القلوب بالتقوى وتنبعث فيها الروحانية من جديد. فهذا الشهر من بدايته إلى نهايته فرصةٌ ثمينةٌ ينبغي اغتنامها.

وأما الغافلون الذين لا يستغلون هذه الفرصة ولا يستثمرون هذا الشهر المبارك بالعبادات والأعمال الصالحة فهم الذين سوف يبوؤون بالخسران الكبير كما أخبر به رسول الله ﷺ في الحديث الذي يرويه كعب بن عجرة رضي الله عنه، إذ يقول:

قال رسول الله ﷺ **«احضروا المنبر»**، فحضرنا. فلما ارتقى درجة قال: **«آمين»** فلما ارتقى الدرجة الثانية قال: «آمين» فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال: **«آمين»** فلما نزل قلنا:

٥٠٦ ابن خزيمة: صحيح، ٣، ١٩١.



يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه.

فقال رسول الله ﷺ:

«إن جبريل عليه السلام عرض لي فقال:

بُعداً لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، قلت : آمين.

فلما رقيت الثانية، قال:

بُعداً لمن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، قلت: آمين.

فلما رقيت الثالثة، قال:

بُعداً لمن أدرك أبواه الكبر عنده أو أحدهما، فلم يدخلاه الجنة، قلت : آمين».[٥٠٧]

فهذا الحديث الشريف يبيِّن العاقبة الوخيمة والمحزنة لمن يغفل عن العبودية والعبادة في مثل هذا الشهر المبارك الفياض بالرحمات والمغفرة، وعن الصلاة على رسول الله ﷺ، ولمن يعق والديه أو أحدهما.



ويأتي على رأس العبادات التي يتم بها استثمار الأيام المباركة لشهر رمضان الفضيل رعايةُ الفقراء، واليتامى، وأبناء السبيل، والمشردين، والمرضى، والمحتاجين، إذ يتم فتح القلوب لهؤلاء الناس، ومشاركتهم بكل إخلاص وعطف همومهم ومشاكلهم

٥٠٧ الحاكم: المستدرك، ٤، ١٧٠/ ٧٢٥٦.



وأحزانهم، فهذه الأعمال من أهم المؤثرات التي تسمو بفضل شهر رمضان المبارك. لأن هذه العبادات، أي الأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد تجاه من يستحقها مثل الزكاة والصدقات، تكون سبباً في عفو الله تعالى ومغفرته، وتغرق العبد بالفيوض والبركات الربانية، وتغلق سبل العذاب، وتفتح أبواب العناية الإلهية.

فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«**الصدقة تسُدُّ سبعين باباً من السوء**»[٥٠٨]

«**إن الصدقة لتطفئ غضب الرب**»[٥٠٩]

وقال لقمان الحكيم لابنه:

«يا بني، إن ارتكبت معصية عن علم أو جهل فاستعجل بالتوبة وتصدق بصدقة!».

وللصدقة أهمية كبيرة لا سيما في شهر رمضان المبارك، إذ جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟

فقال رسول الله ﷺ:

«صدقة في رمضان»[٥١٠]

---

٥٠٨ السيوطي: الجامع الصغير، ٢، ٥٢/ ٧٩٨٢؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ٤، ٢٧٤.

٥٠٩ الترمذي: الزكاة، ٢٨.

٥١٠ الترمذي: الزكاة، ٣، ٤٢.

ويصنف أهل الله المنفقين ونفقاتهم وفق التصنيف الآتي:

إنفاق أهل الشريعة، ويكون من أموالهم؛ إنفاق أهل الحقيقة، ويكون من أموالهم ومن روحانياتهم؛ وإنفاق العارفين، ويكون من قلوبهم لأنهم لا يبتعدون عن المراقبة الإلهية؛ وإنفاق العاشقين، ويكون من أرواحهم لأن أرواحهم راضية بقضاء الله؛ وإنفاق الأغنياء، وهو إخراج المال من صناديق أموالهم؛ وإنفاق الدراويش، ويكون بإخراج كل ما سوى الله تعالى من القلب؛ وإنفاق العابدين، ويكون من أنفسهم، إذ يُقبِلون على العبودية والعمل.

عندما ينفق أغنياء القلب فإن أعينهم لا تبقى على أموالهم في يد المحتاجين. وكل المحتاجين والفقراء يسرون ويفرحون ويستبشرون بأموال الأغنياء الشاكرين والكرماء المنفقين. فكما أن سُحُب شهر نيسان تمطر بالرحمة والبركة على كل الأراضي التي تمر من فوقها، فكذلك العباد الأسخياء والرحماء هم وسيلة لإيصال رحمة الله تعالى للمحتاجين والمساكين.

فالمنفق كلما أنفق بمحبة، عاد إنفاقه بالبركة على الفقير أو المحتاج، وهذا الإنفاق يكون مصدراً للصفاء والسكينة لكل من المعطي والآخذ على السواء، فيدخل هذا العطاء ضمن قول الله تعالى: ﴿**تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**﴾.

ومن جهة أخرى فإن كل عبد من عباد الله تعالى مُخَاطَب بالآية الكريمة:



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[511]

لذلك فإن أحد مظاهر العبودية الحقيقية إدراكُ كل عبد سواء كان غنياً أم فقيراً حالَ فقره أمام الله تعالى، ثم العيش في هذه الحياة بمشاعر الحاجة الدائمة إلى الله ﷻ. وقد قيل سابقاً: «الفقر فخرنا!»

فهذا الكلام الحكيم يعبر عن تفضيل غنى القلب على غنى الدنيا المتمثل بالمال، ويُبيِّن منبع الفضل لدى الأغنياء والفقراء الصالحين، ويأمر بأن يكون المرء من أهل القناعة.

لأن الأشخاص الذين لديهم القناعة هم في غنى دائم سواءٌ أكان لديهم مال أم لم يكن، فإن كانوا من الأغنياء فهم يحفظون أنفسهم من الإسراف والبخل، وإن كانوا فقراء فإنهم يلتزمون بالعفة ولا يعرضون أحوالهم إلا على الله تبارك وتعالى، لأنهم جعلوا أنفسهم فداء لله تعالى.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«ما يليق بأهل السخاء والجود هو الإحسان إلى الفقراء، وما يليق بالعاشقين هو الفداء والتضحية بالروح في سبيل المحبوب».



يصف العلامة ابن القيم الجوزي رحمه الله تعالى إنفاق رسول الله ﷺ وغنى قلبه، ليكون مثلاً يُقتدى به، فيقول:

---

٥١١ فاطر: ١٥.



لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يشبه أحداً من الخلق في العطاء والبذل والصدقة. لم يكن يدخر شيئاً من الأموال التي أكرمه الله تعالى بها، ولا يخبئها في داره أبداً. وإذا طلب منه أحد الناس شيئاً يعطيه مهما كان كثيراً أو قليلاً. وكان عطاؤه للصدقة عطاء من لا يخشى الفقر أبداً، وكان إعطاء الصدقة أكثر ما تلذ به نفسه. وكان سروره بعطائه وصدقته أضعاف سرور المحتاج الذي أخذ منه المال. فكان أجود الناس في عمل الخير، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة. وإن شكا إليه محتاج حاجته تأثر لحاله، فيؤثره على نفسه ويجزل له العطاء، فكان يعطي أحياناً طعامه، وأحياناً يعطي الثوب الذي على بدنه.

يُروَى عن جابر بن عبد الله ﵁ أنه:

جاء غلام إلى النبي ﷺ، وأخبره بأن أمه أرسلته تريد منه قميصاً، ولم يكن لدى رسول الله ﷺ آنذاك سوى القميص الذي على ظهره، فطلب من الغلام أن يأتيه في وقت آخر. فانصرف الغلام من عنده، ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد الغلام مرة أخرى، وأخبر النبي ﷺ بأن أمه تريد القميص الذي على ظهر رسول الله ﷺ.

فدخل النبي عليه الصلاة والسلام الحجرة الشريفة، فخلع قميصه وأعطاه للغلام.

وفي تلك الأثناء دخل وقت الصلاة وبدأ بلال ﵁ برفع الأذان. إلا أن النبي ﷺ لم يجد ما يلبسه فلم يستطع الخروج إلى الجماعة.



فتساءل بعض الصحابة الكرام عن تأخر النبي عليه الصلاة والسلام ودخلوا إلى الحجرة الشريفة، فوجدوا رسول الله ﷺ من غير قميص؛ فكان لهذا المشهد تأثير عظيم في هؤلاء الصحابة الذين تمثلوا بأخلاقه ﷺ وسخائه.



كان الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى الذي لُقِّبَ بخامس الخلفاء الراشدين، يقول:

«الصلاة تأخذك إلى منتصف الطريق، والصيام يفتح أبواب السلطان، والصدقة تُدخِلُك مجلسه».

يروى عن عبيد بن عمير أنه قال:

«يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة عطاشاً جياعاً. فمن كان قد أطعم في الدنيا لوجه الله تعالى أطعمه الله في ذلك اليوم، ومن كان قد سقى لوجه الله في الدنيا سقاه الله ذلك اليوم، ومن كان قد كسا لوجه الله في الدنيا كساه الله ذاك اليوم».

وجاء في الحديث النبوي الشريف:

«**أنفقْ يا ابن آدم أُنفِق عليك**»[٥١٢]

ويوضح مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله حقيقة الإنفاق بالمثال الآتي، فيقول:

٥١٢ البخاري: النفقات،١/ ٥٣٥٢؛ مسلم: الزكاة، ٣٦.



«لا ينقص المال بالصدقة والعطاء أبداً؛ فعمل الخير يحمي المال من الضياع والفقدان!»

«والزكاة التي تخرجها من مالك تحرس لك صندوقك وتحميه. والصلاة التي تقيمها ترعاك، فتحفظك وتحميك من الأذى والسوء والديدان»

«زراعة البذور تُفرِغ المخزن، ولكن عندما يحين وقت الحصاد، تعود البذور التي بذرته عشرات الأضعاف، وتملأ المخزن الذي أفرغته أضعافاً!»

«إلا أن القمح إن لم يُبذَر، ولم يُستثمَر في الأرض وبقي في المخزن، فإنه يصبح طعاماً للديدان والفئران. فهذه المخلوقات الضعيفة تفنيه تماماً».

يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾[513]

﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[514]

لأن الزكاة والإنفاق عبادة خالصة لوجه الله تعالى، فينبغي أن يعلم الإنسان بأن ما أعطاه من المال إنما أعطاه لله تعالى مباشرة.

---

٥١٣ المنافقون: ١٠.

٥١٤ التوبة: ٣٤.



يقول رسول الله ﷺ:

«إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل»[٥١٥]

فالمؤمن في الحقيقة يضع الزكاة والصدقة في يد الله تعالى، والفقير عندما يأخذ هذه الصدقة فإنه يصبح وكيلاً عن الله ﷻ، فلا بد من تقديم الأعطيات إلى المحتاج بأدب وشكر لهذا المحتاج.

وقد قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿...**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**...﴾[٥١٦] لتأكيد الأهمية العظيمة لهذه العبادة.



ومن الضروري مراعاة الأدب عند إعطاء الصدقات، وقد بيَّن الله تعالى أدب الصدقة في القرآن الكريم إذ قال:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**...﴾[٥١٧]

وقد كان أهل الله والعارفون إذا ما أرادوا إعطاء صدقة للمحتاج، وقفوا بين يديه بتواضع وانكسار ثم أعطوه المال، وذلك من أجل التخلص من هواجس التفاخر أو التمنن على المحتاج.

---

٥١٥ المناوي: كنوز الحقائق، ص، ٣٤.

٥١٦ التوبة: ١٠٤.

٥١٧ البقرة: ٢٦٤.

لم يُظهِر سيدنا سليمان عليه السلام أي ميل تجاه المُلك العظيم الذي وهبه الله تعالى له، وإنما أبقى هذا المُلك- على الرغم من عظمته- خارج قلبه.

وكان عليه السلام كثير التردد على الفقراء، إذ كان يذهب إليهم ويتلذذ بالجلوس معهم، ويقول:

«المسكين يليق بمساكين مثله!»

وكان عليه السلام مدركاً للحقيقة التي يخبرنا بها الله في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٥١٨]

ذات يوم قال أحد الغافلين لسيدنا سليمان عليه السلام الذي كان مستمتعاً بجلوسه مع بعض الفقراء:

لَمَ تجلس مع مثل هؤلاء الفقراء والمساكين، وتأكل وتشرب معهم؟

فأجابه سيدنا سليمان عليه السلام بقوله:

لأني أحب أصحاب القلوب الغنية فقط.

إن القارورة مُحكَمة الإغلاق التي ليس فيها إلا هواء يمكنها أن تقطع مسافات فوق سطح الماء دون أن تغرق فيه. فكذلك حال المؤمن الذي امتلأ قلبه بمحبة الله عز وجل، وأغلق فمه عن عرض الدنيا

٥١٨ فاطر: ١٥.



وشهوات النفس وطغيانها، فإنه يبلغ منازل سامية ورفيعة دون أن يغرق في بحار الدنيا.

والمؤمن الذي يمتلئ قلبه بمشاعر السخاء، والرحمة، والشفقة، والتواضع، والمحبة، لا ينخدع بالدنيا ومباهجها الفانية، فنعم الدنيا لا قيمة لها في قلبه، وهو يتمنى أن يمتلئ قلبه بالمعرفة والمحبة الإلهية.



من أحد الأمور الأخرى الذي ينبغي لنا الاهتمام به في شهر الرحمة والمغفرة هو إحياء ليلة القدر.

تعد ليلة القدر إحساناً فريداً قدَّمه الله من فيض رحمته اللامتناهية للأمة المحمدية، فهذه الليلة مليئة بالخزائن الروحانية والرحمانية التي أُهديَت لهذه الأمة. وقد أنزلت بحقها سورة قرآنية مستقلة لفضل هذه الليلة المباركة وعظمتها.

لقد تميزت ليلة القدر هذه بنزول القرآن الكريم فيها، واكتسبت أهميتها وقيمتها المعنوية باشتراك جبريل عليه السلام والملائكة الآخرين في إحيائها. فهذه الليلة التي تُسلِّم فيها المخلوقات النورانية على المؤمنين إحسانٌ ولطفٌ مليءٌ بالفيوضات والبركة، وهي ليلة رحمة الله تعالى بعباده.

إن ليلة القدر ليلة نفحات العفو والغفران الآتية إلينا من النبي ﷺ، والمليئة بالروحانيات.



فقد جاء في الحديث النبوي الشريف:

«من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[٥١٩]

إن ما يوصلنا إلى حقيقة ليلة القدر هو العبادات مثل الصيام، والصلاة، والزكاة البعيدة عن الغايات والأهداف الدنيوية، وعن أمراض القلب كالرياء، والتفاخر، والعجب. فإذا ما أنهينا المدرسة الرمضانية بهذه الروحانية، فعند ذلك نستحق نيل شهادة العيد الحقيقي.



إننا في الحقيقة مسافرون في رحلة سوف تنتهي ذات يوم بتجريدنا من كل الملذات والمتع الفانية التي بين أيدينا. فالقلوب سوف تتحسر وتشتاق إلى هذه الأيام الروحانية العابرة، وفراق هذه الأيام المباركة المحفوفة بالمغفرة التي تنجي العبد من نار جهنم، ستجعل عيون المتقين دامعة. وربنا سبحانه وتعالى يجعل أيام العيد مكافأة على الصبر، والأعمال الصالحة، والصدقات التي قُدِّمَت تقديراً لقيمة لنعم الإلهية.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل حياتنا الدنيا كشهر رمضان المبارك، وأن يجعل صباح يوم القيامة عيداً حقيقياً لنا!...آمين!

٥١٩ البخاري: الصوم، ٦/ ١٩٠١؛ مسلم: صلاة المسافرين، ١٧٥.



الصيام

من منظور الفقه

الصوم: امتناع عن الطعام والشراب والجماع من وقت الفجر عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، إلى غياب الشمس لوجه الله تعالى وطلباً لرضاه.

الحالات التي يفسد فيها الصوم وتجب الكفارة:

١. الأكل أو الشرب عمداً. وكذلك تناول الأشياء التي أصبحت عادة عند الشخص عمداً مثل أكل التراب، أو تناول اللحم النيء، أو تدخين السيجارة، أو تناول حبات السمسم أو القمح وما شابه ذلك.

٢. الجماع.

٣. إذا فعل الصائم أحد الأشياء التي تفسد الصوم بعد قيامه بعمل غير مفطر مثل أخذ عينة من الدم، وتنظيف الأسنان، مع علمه بأن هذه الأمور غير مفطرة.



الحالات التي تُفسِد الصوم وتوجب القضاء:

١. تناول شيءٍبلا قصد مما لم يكن أكله عادةً، مثل تناول الطحين، والأرز غير المطهي، والعجين الذي ليس فيه زيت أو سكر، وابتلاع الجوز غير الناضج، وحبة السفرجل غير الناضجة، وكذلك حبة الزيتون والكرز إلخ. أو تناول الورق، والقطن، والتراب من غير عادة، والنبات اليابس، والتبن.. إلخ.

٢. ابتلاع ماء المطر الذي يدخل الفم، وحبات الثلج من غير قصد.

٣. التقيء عمداً.

٤. متابعة من أكل ناسياً لطعامه بعد تذكر أنه صائم، ظناً بأن صيامه قد فسد.

٥. تقطير شيءٍ في الأذن، أو الأنف، أو الحنجرة.

٦. الإفطار مكرهاً.

٧. ابتلاع الطعام الباقي بين الأسنان إن كان بحجم حبة الحمص.

٨. الإفطار ظناً أن الشمس قد غربت أو تناول طعام السحور مع الشبهة بدخول وقت الإمساك.





العيد

تخضع الكائنات كلها دائماً للتبدل لأن صفة البقاء محصورة بالله ﷻ وحده دون غيره. ومن مظاهر هذه الحقيقة تعاقب الفصول في السنة، فيوجد في هذا الكون الخاضع لتغير أبدي تقلبات دائمة تُسِر الكائنات تارة وتحزنها تارة أخرى.

ويتعرض الإنسان لتقلبات في سيرته لأنه خاضع لهذا المسار من التغير والتبدل العام الذي يجري في الكون كله. فالمظهر الأول لحياة الطفل الذي يولد حديثاً هو البكاء، وأما ختام الحياة فينتهي بألم الموت الذي لا يمكن تجاوزه إلا باستعراض المقام الرفيع الذي يُقبِلُ عليه الميت أمام عينيه في لحظات خروج الروح. ويعبِّر أحد الشعراء عن هذه الحال بأبيات شعرية أجمل تعبير، إذ يقول:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيًا   والقوم حولك يضحكون سروراً

فاعمل ليومٍ أن تكون إذا بكوا   في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

إن المراحل الممتدة بين بداية هذه الحياة ونهايتها تتوالى فيها مظاهر السلام والفرح والسرور والطمأنينة مع مظاهر الاضطراب والمعاناة والألم والملل. ولذلك يقول الناس:



الحياة أحياناً سرور، وأحياناً كدر،

هكذا جاءت، وهكذا تذهب!...

فيعبِّرون بذلك عن التقلبات التي تسود مسيرة الحياة البشرية. ولا يخلو الأمر من لحظات السرور والهدوء والسلام، ومن هذه اللحظات أيام الأعياد.

إن المؤثرات التي تحرك المجتمع والفرد في الحياة الدنيا قسم منها مشاعر نفسية، والقسم الآخر مشاعر روحانية. والأعياد أحد المؤثرات التي تحرك المشاعر المعنوية لدى الإنسان، فالأعياد تقوي مشاعر الصداقة والقربى، وتشحذ أحاسيس الشفقة، والرحمة، والوفاء، والإيثار الكامنة بين جوانح الإنسان وتحفزها. لذلك فإن أجمل ما يكون في العيد تقوية روابط الصداقة والقربى، وشعور قلوبنا بقلوب الفقراء، والغرباء، والمشردين، واليتامى، والأرامل. ولا يمكن الحديث عن متعة العيد وفرحه بالنسبة لمن أداروا ظهورهم للأصحاب، والأقرباء، وللبائسين، والمحتاجين، والمشردين. إذ إن النبي ﷺ يقول في الحديث الشريف:

«إن أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض إدخال السرور على المسلم»[٥٢٠]

٥٢٠ السيوطي: الجامع الصغير، ١، ١١؛ الطبراني: المعجم الكبير، جـ ١١، ٧١/ ١١٠٧٩.



لأن الأعياد مظاهر حقيقية للأخوة الإيمانية، وهي مشاعل رحمة تنير لنا دروبنا بعد الموت.

وينبغي أن ندرك أن العيد الحقيقي هو ما يدخل السرور في قلوب المتألمين، ويهدِّئ من معاناتهم. فمثل هكذا أعياد تُشعر العبد بمتعة فرحه، وفي الوقت نفسه تشعره بمتعة إدخاله الفرح والسرور في قلب غيره. لأن الأعياد ليست سروراً فردياً، وإنما هي إدخال للسرور في المجتمع كله، وتشاركٌ في المشاعر بين أفراده، وإحساس بالأخوة الإيمانية من القلب بين جميع المسلمين.

وهنا نتساءل؛ ما الأشياء التي يمكننا أن نحملها في الأعياد إلى الناس العاجزين والبائسين؟

يعبر مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله عن ضرورة مراعاة أصحاب القلوب المنكسرة بقوله:

«إن القلوب التي لم تبالِ بها، والتي ظننتها مجرد قش في البيدر، هي في الحقيقة فوق كل شيءٍ».

«فالقلوب المنكسرة محل نظر الله، وهي الأماكن التي شرَّفها الحق سبحانه وتعالى. فكنوز الله تبارك وتعالى مخبأة داخل تلك القلوب، إذ ما أكثر الكنوز المدفونة في الأماكن المتهدمة والمتحطمة. وما أجلَّ خالق القلب وما أقواه».



وينبغي أن نعلم بأن العيد ليس إجازة أو وسيلة لمتعة فردية، وإنما ينبغي أن تشرق فيها مشاعر الإنسانية، و الرأفة، والمحبة العامة.

فالعيد الحقيقي أجواء من المغفرة والرحمة الواسعة، وينبغي أن يكون يوماً مباركاً يتلاحم فيه المسلمون ضمن إيمان راسخ.

والعيد يوم سرور وفرح مشترك بين الصغير والكبير، والمريض والسليم، والغني والفقير، فسرورهم جميعاً يمكن تحقيقه من خلال معايشة المعنى الحقيقي للأعياد. وبناءً على ذلك ينبغي أن يكون العيد وسيلة لحمل المحبة، والشفقة، والرقة، والعون من عند الخالق سبحانه وتعالى إلى جميع المخلوقات.

وما أجمل الأبيات المفعمة بالحكمة والتي قالها سيد أحمد يسوي:

أينما وجدت قلباً مكسوراً، فكن بلسماً له

إن بقي المظلوم على الطريق، فكن أنت صديقه

من أجل الوقوف أمامه يوم المحشر كن بلسماً له

إن كنت عاقلاً، فاصطد قلوب المشردين

وتجول في البلاد مثل سيدنا محمد المصطفى ﷺ باحثاً عن اليتامى

ينبغي أن يبدأ يوم العيد بكسب قلوب المظلومين، والمقطوعين، والمشردين. وينبغي أن تبدأ المعايدة بمن سبقونا إلى القبور الذي



هم بحاجة إلى الدعاء والعون والشفقة. وقراءة الفاتحة لمن يرقد في القبور والتصدق لهم فيه وفاء لديونهم السابقة في رقاب الأحياء. وبهذه الحالة فإن الحي يتذكر بأنه ذات يوم سوف يكون كهؤلاء الأموات الذين يسعى اليوم لزيارتهم، فيعيد تنظيم حياته على أساس هذا الشعور والإدراك.

كان رسول الله ﷺ يسأل أصحابه الكرام دائماً إن مسح أحدهم على رأس يتيم أو عاد مريضاً أو مشى في جنازة.

إن هذه الأسئلة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يكثر من توجيهها إلى أصحابه الكرام تقتضي أن نولي لمثل هذه الأمور أهمية كبيرة في أيام الأعياد، فهي من أهم عباداتنا الاجتماعية.

إن أطفالنا اليوم رجال المستقبل، فإيفاءنا بواجباتنا في الأعياد تجاههم يُعد إنفاقاً ضرورياً لتأسيس مستقبل سليم لهم. بينما كان سيد العالمين النبي ﷺ عائداً من المسجد رأى أطفالاً كانوا يلعبون في الطريق، وبينهم طفل صغير مسكين جالس في زاوية بعيدة مثل طائر مكسور الجناح وهو ينظر بحزن وانكسار إلى عينيه المباركتين. فتوجه في الحال نحو الطفل المسكين بكل رحمة، وسأله:

يا بني، لمَ لا تلعب مع أصحابك؟

فاغرورقت عينا الطفل بالدمع، وقال:

لقد مات أبي! وليس لي أخ ألعب معه!



فمسح رسول الله ﷺ بيده الشريفة المباركة على رأس الغلام، ثم قال مشيراً إلى حفيده الحسن الذي كان حوله في تلك الأثناء:

ألا تريد أن تكون أخاً للحسن؟

وفي تلك اللحظات انفرجت أسارير الغلام وزالت عن وجه ملامح الكدر، وعادت إليه ابتسامة مفعمة بالأمل، والبراءة، والحلاوة.

فها هو رسول الله ﷺ وسيد الخلق قد قدَّر كل الناس حتى هذا الغلام الصغير فاهتم بقلبه الصغير ورعاه، وأحاطه بالمحبة والشفقة والرحمة، فدلَّ أمته إلى طريق العيد الحقيقي.

إن العيد الحقيقي يوم الفرح والسرور المبارك الذي يتفضل الله تبارك وتعالى به على الروح بعد أن عاشت عبودية صادقة واجتازت امتحان التقوى في هذه الدنيا التي هي دار الغربة بين الأزل والأبد.

والحكمة التي جعلت الأيام الفانية عيداً هي الشعور بالإيمان والعمل بمقتضاه. وكل يوم عيد استطاع العبد تزيينه بالعبادة والتكبير والمساعدات الاجتماعية، وخاصة بمشاعر الود والرأفة تجاه المشردين والغرباء، فإنه يصبح مشعل رحمة لما بعد الموت.

أي إن العيد يوم فرح من الله تعالى بالنسبة لمن قدروا رمضان المبارك حق قدره، وأمضوا هذا الموسم الفياض بالرحمات



والبركات كما أمرَ الحق سبحانه وتعالى، ولمن فضلوا الملذات الأبدية على الملذات الفانية، ورجحوا لذة الآخرة على لذة الدنيا وصفائها.

والعيد عندما ننظر إليه من هذا الجانب فإنه احتفال بنصر معنوي، وفرح اجتماعي. لذلك فإن العيد ليس بفرح فردي وإنما فرح عام. وصلاة العيد التي هي علامة شكر كبرى لا تقام بشكل فردي، وإنما تؤدى جماعة مع المسلمين. فالمؤمنون ينالون في العيد فيوضاً من المحبة والمشاعر الدينية.

ومن جانب آخر، لا ينبغي أن يغيب عن بالنا بأن الحياة الدنيا ما هي إلا موسم رمضاني قصير، وأن عيدها هو يوم الآخرة الذي يُفتتح بتجليات الرضا والسعادة.

وهناك من العباد من يملؤون قلوبهم في كل لحظة بفيوضات «ليلة القدر»، وهؤلاء يعجز الكلام عن وصف اللذة الروحية التي يعيشونها. فهذه اللذة التي هي لذة الجنة ورؤية الله التي تعد من أعظم النعم الإلهية تجلٍ خاص لا ينعكس في هذه الحياة الفانية إلا في أشخاص نادرين. ولا يمكن بلوغ هذه المتعة واللذة إلا من خلال قلب سليم، إذ يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٥٢١]

---

٥٢١ الشعراء: ٨٨ – ٨٩.



فبعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى في هذه الآيات المباركة حقيقة عدم فائدة بضاعة الدنيا من المال والأولاد في الآخرة، أشار إلى القلب السليم الذي يُعد رأسمال السعادة الوحيد في الآخرة. ومن إحدى أهم الفرص التي بين يدي الإنسان في هذه الدنيا من أجل اكتساب صفة «**القلب السليم**» هي إدراك الأعياد التي توصف بأنها مظهر من مظاهر اللذة، والسرور، والرحمة العامة حق إدراكها، وإحيائها وفقاً لهذا الإدراك.

يعرف بهلول دانا العيد بتعريف جميل، فيقول:

«ليس العيد من أجل لبس الثياب الجديدة، وإنما العيد من أجل نشر مظاهر الرحمة بين العباد والتي يمكن أن تنجي الإنسان من العذاب الإلهي، وتوصله إلى بر السلامة والأمان.

ليس العيد من أجل امتطاء المراكب الجميلة، وإنما العيد من أجل تطهير النفس من الأخطاء والذنوب، واكتساب قلب سليم يأخذه الإنسان معه إلى الله تعالى».

لذلك فإن العيد بمعناه الحقيقي يتجلى في كل فرد على حسب قلبه، فكلما كان القلب ممتلئاً بالرحمة والمحبة والسرور، كان العيد سامياً ورائعاً.

لقد ابتعد العالم الإسلامي منذ زمن طويل عن هذا الفهم العظيم للعيد، حتى إن كثيراً من الناس يظنون بأن العيد إجازة من



أجل الخروج في رحلات سياحية، فمزقوا بذلك السمة الاجتماعية والروحانية للعيد. ينبغي أن تشكل مهمة القضاء على هذه السلبية التي هي نتيجة طبيعية للانحراف عن لب الإسلام، أحدَ الأجزاء المهمة للأنشطة والجهود التي نقوم بها في سبيل خدمة الإسلام، لأن العيد أحد أكمل المظاهر التي تعبر عن إدراك الإسلام والأخلاق الاجتماعية.

وكلما أدركنا الأعياد بمعناها الحقيقي، زادت الفيوضات وعرفنا معنى الإيثار في الإسلام. لذلك ينبغي في العيد أن نحاسب أنفسنا، ونقيس مظاهر العمل والرحمة التي أبديناها، لنحدد من جديد النقطة التي وصلنا إليها.

فطوبى لمن يستطيع تزيين أعياده بابتسامة المهمومين والمحزونين!

وطوبى للقلوب المؤمنة التي تشعر بالأمة في أيام العيد!





المراجع

- القرآن الكريم.
- الكتب الستة، ومجموعات الحديث الأخرى.
- أبو الليث السمرقندي: تنبيه الغافلين وبستان العارفين، إسطنبول، ١٩٩٥.
- أحمد حمدي آكسكي: الإسلام دين فطري وطبيعي وشامل، إسطنبول، ١٩٦٦.
- أحمد شاهين: لوحات مجد التاريخ، إسطنبول، ١٩٨١.
- الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- الإمام النووي: رياض الصالحين، إسطنبول، ١٩٩٨.
- الروداني: جمع الفوائد، إسطنبول.
- حمدي دوندورن: الفقه الإسلامي وأدلته، إسطنبول، ١٩٩١.
- حمدي يازر: دين الحق لغة القرآن، إسطنبول، ١٩٩٢.
- رمضان أوغلو محمود سامي: المصاحبة ٥، إسطنبول، ١٩٨٤.
- سيد سليمان ندوي: عصر السعادة، إسطنبول.
- صادق دانا: مجالس آلتن أولو، إسطنبول.
- طاهر المولوي: تاريخ العبادة في الإسلام، ١٩٦٣.
- فريد الدين عطار: تزكية الأولياء.
- كتب بديع الزمان سعيد نورسي.
- محمد أسعد أربيلي: المكتوبات، إسطنبول، ١٩٨٣.
- محمد زكريا قندهلوي: فضائل الأعمال، إسطنبول، ١٩٧٧.



فهرس



